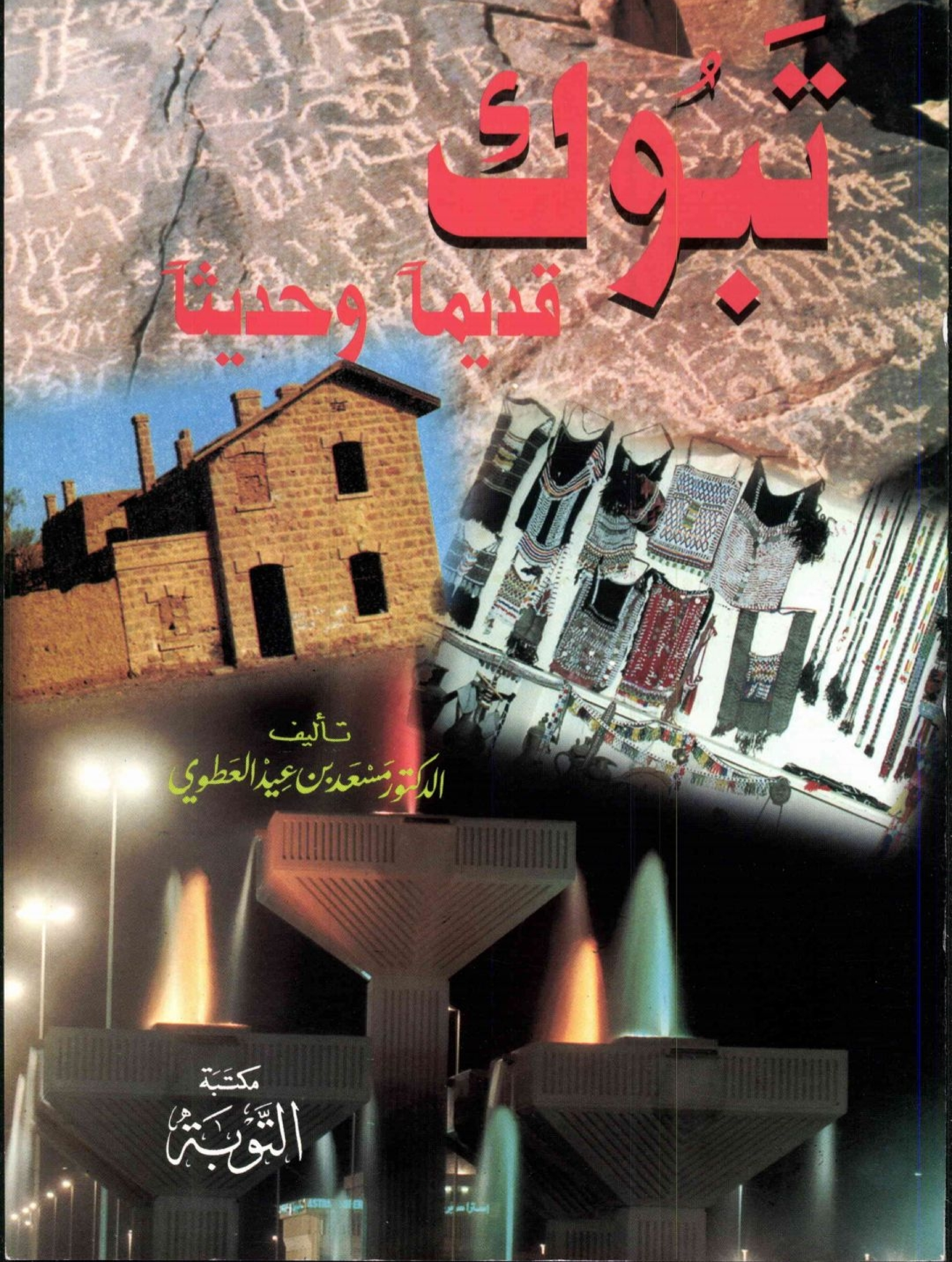


تَبُوك

قديماً وحديثاً

تأليف

الدكتور مسعد بن عيد العطوي

مكتبة

التوبة

تبوك

قديماً وحديثاً

تبوك

قديماً وحديثاً

تأليف
الدكتور سعد بن عيد العطوي
عضو هيئة التدريس في جامعة
الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مكتبة
التوبة

الطبعة الأولى

١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

الرياض - شارع جرير - ص.ب. ١٨٢٩٠ الرمز ١١٤١٥
هاتف ٤٧٦٣٤٢١ - فاكس ٤٧٩٠٤٤٣ - المملكة العربية السعودية

الإهـــداء

إلى والدي...

الذي هاجر وعانى من أجل تعليمنا...

وألهمه الله التربية الحسنة...

وكان قدوة في التقى والصلاح...

ثبته الله بالقول الثابت...

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدِّمَة

الحمد لله الذي أمـرنا بـالعبادة، وجعـل الإنسان خليفـة في الأرض يعمرها بما منحه الله من عقلٍ، وظَّفَ الطبيعة لمقتضيات الحياة الإنسانية، وصلى الله على سيدنا محمد عبده ورسوله.

وبـعـــد:

فإن منطقة تبوك آهلة بالحياة الحضـرية القـديمة، ففيهـا أو حولهـا أصحـاب الأيكة، ومـواطن شعيب، وهي قريبـة من أرض فلسطين حيث الأنبياء والرسل عليهم السلام، وقد غزاها الرسول ﷺ في السنة التـاسعة للهجرة النبوية، وبهذه الغـزوة خلدت في نفوس المسلمين ودرجت على ألسنتهم.

وتبوك ومنطقتها تمثل المكتبـة الأثريـة للأمم السـالفة، فهي مـوطن الحضـارات العربيـة، وطبيعتها جبليـة ممـا أتـاح لـلأمم أن تكتب عليهـا خطوطها، وترسم عليها حياتها.

وتحتفظ المنطقة بمعالم الحياة الزراعية والسكنية، فهناك آثار الديار وآثار الآبار والجداول، وفي أحقاب التأريخ المتأخرة نضبت الأنهار الجارية والجداول وانخفض منسوب العيون الجارية فتحولت الحياة بالمنـطقة إلى حياة بدوية رعوية، واقتصرت معالم تبوك على العيون الجارية السطحية، فكانت بلدة صغيرة تعتمد على التجارة مع الحجاج، وعلى تجارة القبائل

المحيطة بها، حتى جاء العهد السعودي الزاهر، الذي وحّد الجزيرة، وحطم الصراع القبلي، واستظلت البلاد بمظلة الاستقرار والأمن، وانتشر التعليم في ربوع البلاد، فتطورت المدينة، وأُشيدت فيها المباني وتوافد إليها أبناء الجزيرة سيما مع طلائع القوات المسلحة التي استوطنتها قبل قيام المدينة العسكرية، وبعدها، وقامت المزارع، وأصبحت عاصمة الشمال الغربي (منطقة تبوك) وأصبحت بوابة الشمال.

وقد شهدتُ تطورها المذهل من نمو العمران والأحياء، وتكاثر السكان، وازدياد الرقعة الزراعية، وتأسيس الإدارات الحكومية، وقيام المعاهد والكليات، ومعالم الحضارة، فكان لزاماً علي أن أسجل ذلك شكراً لله ثم عرفاناً لدولتنا الرشيدة وتدويناً للمنطقة وأحداثها.

ومصادر هذا الكتاب هي الكتب التاريخية، وكتب الرحلات، والمقابلات الشخصية، ومعايشتي للواقع المعاصر.

وقد قسمت الكتاب إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: تحدث فيه عن تبوك القديمة وغزوة الرسول ﷺ ومساجده، والقبائل العربية القديمة، ومكانة تبوك عبر العصور الإسلامية، والآثار حولها.

الفصل الثاني: تبوك المعاصرة وتحدثت فيه عن أشهر أمرائها وعن الأحياء السكنية وتطورها العمراني والزراعي، ونموها السكاني.

الفصل الثالث: خصصته للناحية الفكرية والأدبية.

وختاماً أشكر كل من أهدى إليّ معلومة أو صحّح خطيئة وأخص بالذكر كلاً من الدكتور سليمان الرحيلي والأستاذ فهد عايش الطيار اللذين اطلعا على المخطوطة، واستفدت من ملحوظاتهما.

الرياض

١٤١٣/٥/٧ هـ

التمهيد

- تبوك في المعاجم.
- منطقة تبوك.
- جغرافية منطقة تبوك.

تبوك في المعاجم

تحدث ابن منظور في معجمه لسان العرب عن تبوك تحت مادتي (بوك) و (تبك) فقال[1]:

«بوك: ناقة بائكة: سمينة خيار فتية، والجمع البوائك. ومن كلامهم: إنه لمنحار بوائكها، وقد باكت بُؤُوكا، وبعير بائك كذلك وجمعهم بوّك، وحكى ابن الأعرابي: وبُيَّك؛ وهو مما دخلت فيه الياء على الواو بغير علة إلا القرب من الطرف وإيثار التخفيف كما قالوا صيم في صوم، ونيم في نوم وأنشد ابن الأعرابي:

ألا تــراهــا كــالـهضـاب بُـيَّـكــا   متـاليـا جـنبـي وعُـوذا ضُيَّـكـا

جنبي: أراد كالجنبي لتثاقلها في المشي من السِّمن، والضيك: التي تفاج من شدة الحفل لا تقدر أن تضم أفخاذها على ضروعها. والكسائي يقول: باكت الناقة تبوك بوكا سمنت. والبوائك: السمان. قال ذو الخروق الطهوي:

فـمــا كــان ذنبَ بـنـي مــالــك   بــأن سُـبَّ منهم غــلام فَـسَـبْ

عــراقـيـب كــوم طــوال الــذُّرى   تــخِـرُّ بــوائــكـهــا لــلرُّكــبْ

(١) ابن منظور، لسان العرب ١: ٣٨٩، دار المعارف (الترتيب الهجائي).

وقال ذو الرمّة: أمثال اللحاب البوائك. الأصمعي: البائك والفاشج الفاسج الناقة العظيمة السنام، والجمع البوائك. وقال النظر: بوائك الإبل كرامها وخيارها وقوله أنشده ابن الأعرابي:

أعطاك يا زيد الذي يعطي النِّعم من غير ما تمنن ولا عدم
بوائك لم تنتجع مع الغنم

فسّره فقال: البوائك الثابتة في مكانها يعني النخل.

والبوك: تثوير الماء، وفي التهذيب: تثوير العين يعني عين الماء. يقال: باك العين يبوكها. وفي الحديث: إن بعض المنافقين باك عيناً كان النبي ﷺ وضع فيها سهماً. والبوك: تدوير البُندقية بين راحتيك. وفي حديث ابن عمر: أنه كان له بُندقة من مسك وكان يبلها ثم يبوكها أي يديرها بين راحتيه فتفوح روائحها.

و «البوك: البيع. وحكى عن أعرابي أنه قال: معي درهم بهوج لا يباك به شيء أي لا يباع. وباك إذا اشترى وباك إذا يباع، باك إذا جامع. والبوك الشراء، وإدخال القدح في النصل».

«تبك: تبوك اسم أرض. قال الأزهري: فإن كانت التاء في تبوك أصلية فلا أدري ممَ اشتقاق تبوك وإن كانت التاء تاء التأنيث في المضارع فهي من باكت تبوك.

وقال ابن عباد: التبوكي عنب طائفي أبيض قليل الماء عظام الحب نحو من عظم الإقماعي ينشق حبه على شجره وكذا في التهذيب وزاد ابن عباد نسبة إلى أرض تبوك»[1].

وتبوك بفتح التاء وضم الباء[2].

---

(١) ابن منظور، لسان العرب ١: ٤١٩.
(٢) الزبيدي، تاج العروس، مادة بوك.

تسميـة تبـوك:

يرى موسل أن تبوك لها ذكر في التاريخ اليوناني القديم، وكان يطلق عليها (تباوا)[1] ويقال: إنها عاصمة الأيكة، وفيها قلعتهم التي نرجح أنها قلعة تبوك الحالية، لأن المراجع التي تشير إلى القلعة لم تذكر من قام ببنائها أول الأمر، وإنما تذكر تجديدها مما يرجح قدمها، ويقال: إنها بئر صالح عليه السلام ويطلق عليها (تبوكا) أو (تابوكا) وكذلك (تبوق) وهذه الأسماء تتوافق مع المضمون الذي يدور في كيفية العين التي تجري في تبوك لأنها أخذت من التحريك وهو البوك، أو من ارتفاع تلها فيشبه الناقة الضخمة، أو غزيرة اللبن، أو استمرارية التحريك لها قبل الرسـول ﷺ، وقيل: إنها تخدع المسافرين فلا يوجد فيها الماء أحياناً[2].

تبـوك تحمل التسميـة قبل الغـزوة بدليـل قول الـرسول ﷺ: «إنكم ستـأتون غـداً ـ إن شاء الله ـ عين تبـوك، وإنكم لن تأتـوها حتى يضحي النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتي»[3].

وقد خرج الحديث وبيّن وجه التسمية عبد القادر حبيب الله ورجح أن تكون التسمية سبقت غزوة الرسول ﷺ ولا وجه لمن يقـول: إنها سميت تبوك (لأن النبي ﷺ رأى قوماً من أصحابه يبوكون حسـي تبوك أي يدخلون فيها القدح، ويحركونه ليخرج الماء فقال: ما زلتم تبوكونها بوكا)[4].

(قلت: ولو صح هذا الحديث بإسناد جيد إلى رسول الله ﷺ لم يكن له حجة في وجه التسمية لأنه قد صح عن رسول الله ﷺ ما أخرجه مسلم

---

(١) أ. موسل، شمال الحجاز ١٤٠، ترجمة د. عبد المحسن الحسيني، مؤسسة الثقافة الجامعية، ١٩٨٨ م.

(٢) انظر: حمد الجاسر، في شمال غرب الجزيرة ٤٣٧، الطبعة الثانية ١٤٠٠ هـ.

(٣) عبد القادر حبيب الله السندي، الذهب المسبوك في تحقيق روايات غزوة تبوك ٣٨.

(٤) انظر: التخريج الكامل للحديث ورواياته في الذهب المسبوك لغـزوة تبوك ٣٩، ٤٠.

وأحمد ومالك في موطأه والذي سبق تخريجه أن النبي ﷺ قال: «إنكم ستأتون غداً - إن شاء الله تعالى - عين تبوك...» الحديث. فهذا رسول الله ﷺ سماها تبوك قبل أن يأتيها أحد فلا وجه لقول ابن قتيبة في تسمية الغزوة بتبوك بناء على هذا الحديث)[1].

الموقع:

وتقع تبوك بقرب الدرجة ٣٧ - ٣٦° طولاً و٢٧ - ٢٨ عرضاً في الناحية الشمالية الغربية للمملكة العربية السعودية، وتحيط بها المرتفعات من جميع الجهات تقريباً. وتبعد عن المدينة المنورة ٦٧٠ كيلومتر، ولكن المسافة أقل لأن المسار البري ينحني كثيراً ليمر بتيماء وليبتعد عن الطريق الوعرة عبر سلسلة الحرات التي تتصل بالمدينة، وكان المسافرون يسيرون بين تبوك والمدينة المنورة اثنتي عشرة مرحلة، وتقترب من تبوك في الجهة الجنوبية الغربية حرة الرحاء وبداية أرض حسمى من الناحية الغربية لتبوك، وفي شرقها الوادي الأخضر، وتحفها من الشرق جبال غوانم وهي سلسلة جبلية تتصل بجبال شرورى. وقد ذكر ابن حوقل هذا الموقع في كتابه (صورة الأرض) فقال: «وتيماء الممر من تبوك وهي في شمال تبوك»[2] وهذا واضح الخطأ والأصح في جنوبها الشرقي.

كما ذكر موقعها أحمد عادل كمال فقال: «ولقد كانت تبوك على نشز مرتفع في سهل رملي بين جبل (حسمى) إلى الغرب منه وجبل شرورى إلى الشرق».

والملاحظ أن جبل شرورى في الشمال الشرقي لتبوك وليس إلى الشرق وهذا الجبل من المعالم المشهورة في المنطقة يهتدي به المسافرون، وتعرف به الأماكن المجاورة. فشرورى جبل مشهور عند العرب

---

(١) المرجع السابق ٤١.

(٢) ابن حوقل، صورة الأرض.

في الجاهلية والإسلام وقد تحدثوا عنه كثيراً. قال ياقوت الحموي شرورى: «بتكرير الراء وهو فعوعل كما قال سيبويه في قرورى. . . ».

فأصله إذاً إما من الشَّرَى وهي ناحية الفرات وإما من الشّرى وهو تابع الشيء، فكررت العين فيه وزيدت الواو كما قلنا في قرورى. قال لي القاضي أبو القاسم بن أبي جرادة رأيت شرورى وهو جبل مطل على تبوك في شرقيها. وفي كتاب الأصمعي: شرورى لبني سليم، قال الأعشى السلمي وكان سُجِن بالمدينة (هاجك ربع بشرورى ملبد) وقال آخر:

كأنها بين شرورى والعُمَق نواحة تلوي بجلباب خلق

وقال الأصمعي: شرورى ورحرحان في أرض بني سليم وفي كتاب النبات: شرورى وادٍ بالشام. قال الشاعر:

سقوني وقالوا: لا تُغَنِّ ولو سقوا جبال شرورى ما سُقيت لغَنّت

وقال عبد الرحمن بن حسان:

أرِقت لبرق مستطير كأنه مصابيح تخبو ساعة ثم تَلْمَحُ
يضيء سناه لي شرورى ودونه بقاع النقيع أو سنا البرق أنزحُ

وقال مزاحم العقيلي:

أذلك أَمْ كُدريّة ظل فرخها لقىً بشرورى كاليتيم المعلل
غدت من عليه بعدما تم ظِمْؤُها تصلّ وعن قَيْض بزيزاء[1] مَجْهل
غُدُوّاً غدا يومين عنه انطلاقها كميلين من سير القطا غير مؤتل»[2]

«وجبل شرورى من أعلى الجبال التي لا يمكن صعوده لأن قمته ملساء ناعمة، وتقول الأساطير إن به كنزاً وضعه كاهن منذ القدم يسمى أسطليسطس، ووضع عليه رصد قذف به في بحر الظلمات. وكثيراً من هذه

---

(١) زيزاء: مكان قرب جبل وثر في الجهة الجنوبية الغربية لشرورى على مسافة ١٠٠ كيلًا تقريباً.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة شرورى ٣: ٣٣٩.

الأساطير الخرافية التي أصبحت قصصاً مسلم بها عند بعض الناس. وقد تحدثت مع الشيخ كريم بن عطية فقال: لقد حاولنا الصعود ولم نستطع وإذا حفرنا مكاناً لرجلينا يخفس بها عند الصعود إلى غير ذلك من القصص التي يطول شرحها ولا مجال لسردها ولكن إلقاء الضوء شيء لا بدّ منه للباحث»[1]. وجبل شرورى يمكن الوصول إلى أعلاه عن طريق على شكل درج محفور على الصخور. ويصعد إلى مسجد واضح المعالم وقد مر به صاحب أرض الأنبياء قبلي. ولم يتحدث عن الجبل كثيراً، ويقال: إنه يوجد بئر شرقي الجبل في حدود طرف الظل وقت صلاة العصر، وإن ماء هذا البئر يستشفي به.

«حِسْمى: بالكسر ثم السكون مقصورة يجوز أن يكون أصله من الحسم وهو المنع وهي أرض ببادية الشام بينها وبين وادي القرى ليلتان وأهل تبوك يرون جبل حسمى في غربيهم وفي شرقيهم شرورى وبين وادي القرى والمدينة ست، قال الراجز:

جاوزن رمل إيلة الدهّاسا وبطن حسمى بلداً هرماسا[2]

وحسمى أرض غليظة وماؤها كذلك لا خير فيها تنزلها جذام وقال: ابن السكيت: حسمى لجذام جبال وأرض بين أيلة وجانب تيه بني إسرائيل الذي يلي أيلة وبين أرض بني عذرة من ظهر حرة بهل فذلك كله حسمى. قال كثير:

سيأتي أمير المؤمنين ودونه جماهير حسمى قورها وحزونها
تجاوبُ أصدائي بكل قصيدة من الشعر مهداة لمن لا يهينها

ويُقال: آخر ماء نضب من ماء الطوفان حسمى فبقيت منه هذه البقية

---

(١) ملحق المدينة من مقال بقلم علي محمد العامري.
(٢) هرماسا: أي واسع.

إلى اليوم فلذلك هو أخبث ماء[1]. وفي أخبار المتنبي وحكاية مسيره من مصر إلى العراق قال حسمى أرض طيبة تودي لبن النخلة من لبنها وتنبت جميع أنواع النبات مملوءة جبالاً في كبد السماء متناوحة ملس الجوانب إذا أراد الناظر النظر إلى قمة أحدها فتل عنقه حتى يراها بشدة. ومنها ما لا يقدر أحد أن يراه ولا يصعده ولا يكاد القتام يفارقها ولهذا قال النابغة[2]:

فأصبح عاقلاً بجبال حسمى دقاق التراب محتزم القتام

واختلف الناس في تفسيره ولم يعلموه، ويكون مسيرة ثلاثة أيام في يومين يعرفها من يراها حيث يراها لأنها لا مثل لها في الدنيا. ومن جبال حسمى جبل يعرف بإرم[3] عظيم العلو تزعم أهل البادية أن فيه كروماً وصنوبراً[4]. وفي حديث أبي هريرة تخرجك الروم منها كفراً إلى سُنبك من الأرض قيل له: وما ذلك السنبك، قال: حسمى جذام. وقرأت في بعض الكتب أن بعض العرب، قال: أن الله اجتبى ماء إرم والبديعة[5] ونعمان

---

(1) لا يعرف الآن ماء باسم حسمى، ولكن يعرف ماء باسم (أبو مرير) فيه آبار مالحة الماء ولا يستساغ ومن شرب منه فإنه يصاب بالإسهال. وهو قريب من وادي ضم في الجهة الشمالية الغربية لتبوك بما يقارب من أربعين كيلاً.

(2) النابغة، الديوان ٣٦ برواية: «وأضحى ساطعاً بجبال حسمى»، دار المعارف بمصر، الطبعة الأولى.

(3) يعرف الآن بجبل رم في وادي رم في نهاية حدود حسمى في المملكة الأردنية، وتنبع المياه من جوانبه وماؤه عذب، ولكن لا نبات في رأسه، غير أنه يقترب من وصف سُنُبك، وأظن أن المتنبيء جاء إلى ذلك الجزء من حسمى فهو الذي على طريقة من مصر وهو الأقرب إلى بلاد العراق، ويتصل مباشرة ببسيطاء التي وصفها في شعره.

(4) لا يعرف اليوم جبل بهذا الاسم حول تبوك ولكن تلك الصفات تطابق ما يذكرونه عن جبل (اللوز) وهو جبل عظيم رأيت فيه معالم لتصنيع الحجارة البيضاء التي تصنع منها الهياكل والأعمدة الرخامية. ويرتفع عن سطح البحر ٢٥٧٨ م.

(5) البديعة: ماء في حرة الرحاة، مورد عذب، وفيه نخيل، وتحول إلى قرية فيها مركز للإمارة، ومستوصف طبي، ومدارس ابتدائية.

وعللان[1] بعباده المؤمنين وهذه المياه كلها حسمى.

في كتاب السير وأخبار نوح أن حسمى جبل مشرف على حـران، وهذا بعيد من جهتين إحداهما: أن الجودي بعيد عن حرّان، بينهما أكثر من عشرة أيام، والثانية أنه لا يعرف بالجزيرة جبل اسمه حسمى[2]، والذي يطوف في ربوع هذه المنطقة، يرى أصدافاً بحرية، مما يدل على أن تلك الديار كانت مغطاة بالماء في فترة زمنية سابقة. وحـدود حسمى من جهة الجنوب حرة الرحاء وهي نهاية الحرات في جزيـرة العرب. ومن الغـرب سلسلة الجبال المشرفة على ساحل البحر الأحمر. ومن الشرق سهول تبوك الممتدة. ومن الشمال تنتهي بنهاية وادي إرم بعرض يقارب تسعين كيـلاً وطول يقارب خمسين ومائة كيلاً.

منطقة تبوك

المكان الذي تقع فيه مدينة تبوك يحتم قيام مدينة رغم الظروف الزمنية المتتالية والمتغيرة، فالمكان صالح لتنامي العمران؛ حيث تكثر فيه الموارد المائية، والأراضي الخصبة الكفيلة باستمرار الحياة ما أراد الله ذلك، والمكان الذي تتواجد فيه تبوك وقراها استطاع أن يستهوي الأحقاب الزمنية، وأفكار أهلها، وحاجاتهم وقدراتهم وتقدمهم، فكل استطاع أن يقيم من العمران ما يدل على تمكنه من الحضارة (إن كان متمكناً) أو على بدائية قدراته، لذا فإنك تجد آثاراً للدول العظمى، وآثاراً للإمارات، وآثاراً للبدائية. وقد كانت التلال تنبع عيوناً جارية تنساب في جداول يسهل توجيهها للمزارع فلما جاءت التقنية الحديثة أوجد الله فيها ماء غزيراً يستخرج من الآبار الارتوازية.

فاختيار الموقع الجغرافي لتبوك منسجم مع الموقع الذي يجب أن تبني فيه المدن، وكأن الذين اختاروا هذا الموقع من خبراء الجغرافيا. فالضروريات لتكوين المدينة موجودة، حيث السهول الممتدة، والمياه

---

(١) علان: يسمى الآن علقان وفيه مركز للأمارة ومدارس، وتلك الأماكن متباعدة جداً حيث يبعد كل منها ما يقارب ثمانين كيلاً.

(٢) انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، حسمى، حمد الجاسر، شمال غرب الجزيرة ٥١٦، مقال لعلي العامري في ملحق جريدة المدينة (خاص عن تبوك) رقم ٥٠ صفر ١٤٠٣ هـ.

الغزيرة، مما أدى إلى تكاثر الزراعة، وبناء العمران، وأدى موقعها على مشارف الشام، ودرب الحاج، والطريق التجاري إلى ازدهارها منذ القدم.

وكذلك فإنها ملتقى لعدد من القبائل العربية التي تحيط بها من جميع جهاتها، ولما كانت أساليب الحياة الأولى بدائية؛ فإن القبائل استفادت من العيون المتدفقة التي لا تحتاج إلى جهد جهيد في استخراج الماء، ويغذي تلك العيون المياه التي تتدفق في الأودية من حرة الرحاء والعويرض، وحسمى حيث تصب في سهول تبوك. ومنها الوادي الأخضر الذي يمتد من جنوب جبلي شيبان ووتر وتصب فيه أودية كثيرة ليتدفق شرق تبوك، ووادي (أتانة)[1] الذي تصب فيه أودية كثيرة منها: الرقراق، والقصة، والرمضة، ورشدان، وسدير، وبخية. ثم يتصل بوادي الضُيِّقة فيتدفق في وادي الأثل الذي يتدفق فيه أيضاً وادي الغضا ويسمى الآن (غضي) وصاد، والوبري ووادي نعام، ووادي الأثل هذا يتدفق في وادي أبو نشيفة شرق تبوك فهو يفصل بين تبوك والوادي الأخضر. ومن الجهة الغربية تتدفق أودية العويند، وقنا، والهدرة، في وادي البقار لتصب في القاع الزراعي غرب تبوك الذي قربت منه المباني السكنية وأودية حسمى الكثيرة التي تتصل بوادي ضم في شمال غرب تبوك، ويتدفق سيله في المحتطب عند بوابة تبوك. ويروي أحد المعاصرين أنه سمع أزيز الماء في القاع فعجب من ذلك وإذا بما يشبه الدوامة حوله فإذا الماء يغور في باطن الأرض.

وكانت الغابات مزدهرة في بطون الأودية، وكذلك الأعشاب والحشائش التي تتغذى عليها الأنعام لمستوطني تبوك.

وسهول تبوك تبدأ من نهاية حرة العويرض، وجبال السليطيات، وجبل

---

(١) الأتانة: في اللغة الصخرة العظيمة، وفي ذلك الوادي صخرة كثيرة الظلال.

برك في الجنوب لتبوك وتمتد للشمال لمسافة عشرين ومائة كيلاً حيث تبلغ حالة عمار.

ومن الشرق تحفها جبال غوانم والجبال المتصلة بشروری، ومن الغرب جبال حسمى ولكنها ليست بالشاهقة كما هو شأن الجبال الداخلية، وهذه الجبال تمتد بمحاذاة السهل التبوكي من الجهتين. والمسافة لهذا السهل من الشرق إلى الغرب تكون بمعدل ثلاثين كيلاً تقريباً.

وكانت الزراعة تحف بتبوك من ناحيتها الغربية ولكن الزحف العمراني اكتسح تلك المزارع الأولى، وبدأ العمران مع الآبار الارتوازية في الجهة الشرقية والجنوب الشرقي على امتداد الدرب البري المعبد العالمي للمدينة المنورة، فاتسعت مدينة تبوك حتى حجزتها المزارع الشرقية، والمدينة العسكرية في الجنوب، وأخذت تمتد شمالاً ولكن المشاريع والمزارع أخذت تحاصرها في الشمال عند بوابة تبوك في ما يسمى قديماً (المحتطب).

والمزارع الحديثة تمتد من وادي الأخضر في الجنوب الشرقية ووادي الأثيلي في جنوب تبوك وتحف بالمدينة العمرانية سيما في شرقها، وتمتد في تلك السهول حتى تقترب من بئر ابن هرماس، وتتكاثر في غربه حول قرية عُيينة.

وينتظر المواطنون هناك السماح لهم بزراعة السهول الممتدة بين بئر ابن هرماس، وحالة عمار، وذات الحاج.

ومدينة تبوك اليوم هي حاضرة منطقة تبوك وعاصمتها وترتبط بها المدن الآتية:

أم لـج:

مدينة ساحلية، اشتهرت بأنها مرفأ إسلامي، وحولها قرى تحوي آثاراً إسلامية، وهي ذات تربة جميلة، ويمر بها الخط البري الساحلي «من مدن

شمال غرب المملكة.. يجمع موقعها بين عناصر ثلاثة هي الجبل والسهل والبحر، وتمتاز بنعومة شواطئها، وقلة شعابه، وتوشحه ببعض الغطاء النباتي»[1]. وحولها جزر تمتاز بتربتها البيضاء الناعمة، وقد أرست فيها قوات لأرناط حاكم الكرك النصراني، ودخلت إلى الداخل تريد محاصرة المدينة المنورة، ونبش قبر الرسول ﷺ لكن الله خذلهم. وقد توافرت فيها المرافق العامة كالإمارة والبلدية، والمشافي، ومدارس التعليم العام، والمعهد العلمي التابع لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وهي على الدرب البري المعبد الذي يحاذي الساحل البحر الأحمر من شماله إلى جنوبه، وحولها كثير من القرى، وكثير من أبناء البادية من القبائل العربية التي احتفظت باسمها القديم تلك قبيلة جهينة، وتكثر حولها مزارع النخيل، وبقربها وادي العيص المشهور في السيرة النبوية. وهي ذات موارد بحرية وبرية وتجارية.

البـدع:

تقع على جانبي وادي عفال وقريباً منها آثار مدين، وكانت مقراً لشعيب عليه السلام، ونزل بها موسى عليه السلام واسمها مأخوذ من إيداع ابن مدين بن إبراهيم عليه السلام.

والبيوت الأثرية منحوتة بشكل هندسي داخل الجبال، وكل بيت فيه حجراته، ومكان أثاثه، ومقابره خلافاً لمن يرى أنها مقابر فحسب.

وقد اشتهرت بالزراعة، وخاصة الطماطم الشتوية، وهي تمد تبوك والمدن المجاورة وتنقلها إلى أسواق المدينة المنورة وجدة.

وفيها مجمع قروي، والدوائر الحكومية، وقد وصلتها الخدمات من الهاتف والبث التلفازي. والخدمات الصحية والتعليمية وهي ترتبط بمدن تبوك وحقل وضبا بخطوط معبدة.

---

(١) البلاد ع ١٠١٩٥ في ١٤١٢/١١/٢٨ هـ، مقال للدكتور سليمان الرحيلي.

وهي على درب الحاج المصري على مقربة من الساحل الشرقي للبحر الأحمر، وقد تحدث عنها صاحب درر الفرائد كثيراً[١].

تيمـاء[٢]:

تقع شمال المدينة المنورة على بعد ٤٤٠ كيلاً وجنوب تبوك الشرقي (٢٦٠ كيلاً) وهي من المدن القديمة في الجزيرة العربية، ويطلق عليها (تيما) بالتخفيف من المد، وهي ودادان (العلا) تمثل حضارة العرب البائدة كالثموديين، وأيضاً تمثل مركزاً تجارياً مع الدول العربية في اليمن، ولها مركز تجاري لاتصالها بوسط الجزيرة وجنوبها وشرقها ويزيد ذلك قربها من دومة الجندل، وتدمر والعراق، ولها ميناء تجاري ذلك هو مدينة الوجه الحالية، ولأنها من الكيانات التي تنافس الحضارات في الشام وفلسطين، فقد ورد ذكرها في التوراة مع دادان موطن حضارة ثمود التي تقف في مواجهة الروم الذين احتلوا الشام وشمال الجزيرة، ومما قيل في التوراة «ودادان وتيماء وبوز، وكل مقصوص الشعر مستديراً، وكل ملوك العرب، وكل اللفيف الساكنين في البرية»[٣]. وعادة قص الشعر المستدير معروفة في شمال غرب الجزيرة حتى وقت قريب، أما الآن فقد انقرضت، لكنها ظهرت في أمريكا، فقد رأيت بعضاً منهم يحمل تلك القصة تماماً، وكانت تسمى (التحويف) من حف الشيء يحفه حفاً من جانبيه.

وتيماء وردت في أشعار عدد من الشعراء العرب مثل امرىء القيس، وعبيد بن الأبرص والنابغة الذبياني، والأعشى، إلى جانب الشعراء فيها مثل السَّمْـوءَل، وعشيرة السَّمْـوءَل عربية وفدت إلى تيماء من وادي القرى،

---

(١) الجزيري، درر الفرائد ١٦٢، ٢٥١، ١٢٣٥، ١٢٥٠، ١٣٣٥، ١٣٥٧.

(٢) انظر: د. جواد علي، المفصل ١: ٥٨١، وياقوت الحموي، معجم البلدان، حمد الجاسر، شمال غرب الجزيرة.

(٣) أرميا، الإصحاح الخامس والعشرون ص ٢٠ وما بعدها نقله د. جواد علي في المفصل ١: ٥٩٦.

وامتنعت حامية الحصن من إدخالهم حتى يدخلوا اليهودية واليهود فرّوا من هجمات النصارى فاتجهوا إلى داخل الجزيرة، وسيطروا على الزراعة. ونظراً لانشغال العرب بالحروب وارتحالهم فقد رضوا بأن يولوهم الزراعة وإن سيطروا عليها فيما بعد.

وتيماء في العهد الإسلامي تمثل خط الدفاع الإمدادي للجيوش الإسلامية في الشام والحامية ضد الجيوب الحربية المتسللة، فقد بعث الخليفة الراشد أبو بكر رضي الله عنه القائد خالد بن سعيد بن العاص ليستقر في تيماء ويجند الجند من القبائل المجاورة، ويمد الجيوش الإسلامية بهم[1].

وقد تأثرت تيماء في القرون الإسلامية بتحول دروب الحاج عنها عبر تبوك فوادي القرى فالمدينة المنورة.

وقد اشتهرت بمركزها التجاري، وزراعتها للنخيل والعنب، وبمائها الغزير من البئر المعروفة (هدّاج) الذي يكون في المرتبة الثانية في جزيرة العرب بعد بئر زمزم ولغزارة مائه يضرب به المثل المشهور «إشرب كأنك على بئر هدّاج».

تيماء المعاصرة:

من مدن شمال غرب الجزيرة تابعة لمنطقة تبوك، وهي في مركز تجاري حيث يشقها الطريق الدولي بين الجزيرة والشام وتركيا وأوربا، ولها اتصال بالعلا والساحل (من جهتهما الشرقية) ولها اتصال بحائل والقصيم من الجنوب الشرقي لهما وترتبط في الجهة الشمالية بتبوك وتقرب منها منطقة الجوف في الشمال الشرقي، وتمتاز برياضها الجميلة ذات المراعي الغزيرة.

---

(١) الطبري، تاريخ الطبري ٣: ٣٨٧، ٣٩١، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط ٤.

وقد تطورت عمرانياً في العهد السعودي، فتوسعت، وقامت عمائر كثيرة في أماكن مرتفعة عن الوادي الزراعي، وقد عبرتها طرق فسيحة مزدانة بالأشجار الجميلة، وكثير من المعالم الجمالية، وقد أولتها الدولة رعايتها، فانتشرت المدارس للبنين والبنات. والدوائر الحكومية كالإمارة والشرطة، والدفاع المدني والاتصالات من الهاتف وغيره، ومحطة تلفاز.

وتيماء عرفت بآثارها، فهي متحف أثري لا يخلو شعب من شعابها أو تل من مزرعة من مزارعها أو تلالها من أثر من الآثار، فحبذا لو عُهِدَ إلى لجنة دائمة فيها للكشف عن الآثار ووضع حوافز تغري الأفراد بإحضار ما يمكن حمله، والإشارة إلى غير ذلك[1].

والزراعة في تيماء، اتخذت لوناً حضارياً، فقد اهتم أهلها بمواصلة زراعة النخيل بالطرق الحديثة، وأشهر أنواعه (الحلوة) و(البرنية) وكذلك العنب المتميز بضخامة حبوبه وعظم عناقيده، ومذاقه الحلو.

وقد قامت فيها مزارع حديثة تترامى على مقربة من الخط البري العام وتنتج ألواناً من الفواكه والخضار.

وقامت حولها وبعيداً عنها بعض الشيء كثير من المشاريع الزراعية الضخمة للحبوب من القمح والشعير والأعلاف في مكان يسمى جريش في الشمال الغربي من مدينة تيماء.

ومن أهم معالم مدينة تيماء جبل غنيم المشهور بجبل السَّمْوَءَل ويقع جنوبها بمحاذاة الخط البري الذي يصل مدينة تيماء بالمدينة المنورة، وقد وردت تيماء في أشعار الجاهليين ومنهم الأعشى:

ولا عادياً لم يمنع الموت ماله　　　وحصن بتيماء اليهودي أبلق[2]

---

(١) انظر: مجلة الأطلال التي تصدرها وزارة المعارف، العدد الخامس.

(٢) الأعشى، الديوان ٢٦٧، تحقيق د. محمد محمد حسين، مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة ١٣٨٨ هـ.

ويقول السّموءل صاحب الأبلق:

بـالأبـلق الـفـرد بـيـتـي بـه | وبـيـت الـمـصـيـر سـوى الأبـلق
بـبـلقـعـة أثـبـتَتْ حـفـرة | ذراعـين فـي أربـع خـيـسـق[1]

وقال:

إذا المرءُ لم يدنَسْ من اللؤم عِرْضُهُ، | فكُلُّ رداءٍ يَرتَـديـهِ جَميـلُ[2]
وإنْ هوَ لمْ يحْمِلْ على النفسِ ضَيمَها | فليسَ إلى حُسنِ الثنـاء سَبيـلُ[3]
تُعَيِّرُنـا أنّـا قليـلٌ عَـديـدُنـا | فقُلْتُ لهـا: إنّ الكِرَامَ قليـلُ[4]
ومـا قَلّ مَنْ كـانتْ بَقاياهُ مِثلَنـا، | شَبـابٌ تَسامَى للعُلى وكُهُـولُ[5]
ومَـا ضَـرّنَـا أنّا قَلِيـلٌ وجَـارُنَـا | عَـزيـزٌ وجَـارُ الأكْثَـرِينَ ذَلِيـلُ[6]
لنَـا جَبَـلٌ يَـحْتَـلُّهُ مَن نُـجِيـرُهُ | مَنيعٌ يَـرُدُّ الطَّرْفَ وهـو كَليـل[7]
رَسَـا أصلُهُ تَحْتَ الثّرَى وسَمـا بهِ | إلى النَّجْمِ فَرْعٌ لا يُنالُ طـوَيل[8]
هوَ الأبْلَقُ الفَرْدُ الـذي شاعَ ذكـرُهُ | يَعِـزُّ على مَـن رامَـهُ ويَـطُول[9]

---

(١) ديوان عروة بن الورد والسموءل ٨٨، دار صادر، بيروت.

(٢) اللؤم: اسم جامع للخصال المذمومة. عرضه: بدل اشتمال من المرء، والمعنى: أن الإنسان إذا لم يتدنس باكتساب اللؤم واعتياده، فأي ملبس يلبسه بعد ذلك كان جميلاً.

(٣) الضيم: الظلم.

(٤) عديدنا: فاعل قليل.

(٥) كهول، جمع كهل: الرجل في سن الأربعين إلى الستين.

(٦) يجوز في «ما» أن تكون نافية والمعنى: لم يضرنا، ويجوز أن تكون استفهامية على طريق التقرير فيكون المعنى: أي شيء ضرنا.

(٧) نجير: نحمي. منيع: حصين. الطرف: البصر. كليل: تعب قاصر النظر.

(٨) الثرى: التراب. سما: ارتفع.

(٩) الأبلق الفرد الذي شاع ذكره: هو حصن السموءل بناه أبوه وقيل سليمان بأرض تيماء، وقصدته الزباء فعجزت عنه وعن مارد فقالت: «تمرد مارد وعز الأبلق».

وإنّا لَقَوْمٌ لا نَرَى القَتلَ سُبّةً ... إذا ما رأتْهُ عامِرٌ وسَلُولُ[1]

يُقَرّبُ حُبُّ المَوتِ آجالَنا لَنا ... وتَكْرَهُهُ آجالُهُمْ فَتَطُولُ[2]

وما ماتَ منّا سيّدٌ حَتْفَ أنفِهِ ... ولا طُلّ مِنّا حيثُ كانَ قتِيلُ[3]

تسيلُ على حدّ الظُّباتِ نُفوسُنا ... ولَيْسَتْ على غَيرِ الظُّباتِ تَسِيل[4]

صَفَوْنَا فلمْ نَكْدُرْ وأخلصَ سِرَّنَا ... إنَاثٌ أطابَتْ حَملَنا وفُحول[5]

عَلَوْنَا إلى خيرِ الظُّهورِ وحَطّنَا ... لِوقتٍ إلى خيرِ البطونِ نُزُول

فنحنُ كمَاءِ المُزْنِ ما في نصابِنَا ... كَهَامٌ ولا فِينا يُعَدُّ بخِيل[6]

ونُنْكِرُ إنْ شِئْنَا على الناس قَوْلَهُمْ ... ولا يُنكِرُونَ القَولَ حينَ نَقول

إذا سَيِّدٌ مِنّا خَلا قامَ سَيِّدٌ ... قَؤُولٌ لِما قال الكِرامُ فَعُول[7]

وما أُخمِدَتْ نارٌ لنا دونَ طارِقٍ ... ولا ذَمّنَا في النّازِلِينَ نَزِيل[8]

وأيّامُنا مَشهورةٌ في عَدُوّنَا ... لهَا غُرَرٌ مَعْلُومَةٌ وحُجُول[9]

---

(١) السبة: العار. عامر وسلول: اسمان لقبيلتين.

(٢) آجال، جمع أجل: عمر الإنسان الذي يعيشه.

(٣) يقال: مات فلان حتف أنفه، إذا مات على فراشه. جاء في المزهر جزء ١ ص ١٢٦ مطبعة السعادة بمصر: إن لفظة مات حتف أنفه لم تسمع إلا من النبي ﷺ وما سمعت عن العرب من قبل.

(٤) الظبات، جمع ظبة: وهي حد السيف، وفي البيت إشارة إلى الشجاعة في الحرب.

(٥) سرنا: أصلنا الطيب، والمعنى: صفت أنسابنا فلم يشبها كدر.

(٦) ماء المزن: المطر، يريد بذلك تشبيه صفاء أنسابهم بصفاء ماء المطر. والنصاب: الأصل. الكهام: الكليل الحد.

(٧) يعني أن السيادة مستقرة فينا حتى إذا خلا منا سيد خلفه سيد يقول ما تقول الكرام ويفعل ما تفعله.

(٨) الطارق: الضيف الذي يجيء ليلاً. النزيل: الضيف. يريد أنهم لكثرة كرمهم يديمون إيقاد نار الضيافة ولا يطفئونها دون طارق الليل، ويثني عليهم كل ضيف.

(٩) الحجول، جمع حجل: وهو الخلخال، يريد أن وقعاتنا مشهورة في أعدائنا فهي بين الأيام كالأفراس الغر المحجلة بين الخيل.

واسيافُنا في كلّ شَرْقٍ ومَغْرِبٍ	بها مِنْ قِراعِ الدّارعينَ فُلول[1]
مُعَوَّدَةً ألاّ تُسَلّ نِصالُها	فتُغْمَدَ حتى يُسْتَبَاحَ قَبيل[2]
سَلي إنْ جَهِلْتِ النّاسَ عنّا وعنهُمْ	فليس سواءٌ عالِمٌ وجَهول[3]
فإنّ بني الرّيّانِ قطبٌ لقومِهِمْ	تَدُورُ رَحاهُمْ حولَهم وتجول[4] [5]

حقـل:

قال الحموي: «حقل ساحل تيماء، قرية بجانب «أيلة على البحر» والأصح أنها في مواجهة أيلة على ساحل البحر شرقاً وأيلة على غربه، وكانت بوابة الجزيرة لاستقبال الحجاج المصريين ومنها ينطلقون إلى الطريق الشتوي الساحلي. وتبعد عن العقبة ميناء الأردن ثلاثين كيلا والعقبة على رأس خليج العقبة نهاية البحر الأحمر.

وهي مرتبطة بتبوك ارتباطاً جغرافياً، فقد كانت قديماً وحديثاً ميناء تبوك وتيماء، وقد تنامت في العهد السعودي، وتطورت تطوراً ملموساً، وهي تقع في بطن واد كبير، فأدركت البلدية ذلك وخططت لها مخططات جديدة تقع على مرتفع بعيد عن السيول الجارفة، وتمتاز بجوها المعتدل فهي تقع على أحد خليجي البحر الأحمر، وحقل اليوم من المراكز السياحية لمدينة تبوك، ولها مكانتها التجارية - فهي على الحدود مع الأردن -،

---

(١) القراع: المقارعة والمضاربة. الدارعين: أصحاب الدروع. الفلول، جمع فل: وهو الكسر المسنن في حد السيف.

(٢) القبيل: الجماعة من آباء شتى. يقول: عودت أسيافنا ألا تجرد من أغمادها فترد فيها، إلا بعد أن يستباح بها قبيل.

(٣) معناه: إن كنت جاهلة بنا فسلي الناس تخبري بحالنا، فالعالم والجاهل مختلفان. والبيت من شواهد النحو حيث قدم خبر ليس على اسمها وهذا لا يجوز لجمودها.

(٤) القطب: الحديد الذي في الطبق الأسفل من الرحى - حجر الطاحون - يدور عليه الطبق الأعلى، والمعنى: أن أمر قبيلتهم لا يستقيم ولا يتم إلا بهم، مثل الرحى لا يتم عملها إلا بالقطب.

(٥) ديوانا عروة بن الورد، والسموءل ٩٠.

والسياحة أيضاً لها تأثيرها الاقتصادي على الأسواق، وقد اعتنت الدولة بسواحلها، وأقامت عليها المنشآت التي تريح السائح، وتعهدت الدولة بمقومات الحضارة من التعليم، وسائر الدوائر الحكومية والهاتف، والبلدية، والبث التلفازي وهي تبعد عن تبوك ٢٢٠ كيلاً.

الوجـه:

قيل: إنها كانت الميناء البحري للدولة الثمودية، ويقال إن السفن الرومانية نزلت بها في حملة فاشلة سنة ٢٤ ق م، وهي مدينة ساحلية على البحر الأحمر في غرب البلاد وتبعد عن ضبا ١٤٥ كيلاً إلى الجنوب وكانت مرفأ للحجيج المصري وطريقاً برياً أيضاً لهم أثناء توجههم للمشاعر المقدسة وقد ازدهرت في العهد السعودي، وتكاملت الخدمات العامة فيها، وتنامى التعليم للبنين والبنات، وفيها عدد من المدارس الثانوية في مراحل التعليم العام للجنسين وحولها كثير من القرى الأثرية مثل شغب وبدا وغيرهما، وفيها مطار يخدم المدن الساحلية القريبة مثل ضبا وأم لج.

ضبا:

ذكر ياقوت الحموي أنها قرية وكتب اسمها (ضبة)، ويقال: «إنها مورد ماء عذب على الساحل، وهي مرفأ إسلامي آمن، وهي على الطريق الساحلي للحجيج خاصة المحمل المصري، وهذا الطريق يمر بالعقبة وحقل ومدين، وعيون القصب، والمويلح، والأزلم، وأكرى، الحوراء، نبعة، ينبع»[1].

وقد ازدهرت مدينة ضبا في العهد السعودي، فقامت فيها محطة تحلية، وأنشئت قرى سياحية بالقرب منها، وأقيم فيها ميناء يخدم شمال غرب الجزيرة، ويربط المملكة بمصر وبلاد المغرب.

---

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان (ضبة)، وانظر: موسى مصطفى العبيدان، ضباء بين الماضي والحاضر.

وقد رأيت عند أحد متقدمي السن بعضاً من المخطوطات القديمة، ويغلب أن تكون من هدايا أو شراء من الحجاج الذين يمرون عبرها. ولا زال عالقاً في ذهني منها كتاب (التهذيب) وهو بخط جميل، وقد وضعها في رفوف متهالكة يخشى عليها من الاندثار.

ومن أشهر معالم مدينة ضبا جبل شار الذي يقع في شماليها الشرقي وهو جبل عالٍ عما حوله تنتهي قمته بصخور ملساء يصعب تسلقها.

وقد حظي التعليم بنصيب وافر في مراحله العامة من بنين وبنات كبقية مدن المنطقة. وقد تم استكمال مشروع الميناء البحري في شاطىء مدينة ضبا، الذي يؤدي إلى ازدهار المدينة ويخدم منطقة تبوك، ويقرب المسافة للحاج المصري وشمال إفريقية، وسيقام قريباً إن شاء الله - مصنع للأسمنت - وقريباً من ضبا وادي الصويوين الذي تتكاثف فيه خامات الحديد وغيرها.

وهناك نواحٍ صغيرة تتبع مدينة تبوك خلاف المدن الهامة منها:

القليبة: على الطريق البري بين تبوك وتيماء.

العيينة: شمال تبوك على بعد ٧٨ كم في الجهة الشمالية على طريق حقل تبوك وبالقرب منها مدينة أثرية لم يعرف اسمها، في غربها «قُرية» سنتحدث عنها في مبحث الآثار إن شاء الله.

بئر ابن هرماس: على بعد ٦٠ كم من تبوك في الجهة الشمالية على طريق تبوك حالة عمار وربما تعود التسمية إلى عمر شاهين بن هرماس الوحيدي من بني عطية حيث أمره بعض السلاطين(١) بحفر الآبار على طريق الحاج، وتلك التسمية حديثة في عهد العثمانيين. وأسرة ابن هرماس ما زالت تعرف.

---

(١) الجزيري، الدرر الفرائد المنظمة ٩٥١، ١٣٣٩، ١٣٤٠، ١٣٤٥ هـ، تحقيق الشيخ حمد الجاسر.

حالة عمار: على مسافة ١٠٦ كم إلى الشمال من تبوك على الحدود الأردنية وهي مدينة حكومية قامت الدولة ببناء المنازل لموظفيها وسميت بهذا الاسم لما يروى أن عماراً هذا قد انقطعت به السبل، واشتد به المرض، فعثر عليه عابر سبيل، ونصب خيمته ليظل بها عماراً، وأخذ يعالجه حتى شُفي، فسُميت حالة عمار.

الخريبة: على ساحل البحر الأحمر وبها ميناء قديم وبئر قديمة يرجع تاريخها إلى ما قبل الميلاد وقربها قرى قيال وشرما.

الديسة: تقع في (وادي داما) حيث العيون الكثيرة، ومزارع النخيل الوافرة وسميت الديسة لكثرة أشجارها.

شواق: وبها آثار ثمودية وأماكن للتعدين في العهد القديم.

أبو القزاز: يقع في (وادي ثليا وبالقرب منه قرية (الكر) وهي قريبة من الوجه في شرقه على مسافة ٧ كيلاً).

قرية رحيب: وبها مركز إمارة، وربما أنها أخذت من مدينة قديمة مزدهرة في المنطقة يقال لها: الرحبة وهي إلى الجهة الجنوبية من تبوك على مسافة ١٢٠ كم وهي جنوب حرة العويرض.

البيضاء وعين الأخضر والعنبة: قرى زراعية في حرة الرحاء، تمتاز بجوها اللطيف.

المويلح: قرية صغيرة على البحر الأحمر تبعد عن مدينة ضباء ٤٥ كيلا على طريق ضباء البدع.

بـــدا:

بالفتح والقصر يطلق عليها بدا-يعقوب، مشتق من اسم بداية سعد إحدى القبائل القحطانية، وكان يستوطنها يعقوب، وانتقل منها إلى ابنه يوسف عليه السلام بمصر، وتقع في وادٍ فسيح، وفيها كثير من المساكن

القائمة، وقد اختلط على الحموي تحديده فقال: «واد قرب أيلة من ساحل البحر وقيل: بوادي، وقيل قرب الشام»[1] والأصح أنه غرب وادي القرى في منتصف الطريق بين الوجه والعلا، يقرب منه (شغب) وقد جمع بينهما بعض الشعراء:

وأنت التي أحببتِ شَغْباً إلى بدأ   إليّ وأوطاني بلاد سواهما
حللت بهذا حَلَّةً ثم حَلَّةً   بهذا، فطاب الواديان كلاهما

فالشاعر أشار إلى كونه وادياً معروفاً بهذا الاسم، و (بدا) الحاضر هو قرية في بطن واد يسمى وادي النجد وقد نسب جميل العذري الوادي إليه:

ألا قد أرى إلا بثينة ترتجي   بوادي بدأفلا بحسمى ولا شغب

وكانت حول بدأ بعض التلال فلما جاء سيل قوي كشف أن تحت التلال بعض المباني.

وفي تفسير غرائب القرآن، ورغائب الفرقان للنيسابوري إشارة إلى بدأ في قوله تعالى: ﴿وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو﴾[1]. «قال ابن الأنباري: (بدأ) موضع معروف هناك روي عن ابن عباس أن يعقوب تحول إليه وسكن فيه ومنه قدم إلى يوسف عليه السلام»[2].

البديعة: وهي قرية مزدهرة تزرع النخيل، تبعد عن مدينة تبوك ٨٠ كم وقد عزمت وزارة المواصلات بإنشاء طريق مزفت مستعجل ليخدم تلك القرى: البديعة، ورحيب، والبيضاء، والعنبة، وعين الأخضر ويخدم البادية المتكاثرة في المنطقة.

---

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان (بدأ).

(١) سورة يوسف: الآية ١٠٠.

(٢) النيسابوري، تفسير غرائب القرآن، حاشية تفسير الطبري ١٣: ٥٠، الطبعة الرابعة ١٤٠٠ هـ.

جغرافية منطقة تبوك

المساحة[1]:

تغطي منطقة تبوك التخطيطية ما مساحته ١١٦,٤٠٠ كم من الأراضي الممتدة على ساحل البحر الأحمر من الحدود الأردنية في الشمال إلى جنوب مدينة أملج، والأراضي الداخلية حتى أطراف صحراء النفود الكبير شرقاً. ويصل أقصى طول لمنطقة تبوك التخطيطية إلى ٧٠٠كم تقريباً باتجاه شمال ـــ جنوب على ساحل البحر الأحمر.

التقسيمات التضاريسية:

يمكن تقسيم منطقة تبوك التخطيطية من الغرب إلى الشرق إلى خمس مناطق تضاريسية رئيسية وتم توضيح ذلك في الجدول أدناه والذي فيه بيان بمساحة تلك التضاريس.

(١) التحركات السكانية وعلاقاتها بوظائف البلدية. المهندس عبد العزيز الدوسري ص ١١٢.

الجدول: منطقة تبوك، التشكيلات التضاريسية

التشكيل التضاريسي	المساحة التقديرية (كم²)
١ ـ تهامة (السهل الساحلي)	١٠,٥٠٠
٢ ـ سلسلة جبال الحجاز	٣٧,٠٠٠
٣ ـ هضبة حسمي	٦,٠٠٠
٤ ـ الحوض والهضبة الداخلية	٥٣,٥٠٠
٥ ـ صحراء النفود الكبير	٩,٤٠٠
الإجمالي	١١٦,٤٠٠

وفيما يلي توضيحاً لهذه التقسيمات التضاريسية:

تهامـــة:

تهامة (أو السهل الساحلي) هي المنطقة المتاخمة للبحر الأحمر ولخليج العقبة، ويتفاوت عرضها من ١ كم إلى ٥٠ كم، والسطح مكون من ترسبات غرينية يغلب عليها الطمي الرملي بشكل عام بفعل مياه الأودية والرياح، وهذه الترسبات غير متصلة إذ تفصل بينها ترسبات من الحصى وكثبان رملية تثبتها أحياناً الشجيرات الصحراوية المتناثرة هنا وهناك. ويتسم القطاع الجنوبي من تهامة (من أملج إلى الوجه) بوجود شواطىء عريضة وسهول متدرجة واسعة. وتضيق الشواطىء الساحلية وترتفع المدرجات كلما اتجه شمالاً، وتوجد في كثير من قطاعات الخط الساحلي بيئة بحرية ما تزال على فطرتها غنية بالشعب المرجانية.

جبـال الحجـاز:

جبال الحجاز هي أكبر التقسيمات التضاريسية وضوحاً في منطقة تبوك، فمن السهل الساحلي تبرز منطقة تلالية ترتفع بميول منتظم تقريباً إلى

حوالي ٥٠٠ م، وتعبرهـا أودية متعـددة ذات عروض متبـاينة تحمـل معها ترسبات غرينية رملية أو ترسبات من الحصى والحجارة الصغيـرة. وتعتبر منطقة التلال هذه دعامة لسلسلة مرتفعات جبال الحجاز الوعرة. ومن أشهر القمم الجبلية في هذه السلسلة جبل دبة (بارتفاع ٢,٣٥٠ م) وجبل الجو (بارتفاع ٢,٥٨٠ م) وهي قمم ناتئة من الـطبقات الصخـرية الجيـولوجيـة للعصر ما قبل الكمبري، وغالباً ما يكون جبل الجو مغطى بحجارة رملية متكسرة بفعل عوامل النحت والتعرية الطبيعية. وتتسم المنطقة بوجود أعناق بركانية ومساحات شاسعة من الحمم البازلتية المعروفة باسم «الحرات» يعود تكوينها إلى العصر البركاني الثالث. وتعبر سلسلة جبال الحجاز عدة أودية واسعة غنية بترسبات الغرين والرمل والحجارة الرملية؛ أهمها وادي عفال، وادي داما، وادي الحمض، وادي ثلبا وكلهـا تصب في البحر الأحمـر، وهنـاك أودية تصب في الـداخل نـابعة من جبـال الحجاز أهمهـا الوادي الأخضر.

هضبـة حسمى:

إلى الشرق من سلسلة جبال الحجاز الوعرة توجد هضبة عريضة ترتفع ١,٠٠٠ م معروفة باسم هضبة «حسمى»، وهي هضبة رملية عموماً تتخللها نتواءات صخرية وترسبات حصوية وتكوينـات جبلية من الصخـور الرمليـة وتلال متوسطة وصغيرة الحجم.

الأحواض الداخلية والهضبة المحيطة:

تغطي الأحواض الداخلية والهضبة المحيطة بها نصف مساحة منطقة تبوك تقريباً. والهضبة واسعة ذات سطح متموج متفاوت في الارتفـاع من ٨٠٠ إلى ١,٠٠٠ م، كما توجد هناك سلاسل من الجبال الصغيرة ذات قمم مسطحة تتخللها أودية وشعاب طبيعية مع وجود تلال فردية وسلاسل تلالية ترتفع إلى ٢٠٠ م عن المنسوب العام للأرض. وأهم شكل تضاريسي في هذه المنطقة هو حوض تبوك وهو عبارة عن منفخض كبير للتصريف الطبيعي

الداخلي. وبالنسبة للمناطق المحيطة بمدينتي تبوك وتيماء فهي عبارة عن امتدادات تضاريسية منبسطة نوعاً ما تتسم بترسبات طينية رملية ولهذا فهي تحوز على إمكانيات زراعية جيدة في حالة توفر مياه الري لها[1].

(١) انظر: عبد العزيز الدوسري، التحركات السكانية.

الفصل الأول

تبوك القديمة

- القبائل العربية.
- غزوة تبوك.
- المساجد في طريق الرسول ﷺ.
- الحركة العمرانية والتجارية والزراعية.
- الآثار.
- تبوك في العصور الإسلامية.
- تبوك ودرب الحاج.

القبائل العربية

منطقة تبوك حافلة بالعمران القديم والآثار التي تنبىء عن عمارة المنطقة واستيطانها من أمم عديدة قبل الإسلام كالعرب البائدة مثل ثمود حتى قيل إن عين تبوك هي ماء صالح وكذلك أتى من بعدهم اللحيانيون والآراميون ثم الأنباط. أما الروم فإنهم يأتون غزاة لا مستقرين. وفي العهود القريبة أي قبيل الإسلام هيمنت القبائل العربية على الجزيرة، ونظراً لأن تبوك بوابة الهجرة للموجات البشرية من الجزيرة؛ فإن القبائل تكثر في هذه الناحية؛ ولإن بعضهم يقترب من أجل جلب الحبوب من القمح والشعير وبعضهم يهاجر من المنطقة إلى بلاد الشام ومصر حينما تصاب الأرض بالجفاف فتخلوا المنطقة منهم مما يدعو القبائل الأخرى إلى استيطانها وهكذا.

وقد تحدث المؤرخون عن القبائل العربية التي استوطنت منطقة تبوك كثيراً. وقد تناول ذلك محمد أحمد، يذكر أن الركن الشمالي الغربي من جزيرة العرب (بما فيه تبوك) موطن لقبائل عديدة ذات تاريخ مشهور، وكانت هذه القبائل ـ منذ عصور قديمة ـ ذات مقدرة قتالية ممتازة، وقد كان الملك في بعضها فكان منها ملوك حكموا الأطراف الشمالية لجزيرة العرب والأطراف الجنوبية للشام[1].

---

(١) انظر، محمد أحمد باشميل، غزوة تبوك، ٤٦، ٤٧.

وهذه القبائل يرجع أصلها إلى حضرموت، وترجع هذه القبائل القحطانية التي استوطنت شمال الجزيرة وجنوب الشام في فترات مختلفة ـ إلى أصلين اثنين ـ هما:

١ ــ قضاعة: وقضاعة نزحت من الشحر بحضرموت وأسست ملكاً لها بأطراف الشام، ويتفرع من قضاعة عدة قبائل منها بلي وعذرة وبهراء وغيرها. وفي رواية ابن عباس التي أوردها البكري في معجم ما استعجم يرى أن قضاعة من نسل عدنان(١).

٢ ــ بنو كلب: وهؤلاء من كندة، وكندة نزحت من شمال حضرموت، وأسست لها ملكاً مشهوراً في دومة الجندل إحدى مدن منطقة الجوف، وكان هؤلاء الحضارمة القضاعيون والكنديون يدينون بالوثنية إلا أنهم ـ بتأثير من جيرانهم البيزنطيين الذين كانوا يحكمون الشام ـ دخل بعضهم في النصرانية، سيما الذين يستوطنون مشارف الشام.

وكانت قبائل قضاعة تستوطن منطقة تبوك وما حولها حتى شواطىء البحر الأحمر غرباً، أما قبائل كلب من كندة فتسكن إلى الشرق وشمال الشرق من تبوك حيث كان ملكهم بدومة الجندل(٢).

وزعم بعض أهل الأخبار أن (الحارث بن ظالم المري) ذكر (آل قصي) في شعره ودعاهم بـ (قرابين الإله) إذ قال:

---

(١) البكري، معجم ما استعجم ١: ١٧.

(٢) انظر: كتاب (العرب في الشام قبل الإسلام) ففيه أوسع التفاصيل عن تاريخ هذه القبائل وعن ما كان لها من ملك وسلطان وقوة في الشمال وفي أطراف الشام.
انظر غزوة تبوك (محمد أحمد باشميل) ص ٤٦، ٤٧.
* البداية والنهاية، مجلد ٣، الجزء الخامس ص ١٨.
* الكامل في التاريخ ابن الأثير ٢: ٢٧٦.
* المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي ٨: ٤١، ١٨٠، ١٨٦، ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٤٩، ٢٥١، ٢٥٤، ٤٢٦، ٤٣٠، ٤٣١.
* أشعة الأنوار على مرويات الأخبار، محمد سالم البيجاني ١: ١٢٠.

وإن تعصب بهم نسبي فمنهم   قرابين الإله بنو قصي

وهو في عرف بعض النسابين: (قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن فهر) و(قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان) في شجرة نسبه التي توصله إلى جده الأعلى (عدنان) فأبوه هو كلاب، أما أمه فهي (فاطمة بنت سعد بن سيل بن حمالة بن عوف بن غنم بن عامر الجارد بن عمرو بن جعثمة بن شكر) من أزدشنوءة حلفاء في (بني الديل) توفي أبوه وهو صغير، وتزوجت أمه بعد وفاة (كلاب) أبيه رجلاً من بني عذرة هو ربيعة بن حرام ولصغر سن قصي، أخذته أمه معها إلى أرض زوجها من بني عذرة على مقربة من تبوك وهذا ما يؤكد أن تبوك من ديار ومنازل بني عذرة وقد أشير أن عين تبوك كانت لبني سعد من بني عذرة. وفي جوار (الحجر) وفي شرق (حرة ليلى) أقامت بنو عذرة، وهي من قبائل قضاعة، وتنسب إلى (عذرة بن سعد بن هذيم بن زيد بن ليث بن أسلم بن الحاف بن قضاعة) ولا نعلم من تاريخ هذه القبيلة في الجاهلية شيئاً يذكر. ولم يرد اسمها كثيراً في الأيام، والظاهر أن ذلك لقلة شعرائها فإن شعر الشعراء هو الذي خلد أسماء القبائل عند الإخباريين، ولم يجمع شعرهم مبكراً لأنهم في الأطراف، وتأخر جمع الشعر من أجل تأريخ القبائل ومعرفة أحوالهم. وقد قدم وفد بني عذرة إلى الرسول ﷺ.

«وقال الزرقاني[1]: وقدم على الرسول وفد عذرة ـ قبيلة باليمن من قضاعة ـ، روى الواقدي أنهم وفدوا في صفر سنة تسع، وكانوا اثني عشر رجلاً منهم جمرة بن النعمان وسعد وسليم ابنا مالك، قال البرهان: لا أعرف منهم إلا جمرة قال الكلبي: هو أول من قدم بصدقة قومه إلى النبي ﷺ. وقال الطبري: هو سيد بني عذرة ووفد على النبي ﷺ بصدقة

(١) أبو تراب الظاهري، وفود الإسلام ١٨٧.

قومه فأقطعه ﷺ حصر قوسه ورمية سوطه من وادي القرى فنـزلها إلى أن مات. ذكره ابن شاهين، لكنه أخطأ هو وابن بشكوال، فوهما في ضبطه فجعلاه حمزة وهو جمرة كما ضبطه الدارقطني، وروى الواقدي بسنده عنه يقول: أمر رسول الله ﷺ فقال: من القوم؟ فقال: متكلمهم: من لا تنكر، نحن بنو عذرة إخوة قصي لأمه، نحن الذين عضدوا قصياً، وأزاحوا من بطن مكة خزاعة وبني بكر، ولنا قـرابات وأرحـام، قال ﷺ: مـرحباً بكم وأهلاً، ما أعرفني بكم، فما يمنعكم من تحية الإسلام؟ قالوا: كنا على ما كان عليه آباؤنا، وجئنا مرتادين لأنفسنا ولقومنا، فـإلام تدعـو؟ قال: إلى عبادة الله وحده لا شريك له وأن تشهدوا أني رسول الله إلى الناس كافة، فقال متكلمهم: فما وراء ذلك من الفرائض، فأخبرهم بجميعها، فقالوا: الله أكبر نشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، قد أجبناك إلى ما دعوت إليه، ونحن أعوانك وأنصارك يا رسول الله، إن متجرنا الشام، وبه هرقل فهل أوحي إليك في أمره بشيء، فقال: أبشروا فإن الشام ستفتح عليكم، ويهرب هرقل إلى ممتنع بلاده ونهاهم عن سؤال الكاهنة وعن الذبائح التي كانوا يذبحونها وأخبرهم أن ليس عليهم إلا الأضحية، فأقاموا أياماً بدار رملة بنت الحارث، وكانت دارها تنزل فيها الوفود، ثم انصرفوا وقد أجيزوا.

قال أبو تراب[1]: هي رملة بنت الحارث كما صححه الحافظ».

أما ديار هذه القبيلة، فكانت في وادي القرى بتبوك، لكنها امتدت حتى بلغت قرب أيلة ويذكر الإخباريون أن هذه القبيلة هـاجرت مـع من هاجر من قبائل قضاعة بعد حربهـا مع حِمْيَـرْ، فنزلت في هـذه الديـار. وتجاور ديار عذرة ديار قبـائل أخـرى من قضاعـة مثل نهـد وجهينة وبلي وكلب. كما جاورت من الشمال قبيلة غطفان. ولعذرة حلف مع عدد من بطون سعد هذيم، مثل بني ضنـة. ويعدهم النسـابون بـطناً من عـذرة،

---

(١) أحد الأعلام المعاصرين المهتمين بالتحقيق وغرائب اللغة وهو صاحب كتاب وفود الإسلام.

وكذلك مع بني سلامان. وقد عرفوا بصحار، وكان لهم حلف مع جهينة، ويرجع الإخباريون عهد هذا الحلف إلى أيام حرب قضاعة، وهي الحرب المسماة بـ(حرب القريض) وهناك جملة قبائل ذكر الإخباريون أربعاً أو خمساً منها قالوا: إنها كانت تعرف بـ(عذرة) وقد سبب تعدد هذه الأسماء للنسابين بعض الخلط.

ويظهر من روايات الإخباريين أنه كان لهذه القبيلة صلة بقريش فزعموا أن أم (قصي) تزوجت رجلاً من (بني عذرة) وأن أخاه من أمه (رزاح بن ربيعة بن حرام) اشترك مع قريش في الدفاع عن الكعبة وفي طرد خزاعة عنها. ورووا أيضاً أنه كان لها صلة بالأوس والخزرج كذلك، لأن أم القبيلتين وهي (قبيلة بنت كاهل أو بنت هالك) كانت من هذه القبيلة.

وكلب من قبائل قضاعة الشهيرة. وتنسب إلى هذه المجموعة: تغلب بن حلوان فجدها في عرف النسابين كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة. وكانوا ينزلون في الجاهلية دومة الجندل وتبوك وأطراف الشام. وقد كانت لهم لهجة خاصة لم يستعملها أحد من الشعراء الجاهليين ولعل ذلك بسبب اتصال هذه القبيلة بالنبط أي ببقية بني إرم وبغيرهم ممن لم تكن لهم لهجة عربية نقية فتأثرت لهجتها بهذا الاختلاط.

بطونها: بنو عدي. وبنو زهير. وبنو عليم. وبنو جناب.

وذكر بعض الإخباريين أن كلباً كانت تحكم دومة الجندل، وأن أول من حكمها منهم هو: (دجانة بن قنانة بن عدي بن زهير بن جناب). وذكروا أيضاً أن الملك على دومة الجندل وتبوك كان لهم إلى أن ظهر الإسلام، وأنهم كانوا يتداولون من السكون من كنده، فلما ظهر الإسلام كان على دومة الجندل الأكيدر بن عبد الملك بن السكون.

وتقع منازل بني عذرة في أعالي الحجاز في جوار عدد من القبائل المنتمية إلى مجموعة قضاعة، وهي نهد، وجهينة، ولب، وبلي. وتقع

أرضها في جوار غطفان، ومن مواضعها: وادي القرى وتبوك حتى أيلة، ويذكر الإخباريون أن بني عذرة حينما وفدوا إلى وادي القرى من مواطنهم الأصلية على أثر الحروب التي وقعت بين قبائل قضاعة وحمير، وجدوا اليهود في هذه الديار، فتحالفوا معهم وعاشوا في هذا الوادي وفي المواضع المجاورة له.

ومن بني فزارة الذين وفدوا إلى الرسول بعد رجوعه من تبوك سنة تسع للهجرة (خارجة بن حصن) و(الحر بن قيس بن حصن). وذكر أن (عيينة بن حصن) كان من المؤلفة قلوبهم. شهد حنيناً والطائف وكان أحمق مطاعاً دخل على النبي ﷺ بغير إذن وأساء الأدب، فصبر النبي على جفوته وأعرابيته، وقد ارتد وآمن بطليحة، ثم أسر فمن عليه الصديق ثم لم يزل مظهراً للإسلام، وكان يتبعه عشرة آلاف قنة، وكان من الجرارة واسمه (حذيفة) ولقبه (عيينة) لشر عينيه. ولم يرد ذكرهم إلا في القرن الرابع الهجري حينما التقى بهم المتنبي في حسمى «وكان بنو فزارة شاتين بها فنزل الشاعر يقدم من عدي فزارة وطاب له المقام فلبث شهراً»[1] ويروي أبو الفرج الأصبهاني:

أخبرني عمي، قال: حدثنا الكراني، عن العمري، عن الهيثم بن عدي، عن هشام بن عروة، عن أبيه عن النعمان بن بشير، قال: ولاني عثمان رضي الله عنه، صدقات سعد هذيم، وهم: صعب، وسلامان، وعذرة، وضنة، والحارث، ووائل، بنو (سعد هذيم بن زيد) فلما قبضت الصدقة قسمتها في أهلها فلما فرغت وانصرفت بالسهمين إلى عثمان رضي الله عنه إذا أنا ببيت مفرد عن الحي فملت إليه، فإذا أنا بفتى راقد بفناء البيت، وإذا بعجوز من ورائه في كسر البيت، فسلمت عليه، فرد علي بصوت ضعيف، فسألته ما لك؟ فقال:

---

(١) شرح ديوان المتنبي، لعبد الرحمن البرقوقي ١: ٥٤.

كـأن قـطاة علقت بـجنـاحـهـا   على كبـدي من شـدة الخفقـان

وذكر الأبيات النونية المعروفة، ثم شهق شهقـة خفيفة كـانت نفسه فيها. فنظرت إلى وجهه فإذا هو قد قضى فقلت: أيتها العجوز، من هذا الفتى؟ قالت: ابنى، فقلت: إني أراه قد قضى؟ فقـالت: وأنا والله أرى ذلك، فقامت فنظرت في وجهه ثم قالت: فاظ ورب محمد قال: فقلت لها: يا أماه، من هو؟ فقالت: عروة بن حزام، أحد بني ضنة[1].

القبائل العربية المعاصرة:

١ ـ قبيلة بني عطية: تحيط بتبوك من جميع جهاتها.

٢ ـ قبيلة بلي: تجاور قبيلة بني عطية من الجهة الجنوبية.

٣ ـ قبيلة الحويطات: ويمتد أغلبها على الساحل في الجهة الغربية لتبوك.

٤ ـ قبيلة عنزة: تجاور قبيلة بني عطية من الجهة الشرقية.

وأكثر أبناء هذه القبائل قد هاجر إلى المدن القريبة، واستقر بها[2]. أمّا الأُسر التي تستوطن المدن فلا استطيع حصرها.

---

(١) أبو الفرج الأصبهاني، الأغاني ٢٨ : ٩٥٧٩.

(٢) انظر، أطلس المملكة العربية السعودية ص ١٧ ـ د. محمد صبحي عبدالحكيم.

غزوة تبوك

غزوة تبوك هي أكثر عدداً في الجيش الإسلامي في عهد النبوة حيث بلغ عدد الجيش ثلاثين ألفاً، وأبعد مكاناً عن العاصمة الإسلامية المدينة حيث تبعد أكثر من ستمائة كيلًا، وهي أعظم حملة عسكرية لتأديب الروم وأنصارهم من العرب الموالين لهم وهي آخر عملية عسكرية قام بها الرسول ﷺ، وهم أعظم اختباراً للمؤمنين والمسلمين حيث تبين الإيمان وأهله وتجلي النفاق وأعوانه، وقد تخللها الكثير من الأحداث المعجزة التي تدل على نبوته ﷺ وكثيراً من التشريعات.

وقد وقعت في صيف العام التاسع للهجرة وتهدف إلى أخذ الثأر من الروم الذين انتصروا على جيش الإسلام في معركة مؤتة كما تهدف إلى حماية الحدود الإسلامية من قوتهم التي أخذت تعد العدة للهجوم وأيضاً لتأديب القبائل العربية المتنصرة والموالية للروم.

وغزوة تبوك المعركة الحربية التي أعلنها الرسول ﷺ على الملأ ليكون الناس على بصيرة من أمرهم ويتجهزوا بالعدة الكافية، وخلف الرسول عليه الصلاة والسلام علياً بن أبي طالب رضي الله عنه على المدينة المنورة وجهز عثمان بن عفان رضي الله عنه ألف وخمسمائة من المجاهدين

وتبرع أبو بكر رضي الله عنه بجميع ماله وعمر بنصف ما يملك، وتبرع عبد الرحمن بن عوف بمال كثير وتبرع المسلمون حتى النساء للإعداد

للغزوة، وقد تخلف ثلاثة من المسلمين تهاوناً وأعلنوا ندمهم وتاب الله عليهم، وتخلف كثير من المنافقين. وفي كل موقف دروس وعبر لأولي الألباب.

وبعد أن تكامل حشد الجيش عيّن الرسول ﷺ حملة الرايات والألوية وكان منهم أبو بكر الصديق يحمل لواءه الأعظم، والزبير بن العوام رايته العظمى، وأُسيد بن حضير يحمل راية الأوس، وأبو دجانة يحمل راية الخزرج، وزبير بن ثابت يحمل راية بني النجار. وأمر كل قبيلة أن تُعين لها رايات ويكون حملة الرايات من حفظة القرآن الكريم، وقد كانت الإبل الأكثر لحمل الجيش. ومع هذا فالجيش كان أكثر فرساناً من أي غزوة سابقة حيث منه عشرة آلاف فارس، وقد تعرض الرسول لمؤامرة في الغزوة حيث حمل عليه أكثر من أربعة عشر راكباً وهو يتجاوز عقبةً ليلاً، فقطعوا حبال رحله وأخذوا يجلجلون لعل الرسول ﷺ يسقط عن دابته، ولكن مؤامرتهم فشلت وثبت الرسول غير أن متاعه تساقط، وبعد أن قطع الرسول وجيشه أكثر من أربعمائة ميلاً وصل إلى تبوك وقد جاء في المغازي الواقدي:

«أنكم ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك، وأنكم لن تنالوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتي. قال معاذ بن جبل: فجئنا وقد سبق إليها رجلان، والعين مثل الزلال تبض[1] بشيء من ماء فسألهما: هل مستما من مائها شيئاً؟ قالا: نعم، فقال لهما: ما شاء الله أن يقول، ثم غرفوا بأيديهم قليلاً حتى اجتمع في شن[2] ثم غسل النبي ﷺ فيه وجهه ويديه، ثم أعاده فيها فجاءت العين بماء كثير فاستقى

(١) بض الماء يبض بضيضاً: سال قليلاً قليلاً.

(٢) الشن (بفتح الشين) القربة الخلقة التي كثر استعمالها.

الناس، ثم قال النبي ﷺ: يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ههنا قد ملىء جناناً»[1].

وأخرج البيهقي وأبو نعيم عن عروة أن النبي ﷺ حين نزل تبوك وكان في زمان قل ماؤها فيه، فاغترف غرفة بيده من ماء فمضمض به فاه، ثم بصقه فيها ففارت عينها حتى امتلأت فهي كذلك حتى الساعة. وأخرج ابن إسحاق نحوه، وفيه: فانخرق من الماء حتى كان يقول من سمعه: إن له حساً كحس الصواعق (يعني كصوت الرعد).

ونظراً لصحراوية الأرض في تبوك واعتمادها على العيون التي تنبع فإن الماء له أهمية كبرى لدى ساكنيها لذا فإنه إضافة إلى معجزته ﷺ في عين تبوك.

فإن نفراً من بني سعد هذيم وفدوا على الرسول ﷺ وطلبوا منه البركة لبئرهم. فقد ذكر الواقدي[2] أن نفراً من بني سعد هذيم وفدوا على رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إنا قدمنا عليك وتركنا أهلنا على بئر لنا قليل ماؤها، وهذا القيظ، ونحن نخاف إن تفرقنا أن نُقتطع لأن الإسلام لم يفش حولنا بعد، فادع الله لنا في ماء بئرنا، وإن روينا به فلا قوم أعز منا، لا يعبر بنا أحد مخالف لديننا. قال رسول الله: «أبلغوني حُصيات»، فتناولت ثلاث حصيات فدفعتهن إليه، ففركهن بيده ثم قال: «اذهبوا بهذه الحصيات إلى بئركم فاطرحوها واحدة واحدة وسموا». فانصرفوا من عند رسول الله ﷺ، ففعلوا ذلك فجاشت بالرواء، ونفوا من قاربهم من المشركين ووطئوهم فما انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة حتى أوطأوا من حولهم عليه ودانوا بالإسلام.

---

(١) الخصائص الكبرى ج ٢ ص ١٠١، تحقيق الدكتور محمد خليل هراس وأخرجه مسلم عن معاذ بن جبل.

(٢) المغازي للواقدي ٣: ١٠٣٤.

وأغلب الظن أن هذا الماء هي (رويحاء)[1] بين المعظم وتبوك قرب درب الحاج لأن المؤرخين ذكروا أن عروة بن حزام من سعد هذيم وعروة هذا يذكر الرويحاء دائماً في شعره يقول[2]:

أفي كل يوم أنت رام بلادها بعينين إنساناهما غرقان
ألا فاحملاني بارك الله فيكما إلى حاضر الرويحاء ثم دعاني

ومعروف أن عروة بن حزام مات في أوائل عهد معاوية بن أبي سفيان فهو قريب من بعثة الرسول ﷺ مما يجعلنا نعتقد أن الماء الذي أصابته بركة الرسول ﷺ هي الرويحاء.

ومن الأحداث التي وقعت في تبوك ما ذكره رافع بن خديج فقال: أقمنا بتبوك المقام فأرملنا من الزاد وقرمنا إلى اللحم ونحن لا نجده، فجئت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، إن اللحم هاهنا وقد سألت أهل البلد[3] عن الصيد فذكروا لي صيداً قريباً ـ فأشاروا إلى ناحية المغرب ـ، فأذهب فأصيد في نفر من أصحابي؟ قال رسول الله ﷺ: «إن ذهبت فاذهب في عدة من أصحابك، وكونوا على خيل، فإنكم تتفرقون من العسكر»، قال: فانطلقت في عشرة من الأنصار فيهم أبو قتادة وكان صاحب طرد بالرمح وكنت رامياً، فطلبنا الصيد فأدركنا صيداً، فقتل أبو قتادة خمسة أحمرة بالرمح على فرسه، ورميت قريباً من عشرين ظبياً، وأخذ أصحابنا الظبيين والثلاثة والأربعة، وأخذنا نعامة طردناها على خيلنا ثم رجعنا إلى

---

(١) أشار السمهودي إلى الروحا في كتابه، وفاء الوفا ٣: ١٢٢٢ وأنها تقع بين المدينة المنورة وبدر وهي غير التي حول تبوك غير أني أرجح إن صدقت رواية صلاة موسى عليه السلام وسبعين نبياً زاروا وادي الروحاء، أرجح أن المقصود بذلك الروحاء القريبة من تبوك لأنها في وادٍ ضخم على درب الحاج ولأنها قريبة من موطن شعيب عليه السلام ولقربها من بدا موطن يعقوب أبي يوسف عليه السلام، ولم يرو أن الأنبياء تجاوزوا يثرب.

(٢) الأغاني ٢٨: ٩٥٨٣.

(٣) يشير إلى وجود مبان في تبوك وأنها أكبر من القرية.

العسكر عشاء ورسول الله ﷺ يسأل عنا: «ما جاءوا بعد؟» فجئنا فألقينا ذلك بين يديه. فقال: «فرقوه في أصحابكم»، قلت: يا رسول الله، أنت مر به رجلاً، قال: فأمر رافع بن خديج. قال: فجعلت أعطي القبيلة بأسرها الحمار والظبي، وأفرق ذلك حتى كان الذي صار لرسول الله ﷺ ظبي واحد مذبوح، فأمر به فطبخ، فلما نضج دعا به ـ عنده أضياف ـ فأكلوا ونهانا بعد أن نعود وقال: «لا آمن» أو قال: «أخاف عليكم».

ومن هذا نستدل على أن المنطقة تتكاثر فيها الحيوانات البرية بأنواعها من الحمر الوحشية والبقر، والوعول والظباء وأن الأودية المجاورة كانت حافلة بالمراعي والغابات ولا زالت حتى فتكت بها ضرورة الحطب في المدن سيما قبل (الغاز).

وكان من نتائج غزوة تبوك سيطرة المسلمين على شمال غرب الجزيرة وشرقها فقد وفدت عليه القبائل العربية وأعلنت إسلامها، ووفدت عليه وفود المدن والقرى على حدود الشام وجنوبه ومنها أيلة (إيلات) وكانوا نصارى وأعطوا الجزية، ومنها أذرح وجرباء وهما قرى في المملكة الأردنية الهاشمية (من محمد رسول الله ﷺ لأهل أذرح أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة والله كفيل)[1].

وكذلك صالَحَ الرسول ﷺ من داخل الجزيرة قرية (مقنا) ذات النخل وكتب لهم (أنهم آمنون بأمان الله، وأمان محمد، وأن عليهم ربع غزو لهم وربع ثمارهم)[2].

ولما كانت دومة الجندل في الجهة الشمالية الشرقية لتبوك وهي الجيب الوحيد الذي لم يسلم، فإن الرسول ﷺ رأى أن من الخير بعث

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٦٩ وفتوح البلدان ص ٧١ وإمتاع الأسماع ص ٤٦٨ ـ ٤٦٩ وتاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٨٢١ ومغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠٣١ ـ ١٠٣٢ والبداية والنهاية ج ٥ ص ١٦ ـ ١٧ وزاد المعاد ج ٣ ص ١٠.

(٢) ص ١٦٣ غزوة تبوك.

الجيش لها من تبوك وقد انتخب خالد بن الوليد لقيادة الجيش. قال الواقدي:

(بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد من تبوك في أربعمائة وعشرين فارساً إلى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل وكان أكيدر من كندة قد ملكهم وكان نصرانياً، فقال خالد: يا رسول الله كيف لي به وسط بلاد كلب، وإنما أنا في نفر يسير؟ فقال رسول الله ﷺ ستجده يصيد البقرة فتأخذه قال: فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين في ليلة مقمرة صائفة، وهو على سطح له ومعه امرأته الرباب بنت تنيف بن عامر من كندة، وصعد على ظهر الحصن من الحر وقينته تغنيه، ثم دعا بشراب فشرب فأقبلت البقر (الوحشية) تحك بقرونها باب الحصن، فأقبلت امرأته فأشرفت على الحصن فرأت البقر فقالت: ما رأيت كالليلة في اللحم، هل رأيت مثل هذا قط؟ قال: لا، قالت: من يترك هذا؟ قال: لا أحد، قال: يقول أكيدر: والله ما رأيت جاءتنا ليلة بقر غير تلك الليلة، ولقد كنت أضمر لها الخيل إذا أردت أخذها شهر أو أكثر، ثم أركب بالرجال وبالآلة.. فنزل فأمر بفرسه فأسرج، وأمر بخيل فأسرجت، وركب معه نفر من أهل بيته، معه أخوه حسان ومملوكان، فخرجوا من حصنهم بمطاردهم[1] فقبض عليه خالد ثم أسلم).

والرسول ﷺ لم يلق جيشاً رومياً وإنما انحسروا إلى أواسط الشام حينما علموا بقدوم جيش المسلمين، وبذا تمّ النصر للإسلام حيث أرعب جيوش الروم.

وقد عاد الرسول ﷺ بجشيه ـ بعد أن مكث في تبوك عشرين ليلة وقيل أقل من ذلك ـ من الطريق ذاتها.

---

(١) المطارد: بفتح الميم وكسر الراء جمع المطرد، وزن منبر وهو رمح قصير يطرد به وقيل يطرد به الوحش (لسان العرب ج ٤ ص ٢٥٧).

المعجزات والتشريعات في غزوة تبوك:

في يوم الخميس، الخامس من رجب، في العام التاسع من الهجرة المحمدية خرج الرسول ﷺ بأكبر جيش عرفه الإسلام في عهد النبوة قاصداً تبوك في غزوة ذُكر من أسبابها أن الرسول ﷺ يرغب أن يأخذ بثأر ابن عمه جعفر بن أبي طالب، وقيل لأن الروم جمعوا جموعاً وألبوا القبائل العربية الموالية لهم والتي يدين بعضها بالنصرانية.

والغزوة حافلة بالتشريع الفقهي، والمعجزات النبوية، واهتم بها العلماء، وخرّجوا أحاديثها، وبيّنوا صحيحها من حسنها من ضعيفها، ووضحوا المكذوب منها. ونحن هنا نشير إشارات عابرة إلى بعض المعجزات والتشريعات، ومنها: تخلف كعب بن مالك وأصحابه رضي الله عنه في غزوة تبوك ونزول القرآن الكريم في التائبين الثلاثة[(١)].

ونزل القرآن في أخذ الصدقة من الذين اعترفوا بذنبهم[(٢)] وذلك لأن الوقوع في الخطأ أمر حتمي على الإنسانية ما عدا الرسل والأنبياء، أما النفاق والشرك فإنه إصرار واعتقاد لذا نزل القرآن كاشفاً أعمال المنافقين وموضحاً أمرهم حتى عُرِفوا من قبل المسلمين[(٣)] وكذلك وردت أحاديث كثيرة تفضح أمرهم، وتسجل ما قاموا به من مؤامرات تهدف الفتك بالرسول الأعظم ﷺ؛ ومنها محاولة إسقاطه عن دابته ليلاً في العقبة[(٤)] وفي الغزوة بشر الرسول ﷺ أصحابه بما خصه الله من علامات نبوية[(٥)].

وكذلك أخبر أصحابه عن كنز فارس والروم، وقصة إضاءة الأصابع

---

(١) انظر: الذهب المسبوك ٩٢، ١٠٤.
(٢) المرجع السابق ١٢٤.
(٣) المرجع السابق ٢٤٢.
(٤) المرجع السابق ٣٢٩.
(٥) المرجع السابق ٣٣٢.

لبعض أصحابه[1] ونزل المطر بدعائه ﷺ، وقصة إلياس ولقائه برسول الله ﷺ[2] وأخبر عن أشراط الساعة وزيادة الطعام وفوران العين، وصلاته خلف الإمام، وتحدث عن الوضوء، وسترة المصلي، وما جاء في الشراء والبيع وخرص الثمار، وإخباره عما ستكون عليه تبوك من جنان وخيرات وغيرها. ونحن لا نستطيع أن ننقل النصوص كاملة ونكتفي بخطبته ﷺ التي يرى بعض العلماء أنها تشبه خطبة الوداع:

قال: «أيها الناس أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأوثق العرى كلمة التقوى، وخير الملل ملة إبراهيم، وخير السنن سنة محمد، وأشرف الحديث ذكر الله، وأحسن القصص هذا القرآن، وخير الأمور عوازمها، وشر الأمور محدثاتها، وأحسن الهدى هدى الأنبياء، وأشرف الموت قتل الشهداء، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى، وخير الأعمال ما نفع، وخير الهدى ما أتبع، وشر العمى عمى القلب واليد العليا خير من اليد السفلى، وما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى، وشر المعذرة حين يحضر الموت وشر الندامة يوم القيامة، ومن الناس لا يأتي الجمعة إلا دبراً. ومن الناس لا يذكر الله إلا هجراً، ومن أعظم الخطايا اللسان الكذوب، وخير الغنى غنى النفس، وخير الزاد التقوى، ورأس الحكمة مخافة الله عز وجل، وخير ما وقر في القلوب اليقين والارتياب من الكفر، والخمر جماع الإثم، والنساء حبائل الشيطان والشباب شعبة من الجنون، وشر المكاسب كسب الربا، وشر المأكل أكل مال اليتيم، والسعيد من وعِظ بغيره، والشقي في بطن أمه، وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربعة أذرع والأمر إلى الآخرة ملاك العمل وخواتمه، وشر الرؤيا رؤيا الكذب، وكل ما هو آت قريب، وسباب المؤمن فسوق، وقتال المؤمن كفر، وأكل لحمه معصية الله، وحرمة ماله كحرمة دمه، ومن يتعالى على الله يكذبه، ومن يستغفره يغفره ومن يعف

---

(١) المرجع السابق ٣٣٩.

(٢) المرجع السابق ٣٤١، ٣٤٣.

يعف الله عنه، ومن يكظم يأجره الله، ومن يصبر يضاعف الله له، ومن يعص الله يعذبه الله. اللهم اغفر لي ولأمتي، اللهم اغفر لي ولأمتي، اللهم اغفر لي ولأمتي، قالها ثلاثاً ثم قال: استغفر الله لي ولكم»[1].

وأحداث غزوة تبوك وسيرة الرسول ﷺ فيها، والمعجزات التي سطرتها السيرة العطرة لها تأثيرها في نفوس أبناء المنطقة فهم يستشعرونها، وتوحي للشعراء منهم بتجاربهم الروحية الفياضة. ومن هؤلاء الشاعر الأستاذ مسلم فريج العطوي له قصيدة مطولة بعنوان (غزوة العسرة) نوردها كاملة.

صَفَحَاتُ مجدٍ تالدٍ لا يجهلُ ... بمدادِ تِبْرٍ في القلوبِ تُسجَّلُ

قد كان فتحُ محمدٍ لتبوكنا ... ذكرى تَهزُّ النفسَ لما تغفُلُ

صَحْبٌ هُداةٌ أنصتوا للمصطفى ... وآياتُ ربِّ العالمين تنزّل

أن حطّموا جُنْدَ الطغاةِ وجمعَهم ... أعداؤكم متربّصون فقاتلوا

ولتجعلوا الإسلامَ يعلو نورُه ... فوق الخلائق فهو دينٌ شامل

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١٣ - ٥/١٤) وقال الحافظ ابن كثير في نهاية الحديث: وهذا حديث غريب وفيه نكارة، وفي إسناده ضعف والله أعلم بالصواب. انظر: تبصير المنتبه لابن حجر (١/٥٤).

قلت: لم يصح هذا الحديث بهذا الإسناد، وأما الكلمات التي وردت فيه، فإنها رويت غالبها في كتب الأحاديث بأسانيد جياد. والحديث قد أخرجه الواقدي في مغازيه معلقاً بدون الإسناد. انظر: مغازي الواقدي (١٠١٥ - ٣/١٠١٧) والإمام ابن القيم في زاد المعاد (٣/٧) قال: ذكر البيهقي في الدلائل والحاكم من حديث عقبة بن عامر ثم ذكر الحديث.

قلت: تصفحت الحاكم صفحة صفحة فلم أجد فيه هذا النص، لعله أخرجه في الدلائل أو في كتب أخرى لم أقف عليها والله أعلم.

وذكر الحديث السيوطي في الجامع الصغير (١٧٥ - ٢/١٧٩): مع المناوي. وقال السيوطي في نهاية الحديث. أخرجه البيهقي في الدلائل، وابن عساكر عن عقبة بن عامر، وأبو نصر السجزي في الإبانة عن أبي الدرداء، وابن أبي شيبة، وعن ابن مسعود موقوفاً وأشار إليه السيوطي بحرف (ح). والمراد منه أن الحديث حسن.

قلت: قد يكون هذا صحيحاً إن شاء الله تعالى. وأخرجه الديلمي في مسنده (٢/١٦٠) مختصراً بدون إسناد.

يهدي البريّةَ للطريقِ الواضحِ — الدينُ يعظمُ والجهالةُ تضأل
وتواثب الأنصارُ مع من هاجروا — سمعاً وطوعاً للأوامر نمثل
حيوا الجهادَ فكلنا رهْن لهُ — عند اللقاءِ وفي الوغى نستبسل
إيماننا عمر القلوبَ بحبِّه — بنفوسنا عند الردى لا نبخل
أمحمد أين المرادُ بزحفنا — فالزحفُ حلمٌ للجنانِ يُوصِّل
قال الرسول: إلى تبوكَ مسيرُنا — لموا العتادَ مع الجيادِ وعجّلوا
هيا أبا بكر ويا فاروقنا — يا سعدُ يا عمرو ولا تَتمهّلوا
عثمانُ قد جَهّزْتَ جيشاً بالعطا — ءِ فلن يضيرَك بعد ذا ما تفْعَل
وتهيّأ الجمعُ العظيمُ مكبّراً — متكاملَ الأركانِ نِعْمَ الجحفلُ
وتجمع الفقراءُ حولَ محمدٍ — أملًا بظهرٍ يمتطوه توسّلوا
لكنها الإعسارُ تفعل فعلَها — فالفقر يؤلم والمساغبُ تذهل
حَزِنَ الرّسول لهم وَرَدّ بقوله — مترفقاً أين الجمالُ لتحملوا
فبكوا بكاءً صادقاً أبكاهمُ — حبُّ الجهادِ كما تباكى الثُّكَّلُ
أصحابُ عذرٍ قدّموا أعذارَهم — قد نافقوا وعن الجهادِ تنصّلوا
وابن الأبيِّ لقد تقاعس رهطَهُ — فزعيمهم ذاك اللئيمُ الأنذلُ
سفرٌ بعيدٌ لن ترانا معكمُ — نبقى بيثربَ فالقعودُ مُفضَّلُ
حرٌّ شديدٌ صيفنا يأتي بهِ — فالقيظُ يُلهِبُ والسمومُ تنكلُ
أعذارهم أوهى دليلًا من خيو — طا لعنكبوتِ بها المنافق يفْتِلُ
كرهوا الجهادَ ولم يُثِرْهم فضلُهُ — فتخلّفوا طمعاً بذا أنْ يخذِلوا
طُمِسَتْ قلوبُهم فلا أملُ بها — فجزاؤهمْ قَعْرُ الجحيمِ الأسفلُ
جنّاتُ عدْنٍ عرْضُها عرضُ السما — للصابرين ومن شهيد يقتلُ
روضُ رياضُ والكواعبُ زانَها — شَهْدُ مُصفّى والفراتُ السَّلْسَلُ
أمّا الكبيرُ كذا الصغيرُ ومن لهُ — عُذْرٌ صحيحٌ فالمعاذِرُ تقبلُ
ركب الرسولُ بصحبه مستبشراً — يَبْغِي سبيلَ الله لا يتحوّلُ
وكتائبُ الإسلام تتلو بعضَها — سعياً حثيثاً بالرحيم تبسْملُ

وملائكُ الرحمنِ تنشر فوقَهم ... سبع المثاني بالوقار تجلّلُ
وحدا الرسولُ لها نشيداً خالداً ... (الله أكبر) ذا النشيدُ الأفضلُ
راياتُهم كالسّحْبِ تخفق في العُلا ... تكبيرُهم شُمَّ الجبالِ يزلزلُ
موجٌ تدفّقَ بالضّبابِ معمّمٌ ... والخيلُ تسبح قد علاها القسْطلُ
وتطايرتْ من وَقْعِها كلُّ الحصى ... فالنّار من عندِ الحوافر تُشْعَلُ
كالسيل يجري في الشعاب مزمجراً ... أو سرب عقبان تهاوى من علُ
طال الطريقُ وقد تصرّم زادُهم ... حرٌّ شديدٌ بالسمومِ كم اصطلوا
عطشٌ تصدّى للنفوس يُذيبُها ... هل من طريقٍ للمياه يوصِّلُ
بَقَروا بطونَ الإبلِ من ظمأٍ بهم ... أملًا بماءٍ للشفاهِ يبلّلُ
قحْطٌ وَجَدْبٌ في المسالك كلِّها ... لا عُشْبَ في الصحراء إلا الحَنْظلُ
وعزيمةُ الإيمان يثْبتُ جذْرها ... إذ كلُّ صعْبٍ بالعزيمةِ يَسْهلُ
أما تبوكُ فقد تضوّع مِسْكُها ... بالمقدم الميمون نشْوىٰ تَرْفلُ
تلك الرّبى قد زغردت أنحاؤها ... فالبِشْر يعلو والوجوه تهلّلُ
وصل الرسولُ إلى تبوكَ مبكراً ... والآيَ من لُسْنِ الجميع يرتّلُ
فُتِحت تبوكُ وقد خَلَتْ قيعانُها ... رومانُها نحو الشمال تحوّلوا
فبنو الأصيفر قد تفرّق شملُهم ... جَمْعٌ تشتَّتَ في الفلاة يولولُ
الرعب يقذف في قلوب عدونا ... والنصر للإسلام دوماً يحصلُ
صوتٌ عظيمٌ قد تَردَّدَ عالياً ... صوتُ المؤذّنِ للصّلاةُ يُحيعلُ
حين استتبّ الأمر صار بلطفه ... يدعو الولاة وللممالك يرسلُ
هذا أكيدرُ قد تكدَّر صفوه ... وابن الوليد بحصنهِ يتسلّلُ
لم يستجب للحقِّ من بطرٍ بهِ ... ومن تمادى في العتوِّ يُجنْدلُ
وتنعّمتْ تلك الربوعُ بطلْعَةٍ ... تزهو على كلِّ الرجالِ وتفْضُلُ
لو طال عمرك يا معاذُ هُنيهةً ... سترى جناناً في تبوكَ تظلّلُ
بينا محمدُ في الصحابةِ يخطبُ ... إذْ من بعيدٍ جاء شخصٌ يرْملُ
نظر النبي وقال كنْ يا خيثمهْ ... حَدْسُ النبوّة ليس فيه خُزَعْبلُ

قـد أبْتُ بعدك يـا محمدُ خـانعـاً | وإذ الحـلائلُ في العـريش تـدلّـلُ
مـاءٌ زلالٌ مـن طعـامٍ جـاهـزٍ | فـرشٌ وَثِيـرٌ والـوسـائـدُ تُكْمِـلُ
ظِـلٌّ ظـليـل كـل ذاك مـهـيـأٌ | فَشَغَلْتُ فكـري صـامتـاً أتـأمـلُ
أمحمـدٌ يطوي الصحـارى صـادياً | ويـطيب نِي هـذا الـزلال فـانهـلُ
أمحمدٌ يطوي الصحـارى بالسـرى | ويـطيب لي هـذا القعـود ويجمـلُ
رُبّـاهُ من لي بِالشفيـعِ غداً لـدى | يوم الحسابِ فكـل شخْصٍ يسألُ
فحلفتُ ألا يستـطيب لخاطـري | مُتَـعٌ هنـا وإلى تبـوكَ سـأرحـلُ
هـا قد أتيتـك يـا محمـدُ طـائعاً | سِـرْبـالي الإيمـانُ إذْ يُتَسـربـلُ
عَجِبَ الـرّسـول لقصـةٍ رُويتْ لـهُ | إيمـان صِـدْقٍ ليس فيـه تـأوّلُ
يقف الـرسـولُ إلى تبـوكَ مـودعـاً | يـدعـو لهـا وإلى المـدينـة يقْفُـلُ
وصلت بشـائرُ في المـدينـة بلّغت | فمحمـدٌ بـالنصـر جـاء يهـلّلُ
الفـوز نـورٌ حـازه من جـاهـدوا | والخِـزْيُ وَسْمُ منـافقين تكـاسلوا
هـذا ضـرارٌ لا تقمْ في أرضِـهِ | هُـوَ للقـطيعـةِ والخـديعـةِ يُعْمـلُ
أَمَـرَ الـرسـول بهـدمِـهِ والحكم ذا | حكم الهـدى فهوت عليـه معـاولُ
جـاء الخـوالفُ يـذرفـون دمـوعَهُمْ | كَـذِبـاً وِصْـدقـاً للتخلُّفِ علّلُوا
أعـذاركـم مقبـولـةٌ لكـن هنـا | كَ مهيمنٌ فله القضـاءُ الفيصـلُ
هـلاّ شَقَقْتُ قلوبكم فـعـرفتُـهـا | عِلْم القلوبِ لـه العـظيمُ الكـاملُ
وثـلاثـةٌ شعـروا بـذنْبٍ فـاختفـوا | قـالـوا جميعـاً: نحن مـاذا نفعـلُ
دفنـوا الوجـوه من الحياء وتمتمـوا | أَلَـنَـا وجـوهٌ للرسـول تـقـابـلُ
يَتَمَلْملون كمـا لـديـغٍ من قـوا | طـعِ حيّـةٍ من سمِّهـا يتملمـلُ
يبكون من خوف العذاب بجرْمِهِمْ | صَـدَقوا فهم بـالـزور لن يتقـوّلـوا
ويتـوبُ ربّك على الجميـع فـإنـه | أهْـلٌ لـذا وهـو الحكيم العـادلُ
عِـبَـرٌ تُـفـهِّـم جيـلَنـا أمجـاده | مجـدٌ بنـاه لنـا الـرعيـلُ الأولُ
حملوا السلاحَ لينشروا هذا الهدى | لا حبَّ سَفْـكٍ لـلدمـاء تُسيَّـلُ
قـد صـار لـلإسـلام أعـظمُ دولـةٍ | دستـورهـا القـرآنُ نعم المـوئـلُ

هـل بالنـواجذ قـد حفـظتم دينكم   لتعـوا الـطريق وللمسيـرة تُكْمِلوا
الـديـنُ عنـد الله ديـنُ محـمـدٍ   ديـنٌ قـويمٌ لـلعـدالـةِ يـكـفـلُ
النصـرُ بـالإسـلام ليس بغـيـرهِ   من رام نصـراً بغير ذاك سيُخـذلُ

المساجد التي صلى فيها الرسول ﷺ

لا شك أن تحديد المساجد التي صلى فيها الرسول ﷺ في طريقه لغزوة تبوك، من الصعوبة بمكان رغم ورود مسمياتها في كتب التاريخ القديمة، لعدم معرفة الناس في الأعصر المتأخرة لتلك الأماكن، ولتغير الأسماء وتحريفها، ولأن الطريق تلك استبدلت بغيرها، ولأن المنطقة مهجورة علمياً وفكرياً، ولم يكتب لها تاريخ، ولأن أصحاب الرحلات في معزل عن السكان.

والمتأخرون يظنون أن لا درب إلا طريق الحاج على امتداد سكة الحجاز، ولما لم يعثروا على مسميات المنازل التي صلى فيها الرسول ﷺ في طريقهم، توقفوا عن الإشارة إليها فضلاً عن تعيينها.

وقليل هم الذين رغبوا في تحديدها، وتوصيفها، وأقربهم عهداً المستشرق أ. موسل، فلما أراد أن يحددها اضطرب عليه حيث ربطها (بالمدراة) في الجنوب الغربي من تبوك، وطريق الحاج في الجنوب الشرقي منها، وزاده وهماً ورود اسم الأخضر في طريق الحاج ومعروف في المنطقة أن عين الأخضر (العين الخضراء) تكون في الجهة الجنوبية الغربية من تبوك على بعد عشرين ومائة كيلاً وهي تقرب من تحديدها في كتب المؤرخين بأربعة مراحل، أمّا وادي الأخضر فإنه في الجهة الشرقية قريباً من تبوك على بعد سبعين كيلاً وهما في وادٍ واحد أعلاه تلك العين الخضراء، وأسفله الآبار التي على درب الحاج وتسمى الأخضر في واد بهذا الاسم نتيجة لعدم معرفته بالأماكن أعتقد أن إيراد المؤرخين ليس مرتباً[1].

---

(١) انظر: أ. موسل، شمال الحجاز ١٤١.

والـواقع أن الـذين التقيت بهم من دارسي التاريـخ يعتقد الاعتقـاد السالف، وكنتُ أظن ظنهم، فزادت حيرتي، حتى أتيت بمسـميات المساجد تلك، ونشرتها في جمـع من المتقدمين في السن من أصحـاب المنطقـة العارفين بمساربها أكثر مني، فأخذوا يحددون الأماكن تلك ويصفونها لي، وأخذوا يشيرون إلى الأسماء التي طرأ عليها التحريف ومن خلال هذا تبين لي أن طـريق الرسـول ﷺ جاء من أعلى حـرة العويـرض مخترقـاً حرة الرحاء لأن الغزوة صيفاً، وهـذا الدرب أقـل حرارة، ولأنـه الأقصر، والأقـرب، ولأنه الأخفى والأستر.

ولأن طريق الحاج الآن لا ماء فيه فلم تعرف بركـة المعظم في تلك الأيـام.

وقد زرت تلك الأماكن في صيف عـام ١٤١٣ هـ بصحبة الصـديق الأستاذ ضيف الله المضلعاني فهي دياره الأولى وممن يرتادونها واتضح لي:

١ ـ أنها طريق القوافل التجارية من الشام إلى العلا فالمدينة المنورة وهي معروفة لأهالي المنطقة قبل أن تتكاثر الحافلات.

٢ ـ ظن (موسل) أن المراد بالأخضر هو المـاء الذي على طـريق الأخضر في الوادي المسمى بهذا الاسم وليس كذلك، فالمقصود الذي في أعلى الوادي.

٣ ـ عثرت على أبنية للمساجد في المدراة ومسجد في سيل الزراب (المسد) ومسجد في (شريف التناضب) في أعلى الزراب ومسجد في رأس وادي الزراب قرب العين الخضراء، وربما تكون هناك آثار على تلك العين لكن تعاقب المزارعين على تلك العين أزال آثار المسجد وربما يردونها من أعلى لقربه منهـا ولسعة المكـان ولأن العين في واد ضيق، وقد ورد في ترتيب مساجد الرسول ﷺ أن أولها في (المدراة) وهو يمثل المرحلة الأولى ثم الزراب ثم الأخضر، أمّا طريق الحاج فلا يمر بمكان يسمى المدراة ولا الزراب ثم تتابعت المساجد بعد ذلك على الطريق ذاته.

وآثار تلك المساجد قد وضع لها محاريب، ووضع بجانبيها حائط من الحجارة غير المنظمة جيداً ووضع للمحاريب حجارة كبيرة نقش عليها بعض النقوش العربية لكنها غير معجمة وتكثر فيها الحمدَلة والدعاء، وربما أن الصحابة رضوان الله عليهم أرادوا أن يثبتوا هذا للأجيال اللاحقة أو أنها كانت معروفة في العصور الإسلامية الأولى فكتب عليها ذلك، والحقيقة أن الأيديْ قد عبثت بها فنقلت الحجارة من أماكنها وبعضها نقش عليها وأُخر ثم تكسيرها.

والمساجد تقع في متسع من الأرض تستوعب مبيتاً للجيوش ولا أعتقد أن كل مكان صلى فيه الرسول ﷺ قد وضع له علامات، وربما أُقتصِر على مساجد المبيت لأنهم يصلون فيها المغرب والعشاء جمعاً والفجر، وأيضاً فإن الصلاة تُقصَر فلم تكثر المساجد وليس هناك ظلال للمكث فيها في الهاجرة وراحة القيلولة.

مكث الرسول ﷺ في تبوك أكثر من ستة عشر يوماً وقيل عشرين يوماً وفي هذه الفترة الزمنية صلى في أماكن متعددة في إقامته وأثناء سفره، وقد تحدث عن المساجد تاريخ المصري ونسبها إلى ابن زبالة فقال جمال الدين ابن أبي عبدالله محمد بن أحمد المطري:

١ ـ ومنها مسجد تبوك قال ابن زبالة ويسمى مسجد التوبة، قلت: هو من المساجد التي بناها عمر بن عبد العزيز رحمه الله[١].

وهذا المسجد أصبح معلماً من معالم تبوك فأخذ الحجاج يستقرون حوله في رحلتهم للبلاد المقدسة، وفي طريق عودتهم. وكان أول من أمر ببنائه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في عام ٩٨ هـ.

وقد بناه العثمانيون مرة أخرى وأغلب الظن أن بناءه صحب بناء

---

(١) انظر: التعريف بما آنست دار الهجرة من معالم الهجرة ص ٦٩، ٧٠، السمهودي، وفاء الوفا ٣: ١٠٢٩.

القلعة المجاورة له التي تم تجديدها في ١٠٦٣ هـ ثم تمّ تجديده في عهد الأتراك عام ١٣٢٥ هـ حيث بُني من الأحجار المشذبة، ثم جاء الملك فيصل رحمه الله في زيارته لتبوك عام ١٣٩٣ هـ وصلى فيه وأمر ببنائه على الإطار الفني الإسلامي وقد تمّ ما أراده خلال عام واحد.

٢ ـ مسجد مدران (بفتح الميم وكسر الدال تلقاء تبوك) وهو ما يسمى الآن (بالمدراة) في الجهة الجنوبية الغربية لتبوك، وعلى طريق البديعة. وهذا الطريق تعبره قوافل أهل الحِجْر الآتية من الشام، ويبعد عن تبوك ٤٥ كيلاً.

٣ ـ مسجد بذات الزراب (بتشديد الزاء وكسرها وبعدها راء مهملة، على مرحلتين من تبوك) وفيه الكثير من النقوش والكتابات، ويبعد عن تبوك تسعين كيلا، وفيه مساجد أخرى متباعدة.

٤ ـ مسجد عين وادي الأخضر على أربع مراحل من تبوك وهي في أعلى وادي الأخضر الذي ينتهي في تبوك غير أن الطريق لا تعبر الوادي وإنما تأتي أعلاه، ويبعد عن تبوك بعشرين مائة كيلاً.

٥ ـ مسجد بالا (بفتح أوله وثانيه على خمسة مراحل) ويعرف الآن باسم (لا لا) وهنا يلتقي طريق الرسول ﷺ مع درب الحجيج. وهو قريب من ذات الخطم، وربما أنه صلى في أحدهما بذهابه والآخر بإيابه وهو قاع واسع وذكره السمهودي بنقيع بولا، والأصح ما ذكرته وقد زرته فوجدته قاعاً فسيحاً.

٦ ـ مسجد بذات الخطم (بفتح الخاء المعجمة ثم طاء مهملة على خمس مراحل من تبوك).

٧ ـ مسجد بطرف البتراء تأنيث أبتر وهو جبل في تلك الناحية في بلاد بني الحارث بن كعب.

٨ ـ مسجد بشق تارا (بالتاء المثناة من فوق ثم راء مهملة)[1].

وقد تحدث الشيخ حمد الجاسر عن المساجد التي صلى فيها الرسول ﷺ فقال:

«عنايتهم بالمساجد النبوية الواقعة في الطريق بين المدينة المنورة وتبوك، ذلك أن المؤرخين الإسلاميين حرصوا أشد الحرص على تسجيل أسماء الأماكن التي صلى بها الرسول ﷺ. ومن أقدم من عنى بذلك ابن إسحاق صاحب (السيرة) ثم ابن هشام ملخصها، ومن المتقدمين (الحربي) صاحب كتاب (المناسك ومنازل الحج) وهو من منشورات دار اليمامة، ثم من جاء بعده ومنهم (الفيروزآبادي) صاحب كتاب (المغانم المطابة في معالم طابة) وهو من منشورات دار اليمامة أيضاً وبعدهم (السمهودي) في كتاب (وفاء الوفاء) ومختصره (خلاصة الوفاء) ويحسن أن نورد هنا ما جاء في رحله الخياري المدني (تحفة الأدباء وسلوة الغرباء) عن هذه المساجد، فقال ما نصه: (وكانت مساجده في سفره إلى تبوك معروفة) نقل ذلك عن المتقدمين وأضاف: (ففي كل منزل نزله اتخذ مسجداً وجميعها معروفة إلى مسجد تبوك) وأردف: (قلت: هكذا نقل بيقين محال الصلاة منه ﷺ وأنها معروفة بهذه الطريق... وقد سلكت أنا هذه الطريق وسلكها جمع كثير لا يحصى عددهم من المدنيين وغيرهم، ولم يقف أحد على تعيين محل منها في منزل من المنازل إلى أن وصلنا إلى تبوك لا ظناً ولا تخميناً، فما بالك باليقين والتعيين، ومن لقيناه من البادية الذين ربما يكون عندهم خبر من ذلك، ولم نسمع منهم شيئاً في ذلك، ولعل سببه ما هو معلوم من أن هذه الطريق انقطع سلوكها مدة مديدة أيام كانت الخلافة ببغداد فما كانت الحجج ترد إلا من طريقها ولم نعلم إلى الآن متى كان ابتداء سلوكها من جهة الشام بعد انقطاعها لنا بيقين المدة المذكورة)[2].

---

(١) انظر: المرجع السابق وكتاب موسل، شمال الحجاز ١٤١، ١٤٢.

(٢) حمد الجاسر، شمال غرب الجزيرة ٤٣٥.

أما قوله: فإنه لم يحدد مواقع تلك المساجد وعلل ذلك بانتقال الخلافة إلى بغداد وهجران هذا الطريق فإني لا أميل إلى ذلك لأن حجاج الشام استمروا في هذا الطريق غير أن الواقع أن درب الحجاج ليس بمسار الرسول ﷺ فطريق الرسول أخذ الجهة الجنوبية الغربية من تبوك حيث يمر بالخور وينطلق إلى مدارة ثم الزراب وحرة الرحاء فهو يعبر جبال السروات وهي طريق وعرة قليلة الماء ولكنها قريبة.

أما طريق الحاج فإنه يسلك إلى وادي الأخضر في الجهة الجنوبية الشرقية من تبوك ويسير عبر الوادي حتى المعظم ويلتقي الدربان في وادي الحجر.

ومما دفع إلى هذا الإيهام ذكر الأخضر، والأخضر الذي يذكره الرحالة إنما هو الوادي أو منتهى الوادي بالقرب من تبوك أمّا عين الأخضر التي تُذكر في درب غزوة تبوك فإنها منطلق الوادي من الجبال وفيه عيون ماء وتقوم فيه بعض الزراعة بل هو بلدة صغيرة فيها مدرسة للبنين، وتكثر حوله المزارع. ويمتاز بجوه الجميل البارد شتاء، المعتدل صيفاً وتسقط عليه الثلوج شتاء، والطل في أكثر الفصول.

العمران في تبوك القديمة

لعل أول عمران في تبوك يتمثل في القلعة التي يسجل العلماء تجديد بنائها في مختلف العصور، ولم نعثر على أي كتاب يذكر الذي قام ببنائها أول الأمر، الأمر الذي يدل على قدم إنشائها.

وتبوك تخضع لعدة عوامل تدعو كل حقبة من أحقاب التأريخ أن تتجه إلى ناحية من نواحيها، مما جعل العلماء يختلفون في مكانها الأول.

وفي نظري أن اندثار مبانيها يعود إلى أن قرية تبوك الأولى تبتعد عن الأماكن الجبلية التي تُبنى من حجارتها الدور، فكانت تبوك تعتمد على الطين غير المطبوخ وهذه الأبنية لا تلبث أن تندثر وتختفي معالمها بسبب عوامل التعرية.

ولذا فإننا نعثر على معالم القرى التي تقترب من الجبال كما في قرية رجوم شوهر، وبعض الأماكن التي تنبىء عن استيطان قديم مثل قُصِير التمرة، وبقايا الحجرات والدور المتناثرة القريبة من سلسلة الجبال في تلك الجهة، ويذكر صاحب معجم البلدان أن تبوك (بركة لأبناء سعد من بني عذرة)[١].

---

(١) البكري، معجم ما استعجم ١: ٣٠٣.
انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان مادة (تبوك) انظر: الحميري، الروض المعطار ١٣٠.

وازدهرت تبوك في العصر الإسلامي الأول وأخذت تتطور أكثر بعد انتقال الخلافة الأموية في دمشق، لأن القوافل الحجازية والشامية تمر بها وازدهرت التجارة فيها الأمر الذي جعل الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز يبني المسجد الذي صلى فيه الرسول ﷺ ويُسمى (مسجد التوبة).

ثم اهتم بها الأمويون وأصلحوا الطرقات المؤدية إليها ويقال: إنهم أعادوا بناء قلعتها.

وكذلك تم تجديدها في عهد الأيوبيين وآخر من قام بتجديدها العثمانيون وقد وصفها الرحالة الخياري في نهاية القرن الحادي عشر الهجري فقال: «شهدنا قلعة المبيضة... وقلعتها عامرة البناء محكمة الوضع شامخة، مبنية بالحجر المنحوت بين الصفرة والحمرة، وهي مشتملة على دهليز، وبابها محكم فيه كتابة على الغيشاني تذكر السلطان محمد خان أمر بتعميرها سنة ١٠٦٤ هـ وبالقلعة مسجد، وإلى جانب القلعة من الخارج بركتان إحداهما مربعة والأخرى مستطيلة وبالقرب من البركة بساتين، وهناك سوق مشتملة على أبنية قديمة»[(١)].

ويذكر (أوغسطس والين) أول أوروبي يزور تبوك في حدود ١٨٥٠ م بأن عدد بيوتها لا يزيد على ستين بيتاً.

أما (دوتي) الذي زارها في عام ١٨٧٧ م لم يجد أكثر من أربعين أسرة لأنهما ربما تعرضت لموجات من الجفاف أو ربما شهدت حروباً، وخير دليل على قولنا هذا ما أشار إليه (هوبر) الذي قام بزيارة للمنطقة في

---

(١) حمد الجاسر، في شمال غرب الجزيرة ٤٤٢. بتصرف.

عام ١٨٨٤ م حيث وجد القرية مهجورة وأرجح أن ذلك في زمن معارك حربية وقعت في المنطقة أدّت إلى هجرة بعضهم أو أنه زارها صيفاً حيث يرتحل أهلها للتجارة أو إنهم ارتحلوا إلى البلقاء في إحدى سني القحط فلما أمنوا على أنفسهم وأموالهم عادوا.

ومما يدل على مصداقية ذلك أن (غزوترز) قد زار تبوك في عام ١٩١٠ م وأوضح أن عدد سكانها (٢٠٠) شخص[١].

وقد وصف تبوك محمد لبيب البتنوني صاحب الرحلة الحجازية عام ١٩١٠ م فقسمها إلى ثلاثة أقسام المكان العام لحجر الحجاج وعنده بئر الكرنتينة[٢] في الجهة الجنوبية من تبوك والقسم الثاني محطة القطار والورشة وهي بجانب السكة الحديدية والقسم الثالث أصل المدينة وتضم القلعة والمباني السكنية والأسواق ويقول فيها: (فمر على محطة تبوك وهي محطة صغيرة تبعد عن الحذاءات شمالاً بنحو ألف متر وفي الكيلو (٦٩٣) من الشام وبينها وبين البلدة ثلاثمائة متر، ومساكن هذه القرية على مرتفع من الأرض وسط صحراء يحيط بها النخل، وبعض غيطان منزرعة بالذرة، وبعضها مبني بالطوب النيء وبعضها بالدبش، وقد رأيت فيها بيرين موشيين بالجير من خارجهما، ومن أبنيتها ما هو بالطوب المدهون من الداخل والخارج بالشهبة لا طين به مادة جيرية، وفيها مسجد أقيم على المكان الذي صلى فيه عليه الصلاة والسلام حين خروجه إلى هذه الجهة، وعلى باب المسجد على يمين الداخل إليه بئر من أثر السيد الرسول نبع ماؤها بين يديه ﷺ في وقت كان هو ومن معه في شدة الحاجة إلى الماء، وهي

---

(١) انظر: أرض الأنبياء ص ١٥٩.

(٢) يقع شرق حي الخالدية وقام مكانه مسجد جنوب دائرة الشرطة القديمة.

التي يشيرون إليها ضمن معجزاته ﷺ، بأن الماء نبع من بين أصابعه، وماء هذا البئر عذب جداً، وقد وضع عليها أخيراً كاظم باشا الذي كان مدير أعمال السكة الحديد الحجازية طلمبة تحفظ ماءها نظيفاً بعيداً عن عبث العابثين فجزاه الله خيراً)[1].

ومما يدل على انتشار العمران أن الأتراك أقدموا على إزالة البيوت المنتشرة في مكان المحطة الحالية والممتدة إلى الشرق من القلعة وذلك من أجل إنشاء سوق مرتب وتخطيط (حي الجديدة)[2].

تبـوك والتجـارة:

وتبـوك مركـز تجاري في الشمـال الغربي للجـزيرة العـربية، وعلى مشارف الشام فالدول العربية القديمة في جنوب الجزيـرة العربيـة امتدت حدودها وثغورها إلى البلاد الثمودية فكانت ثغورهم في وادي القرى والعلا التي تسمى (ديدان) وقد استدل العلماء على ذلك بوجود النقوش المعينية والخط المسند، وما اضطرهم لإنشاء هذه الثغور إلا الحماية التجارية، حتى تضمن انتقال القوافل التجارية، وليس أدل على ذلك من أن الأمر تطور في عهد الأنباط إلى إقامة مراكز حضارية حول تبوك كمثـل (قريـة) (وروافا) ورجوم شوهر، وكانت هذه ترتبط بخط بري قامت دولة الأنباط برصفه من البتراء حتى العلا.

وكانت معبر من المعابر التي تربط الجزيرة العربية بمصر قبل أن تفتح قناة السويس حيث يثبت لنا التاريخ الصلة الكبيرة بين الحضارات القائمة في هذه المنطقة والحضارات القائمة في مصر كما أن الهجرات العشائرية

---

(١) محمد لبيب البيتيوني: الرحلة الحجازية ص ٣١٥.
(٢) أرض الأنبياء ص ١٦٤.

والقبلية والموجات البشرية المشهورة من الجزيرة تتدفق عبر منطقة تبوك وسيناء ثم تنتشر في أنحاء مصر.

وقوم شعيب الذين اشتهروا بالتجارة وعذبهم الله بكفرهم وتطفيفهم للميزان وخسرانهم للكيل قال تعالى: ﴿ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون﴾[1]...

فإن هؤلاء ليسوا ببعيد عن مدينة تبوك وتدخل الآن البدع، أرض شعيب في منطقة تبوك، وربما أن قربها من عاصمة الأنباط البتراء جعل لها دوراً مميزاً في زمن من الأزمان.

والقوافل التجارية الحجازية في رحلة الشتاء والصيف تأخذ طريقها وسبيلها مروراً بتبوك.

وكذلك قربها من دومة الجندل العاصمة التجارية العربية القديمة التي تمثل المجمع والالتقاء للقبائل العربية والتجارة الشامية والعراقية.

وربما أن الشهرة التجارية لتبوك دعت بعضاً من الصحابة رضوان الله عليهم لممارسة التجارة أثناء غزوة العسرة فقد روى: (عن خارجة بن زيد قال: رأيت رجلاً يسأل عن الرجل يغزو، فيشتري، ويبيع، ويتجر في غزوته؟ فقال له أي: كنا مع رسول الله ﷺ بتبوك نشتري ونبيع وهو يرانا ولا ينهانا)[2].

وازدهرت الحركة التجارية في تبوك بعد غزوة العسرة حيث تمر بها القوافل التجارية، والجيوش الإسلامية، ثم الحجاج من الشام ومصر، وهؤلاء يحملون عروضاً من التجارة ويقايضون بها، ويلزم شراء بعض الأشياء من الأسواق المحلية لا سيما وأن الحجاج يمكثون في تبوك أكثر من أربعة أيام على أغلب الأحوال، وكانت تبوك مركزاً صحياً للحجر حيث

(١) سورة المطففين: الآية ١.

(٢) عبد القادر حسب الله، الذهب المسبوك في غزوة تبوك ٤٠١.

يقيمون فيها عشرة أيام في طريق العودة من مكة المكرمة، والمدينة المنورة. بعد أن عُرِف نظام الحجر الصحي لما سار القطار.

وقد تحدث الرحالة عن التجارة في أسواق تبوك كثيراً فقال الخياري الذي مر بها في عام ١٠٨٠ هـ: (شهدنا قلعة المبيضة، ورأينا أهل الشام الواردين عليها للمقايضة مع ما معهم من الأمتعة والأسباب التي تعد للبس والكسوة، وما يناسب ذلك من الدقيق والأزواد، وأنواع الحلوى، التي يهواها الحجاج بعد وصولهم، وهناك سوق مشتملة على أبنية قديمة، يحضر إليها التجار من الشام، ويقام بها سوق عظيمة للمتاجرة)(١).

وتبوك مركزٌ تجاري للقبائل العربية المحيطة والمجاورة لها ويفدون إليها لشراء الضروريات ما عدا الحبوب (القمح والشعير) فإنهم يُسيرون القوافل للشام في كل موسم حصاد.

الزراعة في تبوك القديمة:

العيون التي تتدفق في التلال التبوكية أمر يدعو إلى الاستيطان وقيام المدن، فهناك عين (السكر) التي تقع بجانبها قلعة تبوك، وقامت حولها المزارع والمنشآت العمرانية وهي التي يطلق عليها تبوك القديمة، وهناك عين الرحيل وعين أبي سبعة وتبعدان عنها ثلاثة أميال في الجهة الغربية الجنوبية من تبوك، وبعدهما بثلاثة أميال أيضاً تتدفق عين رايس، وعين كريم وعين الخذمة وعين أبو دميك حتى تأتي سلسلة حجرية تمتد من رايس، حتى الجرثومة وفيها آثار تنبىء عن مزارع وآبار محفورة، وهناك تل الجرثومة عند نهاية تلك السلسلة وفيها أكثر من عين.

وفي الجهة الجنوبية منها عيون العجيجات، غير أن الأكثر أهمية والأقدم تلك الجداول الزراعية، والسهول التي تنبىء عن قيام زراعة هي

(١) حمود ضاوي: الآثار في شمال الحجاز ص ٧٨، الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ص ٢٠٠.

جداول رجوم شوهر وربما تنبع مياهها من التلال العالية في الجهة الجنوبية لمباني المقابر المتواجدة بكثرة، أو إنها جداول مائية (أنهار صغيرة) من جبال السليطية، وليس معنى ذلك إن هذه المزارع والعيون والآبار مزدهرة في آن واحد دائماً وإنما تزدهر تارة وتخبو تارة أخرى. وكل هذه العيون جفت حالياً إلا ما ندر بسبب قلة الأمطار ووجود الآبار الأرتوازية.

وقد تحدث كثير من العلماء عن زراعة تبوك أثناء مرورهم بها في طريقهم للحج فذكر صفي الدين عبد المؤمن البغدادي المتوفى سنة ٧٣٩ هـ في كتابه (مراصد الاطلاع) أن «بها عين ماء ونخل، وكان لها حصن خرب»[١].

ووصفها ابن رشيد الأندلسي بقوله: «بها ماء عذب كثير وبها العين المباركة، وكان الحجاج يقيمون في تبوك أربعة أيام للراحة والمتاجرة».

وأغلب العلماء الذين زاروا تبوك يصفونها بخصوبة الأرض، وتدفق المياه فيصفها محمد أديب صاحب كتاب (منتخبات التواريخ بدمشق) فيقول: «ينمو بها النخيل البري، وقلعتها وبركتها ترجعان إلى عهد السلطان سليمان العثماني، وينبت بقرب البركة أشجار التين والرمان، والسفرجل، والعنب، والباذنجان، وفي البقاع المجاورة يقيم العرب أماكن يزرعونها». وقد أشار المفسرون حينما تحدثوا عن شعيب ومدين بأن أهل المنطقة يعيشون على الفاكهة الرطبة صيفاً والمجففة شتاءً وممن ذكر ذلك الطبري في حديثه عن أصحاب الأيكة.

وفي هذه دلالة بارزة على اعتناء أهالي المنطقة بالزراعة، ومما يدعم هذه المقولة ما نراه من القرى الزراعية التي تحفل بالنخيل والتين والعنب، ويحتضن بعضها سفوح الجبال، وبعضها قرب الأودية والشعاب.

ومياه تبوك تنبع من جوف الأرض وتتدفق في جداول زراعية، وإن

---

(١) صفي الدين البغدادي، مراصد الاطلاع ١ : ٢٥٣.

الجفاف الذي يعتريها يعود إلى الإهمال، وترك الأتربة تتراكم على مجاريها غير أن العين الكبرى في تبوك، التي تدفقت مياهها ببركة الرسول ﷺ نالت حظاً وافراً من العناية فقد أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بطي بئـرها بالحجارة ثم تعهدتها الدول في العهد الأمـوي والعهد الأيـوبي حينما تم إصلاحات الطرق للحاج وقد وصف صاحب أرض الأنبياء العين يقول (عين السكر) فيخرج من نقطة محاطة بسور حجري يبلغ ارتفاعه معدل ارتفـاع كتفي الرجل، وقطر هذا السور مائة قدم، بينما سمكه على ياردة واحدة، ويحيط بها السور، لكنه غير كامل الإستدارة بالنبع فمن الجهة الغـربية، توجد فيه فجوة يبلغ طولها ثلاثين قدماً تسمح للمياه الزائدة بالتـدفق إلى بركة، أقدر مساحتها ثلاثين قدماً مربعاً. ومن هذه البركة تنساب المياه إلى بساتين النخيل عبر قناة طينية غير مستوية تبتدىء من الجهة الغربية للبركة ويقوم خزان آخر عند الجهة الشمالية، وهو على شكل مربع تبلغ مساحته ثلاثين قدماً أيضاً ويشكل جدار هذا الخزان الجنوبي جزءاً من بركة الماء الأولى[1].

ومما يلفت الانتباه كثرة الأماكن الزراعية التي اندثرت، فترى بقايـا المزارع وعلاماتها ورسومها عند الآثار وبعضها عفا عليها الزمن، فلا ترى إلا بقايا الجداول والجوابي، وبعضها تتأكـد أنه كـان يعتمد على سقـوط الأمطار كالمزارع التي تكون على قمم الجبال أو في سفوحها حيث لا وجود للعيـون المائيـة، وتغلب عليها التـربة الـطينية، وكـان يزرع فيهـا القمـح والشعير، وأدركت بعض المعمرين الذي يذكر تلك الزراعـة ولمن كانت تلك المزارع، أما القرى التي لا زالت تقوم فيها الزراعة فهي كثيرة وأذكر منها القريبة من تبوك مثل ذات الحاج، والعيينة، ودمج، والبيضاء، وعين الأخضر والبديعة، والعنبة وقنا والهدرة، ورحيب وكانت المصادر الكبـرى

(١) فيلبي، أرض الأنبياء ١٦٥.

للتمور بمنطقة تبوك هي تيماء والعلا، ووادي الديسة. وجل هذه الأماكن ذكرها الحموي في معجم البلدان.

وقد اشتهرت تبوك في القديم بالعنب التبوكي الذي يشبهونه بالبلح وقد نقلت بعض أشجاره إلى الطائف وزرعت فيها وسميت بهذا الاسم وربما كان النقل هذا مع الأنباط الذين هاجروا إلى داخل الجزيرة وما زالت زراعة العنب ناجحة في تبوك وتيماء والقرى المجاورة.

وكانت العين المباركة في تبوك تتوزع إلى جداول لسقيا المزارع الصغيرة حولها وأيضاً هي مورد عذب للإبل والأنعام عامة، وتستسقي منها قوافل الحجيج وظلت نبعاً فياضاً حتى حُفرت حولها الآبار الارتوازية، فنضب معينها، وبقيت أطلالها فأمر سمو الأمير عبد المجيد بن عبد العزيز آل سعود ببناء حدائق حولها ومتنزهاً ترفيهياً حول آثارها وآثار القلعة.

وفي عام ١٤١٢ هـ أمر سمو الأمير فهد بن سلطان بن عبدالعزيز أمير تبوك بإعادة بناء القلعة وترميمها كحالتها الأولى حيث تعاد حجارتها المرقمة إلى أماكنها الأولى؛ وهذا عمل يستحق الثناء والتقدير، وعلى هذه الشاكلة تواصل العمل إلى بقية القلاع على آثار سكة الحديد، وغُيِّرَ القرميد إلى مماثل له من النوع الجيد الجديد، ورصف ما حولها بدوائر خرسانية أو على شكل مثلثات لتزدان بالزراعة المنظمة، وفيها أماكن مخصصة للسير وأخرى للجلوس، وعددها ثمان قلاع، ممتدة من الشمال إلى الجنوب، وتتوسط مدينة تبوك الحالية.

الآثار في منطقة تبوك

نظراً لكثرة الآثار في شمال الجزيرة فقد زارها عدد كبير من الأوروبيين بقصد الكشف والمعرفة ولكن يجب على الباحث أن يقف موقف الحذر من كل ما يكتبه المكتشفون الغرب كما يحلو لهم أن يسموا أنفسهم وكأن هذه البلاد في حاجة إلى الكشف، وكأنها لم تنتج الحضارات السابقة، وهم في كتاباتهم يعودون بالآثار إلى الأسس الرومانية، فلا يذكرون العرب القدماء، ولا الحضارات التي سبقت الإسلام ولا يشيرون إلى الآثار الإسلامية. والقارىء لكتاب أرض الأنبياء يتضح له أن مهمة سنت جون فيلبي تنحصر في أمرين مهمين:

١ ـ المسح الجغرافي المترابط الذي يخدم الدول الأوروبية المحجمة عن الجزيرة وقد صرح بأن مهمته جغرافية وهو يرسم الأرض الأماكن ويعلو الجبال ليتم له وصف الطبيعة ويحدد اتجاهاتها بالبوصلة.

٢ ـ مسح الآثار التي تمت بصلة ما إلى الرومان ولم يتعرض للآثار الإسلامية، والحقيقة البارزة في كتاب أرض الأنبياء هي تحريف الأسماء، واضطراب في تحديد المعالم الجغرافية وأوصافها وذلك نتيجة لنزع الثقة من رفقاء البعثة والأدلاء، فهو يعاملهم معاملة التسلط الآمر رغم أن إمارة المنطقة وضعت له الحراسة والعربات التي تجوب الصحراء، وكذلك نتيجة لعدم إدراكه للّغة العربية ونقلها محرفة، وربما تكون من الأسباب الترجمة من الإنجليزية إلى العربية، حيث قام بترجمة الكتاب مترجم لم يكن على اطلاع ومعرفة بالأسماء في المنطقة وليست عيباً في المترجم لأنها تخضع للهجة المحلية.

والآثار في منطقة تبوك تأخذ أشكالاً متعددة هي:

أولاً: آثار الحضارات القديمة الثمودية واللحيانية والآرمية والنبطية، وقد عمدت أوروبا إلى الكشف عن هذه الآثار وإبرازها عن طريق البعثات الاستكشافية، إلى جانب استكشاف رجال الآثار من بلادنا فقد ذكرت مجلة الأطلال أن هناك آثاراً ربما تنسب إلى العصر النحاسي في وادي الأخضر، ووادي ضم، ووادي البقار، وتلاع العصافير(١).

وقيل: إن قلعة تبوك من أقدم الآثار في المنطقة إذ عمرت قبل ٣٥٠٠ ق م، وقد تعاودت الدول والعصور وتكرر تجديد بنائها عبر الأحقاب التاريخية وأغلب الظن أن هذه القلعة ارتبطت بعين تبوك وهي التي جعلت من تبوك قرية باقية عبر العصور وتسمى الآن (عين السكر) وهي من العيون الكثيرة التي تنبع من التلال في سهل تبوك، ولغزارة مائها فإنها تروي الحرث والنسل وكانت مورداً للعرب في الجاهلية، وقد أمر عمر بن الخطاب عبدالله بن غريض فطواها بالحجر المسمسم والجبس واستمرت العناية بها عبر العصور الإسلامية وكانت في الجاهلية لسعد هذيم بن زيد من بني عذرة وظلوا فيها حتى في العهد الإسلامي، ومنهم الشاعر الإسلامي المتيم قتيل الهوى عروة بن حزام.

ثانياً: الآثار الإسلامية: وهي كثيرة في هذه المنطقة حيث كانت طريق المسلمين من الحجاز إلى الشام، ودرب الحاج والجيوش الإسلامية، ولذا ظهرت عدة قرى إسلامية حول تبوك ومنها: (المحدثة في الجنوب الشرقي لتبوك وكانت أكثر ازدهاراً من تبوك ذاتها ولكنها انقرضت).

ومن الآثار الإسلامية الكتابات التي تدل على تقدمها في العهد الأول الإسلامي، فقد كتبت قبل تنقيط الحروف، وقد رأيت كثيراً منها في أماكن

---

(١) انظر: أطلال ع ٥ ص ٦٢.

مختلفة، منها كتابات في السلسلة الجبلية المحاذية لتبوك من الغرب وقد كتب بعضها عام ٨٥ هـ تدل على أن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس جد العباسيين قد زار منطقة تبوك، أما الطريق الذي يمر به الحجيج فإن النقوش فيه كثيرة وتعبر عن العصور الإسلامية.

وقد اكتشف بعض الباحثين المعالم التي يهتدى بها المسافر أو الحاج وقد عثر على معلم أسطواني الشكل قرب حالة عمار وعثر على كثير من الأواني الإسلامية والفخار، وهناك قبور كتب عليها بالخط العربي في العهد الإسلامي.

واحتفظ قسم الآثار بتبوك ببعضها، ومن الآثار الإسلامية مسجد التوبة في الجهة الشمالية الشرقية من القلعة لا يبعد عنها كثيراً، وقد تم بناؤه في عهد عمر بن عبد العزيز ثم استمر تجديده، ومنها تجديده في عهد الأتراك عام ١٠٦٤ هـ ثم في عهد الملك فيصل بن عبد العزيز عام ١٣٩٤ هـ.

ومنها ثمان من القلاع الحجرية بمحاذاة السكة الحديدية وقد تمَّ إنشاؤها لخدمة المحطة الجديدة والاستراحة ولورشة الإصلاح في تبوك وحمايتها أيضاً ولا زالت قائمة ويرجى لها الرعاية وربما ساهمت في تكوين مركزاً ترفيهياً يمتد في وسط المدينة. وقد بدأت معالمه، واهتم والي المنطقة الأمير فهد بن سلطان به ووضع بعض المعالم الجمالية لكن الموقع يخضع لدراسة مكثفة متطورة.

والقلاع التركية موجودة بكثرة في تبوك وما جاورها لحماية الخط الحديدي الحجازي.

ثالثاً: ومن معالم الآثار التي يسهل الاهتداء إلى أصحابها من الأمم. ويصعب أحياناً أخرى تلك الجداول المائية والمباني المندثرة التي تكون في

السهول من الطوب الطيني، وتكون في المناطق الجبلية من الحجارة المصنعة، وتراها في سفوح الجبال وعلى ضفاف الأودية وعلى قمم الجبال، وهي تكاد تعم جميع الأماكن حول تبوك، ومنها المباني ومنها المقابر ومنها أماكن المراقبة وليس هنا مكان لحصرها وذكر أماكنها.

وتجدر الإشارة إلى أن الدول الإسلامية عبر العصور أخذت تعنى بإصلاح دروب الحاج، وتقيم البرك والقلاع، والحمامات وأماكن الاستراحة، ومعالم الدروب مثل قلعة ذات الحاج وقلعة تبوك وبركتها وبركة المعظم.

رابعاً: ومن الآثار الكتابة والنقوش، وهي توضح التطور التاريخي واكتمال نمو الخط العربي من المعيني (المسند) ومراحله مروراً بالثموديين واللحيانيين والآراميين والنبطيين، والعرب في العصر الجاهلي، والخط في مستهل العصر الإسلامي وعصوره المتلاحقة، لأننا نرى الخط العربي قبل التنقيط ومنه في العهد الإسلامي لأنه يشير إلى أحداث إسلامية، وتذكر فيه أدعية إسلامية، وربما أسماء من مشاهير الصحابة والتابعين، وهناك الخط الإسلامي بعد عملية التنقيط والتشكيل، وأغلب هذه الكتابات تشير إلى أحداث شخصية، وقد اشتهرت القلاع التركية بكتابة تاريخ الإنشاء ومن قام ببنائها والمهندس المنفذ والكتابة بالخط العربي الواضح الجميل.

وقد كثرت الكتابات في دروب الحجيج والجيوش وخاصة على طريق الرسول ﷺ في غزوة تبوك فهناك كتابات في الزراب والزرداب، والراشدة[1]، وأم قويع، وهناك كتابات كثيرة في سلسلة الجبال التي تقع بمحاذاة تبوك في الجهة الغربية والجنوبية الغربية كما أنني اطلعت على

---

(١) أشبه ما تكون بالشلال ويتجمع الماء في سد والكتابة في الحجر الذي يعلو الماء من جوانبه والغريب فيها كيفية وصولهم إلى تلك الأماكن الشاهقة للكتابة والأقرب أنها نتيجة عوامل التعرية مما يدل على قدمها.

كتابات في شعيب يعرف بالثُميم في الجهة الغربية الجنوبية لتبوك على بعد ثلاثين كيلومتراً.

وكذلك كتابات في وادي قنا على بعد ٣٥ كيلومتراً من تبوك أسفل اقترانه بوادي القيصوم عند غدران مائية كبيرة وأغلب هذه الكتابات قبل التنقيط ولكن أكثرها في العصر الإسلامي وذلك لوجود الأسماء الإسلامية، والحمد لله والبسملة، وذكر الأحداث الإسلامية، ولكثرة النقوش الكتابية التي تدل على لغات ولهجات الأمم فإن علماء اللغة أطلقوا على بعضها اللهجة التبوكية «كما تفرع من المعينية الشمالية الدادانية والحسانية ومن الثمودية الأم التي هي الثمودية التيماوية تفرعت الثمودية الحجازية، والثمودية النجدية، والثمودية التبوكية»[1].

خامساً: الرسوم، وهي تمثل مراحل الحياة في الجزيرة العربية، فهناك النحت الذي يعتمد على وضع هياكل لمشاهير القوم، ومنها الرسوم المنقوشة على الأحجار للأفراد والمنقوشة على أشكال هندسية بقصد التجميل ومنها رسوم حيوانية للبرية منها والوحشية القديمة وهي رسوم تدل على قدرة هائلة على النقش فهي صور جميلة لبقر الوحش والوضيحي والوعل والحمر الوحشية، والظباء والحيات، والخيل والإبل وكذلك صور السهام والرماح والرمي بها ومطاردة الصيد.

---

(١) اللغة العربية في عصور ما قبل الإسلام، تأليف أحمد حسين شرف الدين ص ٣٤.

المواقع الأثرية

١ ـ رجوم شوهر:

هذه تقوم على جبال صغيرة وتؤخذ حجارتها الكبيرة وتبنى منها تلك الحجرات التي يكون طولها ثلاثة أمتار في مترين وقد قسمت بحائط بينهما ويكون بناء سقفها على شكل هرمي فأسقفتها موضوعة على صخرة متمركزة على التي تحتها ويخرج منها جزء بسيط وتبنى الثانية عليه وهكذا حتى تلتقي الجوانب ويتكون السقف.

موقعها:

وتقع في شمال غرب (طويل النبيه) وتبعد عن تبوك عشرة كيلا إلى الجنوب وتقرب إلى جبال السروات وتسيل فيها مياه الشعاب المتفرقة من تلك الجبال وهي ذاتها تمثل شعاب بينها جبال ليست بالشاهقة وإنما هي منخفضة تتكون قمتها من حجارة متوسطة وكبيرة استخدمت في بناء تلك المقابر. وهي في نهاية حرة العويرض من الشمال.

تسميتها:

(رجوم) مصطلح تلك المنطقة هو المكان العالي الذي يبنى باليد ليشرف من خلالها على الطرق وليحتمي فيه. أو ليحمي فيه الإبل. من الصقيع وربما أطلق على المقابر فالتسمية حديثة. أما شوهر: فلم أعرف عنه شيئاً إلا ما يطلق على حصن كبير في اليمن يقال له شهارة الغيش وهو

من معاقل الأهتوم أو إنها في حرة شوران التي هي من جِرار حرة الحجاز والحقيقة إنها بقرب جبال حرة فيمكن أن تكون محرفة عن شوران أو شهارة.

وقد كتب عنها (فلبي) في كتاب (أرض الأنبياء) وذكر بأنه لم يعثر فيها على أية معالم وأطلق عليها شوهار بينما يحدثنا متقدموا السن عن وجود عظام كثيرة بداخلها وكذلك وجود بعض الأدوات التي تستخدم في عملهم اليومي. والذي لفت انتباهي في تلك المنطقة أمور منها:

١ ــ أنها تأتي على أرض زراعية تكون على مقربة من جبال حرة العويرض الشاهقة وتأتي سيول الشعاب التي تتخلل الجبال على هذه المدينة.

٢ ــ اهتمام أهلها بالقبور أي بأنفسهم بعد الموت أكثر من اهتامهم بأنفسهم في الحياة حيث وجدنا آثار القبور ولم نجد آثار المساكن فهل كانوا يستظلون ببيوت الشعر... وأظنهم كذلك.

٣ ــ وجود العيون التي تتدفق من التلال وما زالت آثار الجداول التي تسقي المزارع حتى الآن.

٤ ــ أن المنطقة التي بينها وبين تبوك أهلة بالآثار والآبار التي تحتاج إلى بحث وتنقيب فقد تحدث لي أكثر من شخص عن وجود آبار قد طمرتها الأتربة.

٥ ــ أن رجوم شوهر هذه تنبيء عن الاستقرار للذين استوطنوها وأن معيشتهم تختلف تماماً عن القبائل العربية التي استوطنتها قبل الرسول ﷺ

فالقبائل تعتمد على المراعي والتنقل وراءها أما هؤلاء فإنهم يعتمدون على الزراعة فيستقرون.

٦ ـ أغلب الظن أن الذين استوطنوها هم المعينيون اللحيانيون وخلفهم القبائل العربية التي آمنت بالرسول ﷺ أثناء غزوة تبوك.

وفي الجهة الجنوبية الغربية لرجوم شوهر توجد أرض مرتفعة فيها مبان حجرية وقد ذكر لي من أثق فيه أنه برفقة أحد الأشخاص قبل أكثر من ثلاثين سنة نقضوا جانباً من إحدى الحجرات؛ فعثروا على عشرين هيكلاً من الحجارة البيضاء، التي لا توجد في المنطقة، وربما تكون من جبل (اللوز)[1] وهذه الهياكل مصنعة تصنيعاً جميلاً، ووجودها بهذه الكثرة في مكان واحد، يشير إلى أنها كانت للتجارة قبل ظهور الإسلام، حيث أقبل العرب عليها؛ فوضعت كلّ قبيلة صنماً لها حول الكعبة، وأمر آخر له دلالته أن تكون جلبت في غزوة من غزوات الروم، وانحسار الإمارات العربية، فصنعت واستحضرت مع جيوشهم، وتركت بعد انهزام الجيش. وفيه احتمال أن أولئك الرومان نظراً للمنافسة مع الدويلات العربية تريد أن يكون لها أثر تستدل به للمحاجة والجدل، أو تكون من أولئك العرب الذين استوطنوا الشام وتنصروا ثم عادوا لموطنهم الأصلي شأن القبائل العربية قبل الحدود فإنهم يقضون أشهراً في البلقاء ثم يعودون لموطنهم سيما وإن بعضاً منها عليه الصليب.

---

(١) أضخم جبال حسمى في غربها وهو مطل على ساحل البحر الأحمر وممتد من الجنوب إلى الشمال بما يقارب ثلاثين كيلاً وفيه قلعة «أم عجل» وفي فتحتها حجارة صلدة بيضاء، والمكان مهيأ لإنزال الحجارة الضخمة على شكل مدرج ليسهل تدحرجها من الأعلى ولكي لا تتحطم.

٢ ـ قُصير التمرة:

في الجهة الغربية الجنوبية لتبوك على طريق البديعة، يبعد عن تبوك حوالي خمسة عشر كيلاً، وهو مكون من حجرتين مبنيتين من الحجارة ومسقوفتين بالحجارة المدرجة كالسقف الذي ذكرته في رجوم شوهر، وهو مطل من قمة جبل صغير على دروب متعددة من جهة الغرب حيث حسمى، وبعض أودية الحرة مثل (قنا) و(الهدرة) والثميم، ومن الجنوب دروب حرة الرحاء، والدرب التي سلكها الرسول ﷺ في غزوة تبوك ومن هنا أرى أنه مركز للمراقبة لتبوك أو لرجوم شوهر.

٣ ـ العيينة:

لم أعثر عليها في الكتب القديمة ولم يشر إليها المكتشفون الأوروبيون وإنما كتبت عنها مجلة أطلال وهي حولية تصدرها مصلحة الآثار في وزارة المعارف بالعربية السعودية العدد الخامس ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م وقالت عنه: (يعتبر هذا الموقع أهم مواقع العصر الحجري الحديث في منطقة تبوك على الإطلاق) وقد أشارت المجلة إلى أن البعثة السعودية هي أول من اكتشفه (وقد عثرنا عليه شمال غرب تبوك على الطريق المؤدي إلى قرية بالقرب من قرية العيينة وذلك فوق تل صغير (ارتفاعه خمسة أمتار ومساحته ٩٠ × ١٠٠ متر)[١]. (والموقع يحتوي على العديد من الجدران المتهدمة)[٢]. وقد وصفت المجلة المباني وصفاً دقيقاً.

٤ ـ قُريَّة:

له شهرة قديمة وأول من زارها من الأوروبيين الألماني (برنارد

---

(١) الأطلال ع ٥ ص ٦٢.
(٢) الأطلال ع ٥ ص ٦٢.

موثبز) عام ١٩٠٦ م ثم زارها (سنت جون فلبي صاحب أرض الأنبياء) وتحدث عنها حديثاً وصفياً حيث وصف قمة الجبل ووصف القصور ووصف الأفران وذكر الفخار والجداول المائية والأسوار الممتدة في السهل، وترتفع فوق قمة جبل تحفه السهول من كل جانب، والجبل قليل المصاعد والمنافذ تكتنف المزارع والجداول والحدائق جبلها من الشرق والغرب، والألوان التي زين بها الفخار لا زالت ظاهرة رغم تعرضها لعوامل التعرية. وزعم فيلبي أنه لم يعثر على شيء يذكر إلا أن بعثة الآثار السعودية قالت: (لقد اكتشفنا العديد من الأدوات الحجرية خلال هذا المسح... ولعلنا نذكر أنه قد عثر في هذا الموقع من قبل على منقاش من الحجر الصوان يرجع للعصر الحجري الحديث)[1]. وقد تحدثت الأطلال عن قرية وجدرانها والكهوف والحقول والأفران والمعبد وتوزيع المياه والفخار.

٥ ـ المحيبل:

في الشمال الغربي لمدينة تبوك على بعد ٣٨ كم وهي عبارة عن مستوطنة سكنية، ومن أهم المستوطنات الزراعية السكنية في أرض مدين[2].

٦ ـ روافة:

وهي في جنوب غرب مدينة تبوك على مسافة ١١٥ كم وهي نبطية رومانية حيث تم بناؤها بين ١٦٦ ـ ١٦٩ م وقد كتب عنها (سنت جون فلبي) في كتابه (أرض الأنبياء)[3]. ولما زرتها عام ١٤٠٥ هـ وجدت حجراً

---

(١) الأطلال ع ٥ ص ٦٢، وانظر: أرض الأنبياء ٢٤٤.

(٢) الرياض ع ١٠٢٥٨ في ١٤١٣/٢/٣ هـ.

(٣) أرض الأنبياء ١٨٣.

مستطيلاً يقرب من مترين عليه كتابة منظمة ولست أدري هل توجد الآن فإنني أخشى عليها من الأخذ بواسطة الإنسان أو السيل.

٧ ـ الديسة:

وتبعد عن تبوك ١٨٠ كم إلى الجنوب الغربي ويوجد بالمنطقة واجهات نبطية منحوتة بالصخر، وبقايا أساسات جدران مباني سكنية وربما تكون معاصرة لروافة.

٨ ـ وادي العويند:

وبه كتابات ونقوش قديمة على الصخور يقع غرب تبوك على بعد ٥٠ كم.

٩ ـ النابع:

في حسمى غرب تبوك وهي مستوطنة سكنية زراعية قريباً من جبل اللوز من الجهة الشرقية على مسافة عشرة كيلاً وحالياً عبارة عن منهل للبادية حيث تتوفر به المياه في آبار قديمة وفيه مركز إمارة، ومدرسة ابتدائية.

١٠ ـ الصياني:

على بعد عشرين كيلومتراً غرب حالة عمار، عبارة عن مستوطنة سكنية زراعية هامة.

١١ ـ المعظم:

بركة قديمة كانت تسمى جفار المعظم غير أن المعظم الأيوبي قد بنى بركتها لأنها على درب الحجيج إلى الجنوب من تبوك على بعد ١٥٠ كم وقد تطورت في عهد الأتراك فقد بنوا فيها قلعة ومحطة للقطار وبركة ضلعها ٦ متر.

١٢ ــ الأخضـــر:

من المحطات الكبيرة على درب الحاج الشامي وتقع بوادي الأخضر جنوب شرق مدينة تبوك على بعد ٧٥ كم وتشمل على مباني للسكة الحديد القديمة ومسجد وبركة. وتم أخيراً اكتشاف بعض الآثار حولها.

١٣ ــ طويل النبية والتركمان:

وهما على شكل تلال جنوب تبوك على بعد خمسة عشر كيلاً، ولما عُمرت المنطقة واحتاجوا إلى مكانهما وجدوا أن أحدهما يقوم على مبان من الحجارة.

١٤ ــ العنبة: والهرمة:

وهما: عينان حولهما مزارع في الشمال من سفح جبل شيبان أعلى جبال تلك المنطقة وربما من أعلى جبال الجزيرة ويماثله جبل (وتر) القريب منه ويكسوهما الثلج شتاء، فيمكث شهراً أو شهرين. وعين الهرمة إذا نقص ماؤها يحفرون فيها فيلتقون بفوهة واسعة لا يصلون إلى حدها وقد احتفر بعضهم بئراً يبعد عنها سبعين متراً وعثر على جدولاً واسعاً مسقوفاً يذهب يمنة وشمالاً، وسار معه حتى احتجب النور عنه، وسكان تلك الأماكن يتحدثون عن مثل هذه المجاري المائية.

ويوجد حول العنبة آثار من المباني الحجرية شأنها شأن غيرها من تلك الديار والحقيقة أنك لا تسير طويلاً في تلك الديار حتى ترى معلماً من معالم الأبنية القديمة أو جدولاً زراعياً في منطقة تبوك وما حولها وهذا يدعوني إلى التأمل حول ذلك هل كانت القبائل العربية البائدة القديمة بادية ترتحل خلف الكلأ ومساقط الأمطار كما هو الشأن قبل مائة وخمسين سنة وما قبلها؟! قبل البعثة المحمدية.

إن المتدبر في تلك الديار ومعالمها يرجح أن المنطقة كانت بها عيوناً تجري، قريبة الماء وربما أن جداول الأنهار تجري، فالمنطقة منطقة زراعية قابلة للاستقرار وأن القبائل العربية القديمة تعيش حياة حضرية استقرارية

بأدلة تلك الآثار ولأنها موطن حضارات بائدة مستقرة فنحتت الجبال بيوتاً، كما في مدائن صالح، ومدين (شعيب) وأيضاً أصحاب الأيكة، فأولئك الذين يخسرون الميزان لهم حضارة لأن المرتحلين لا يتعاملون بالموازين، ولا يعرفون الاستقرار التجاري. ومع نضوب الماء التدريجي تحول العرب من الاستقرار إلى الارتحال.

كالثموديين

الجزيرة العربية، مكتبة أثرية، تُشخِّص الحقب البشرية التأريخية، سيما شمال غرب الجزيرة، الذي تعاقبت عليه موجات الحضارات، التي سادت ثم بادت، كالثموديين، وأصحاب الأيكة، واللحيانيين والآراميين، والأنباط، ثم تتابعت الدول الإسلامية، وهي تدون أيضاً رحلات بعض الشخصيات.

وطبيعة المنطقة أغرت الأوائل بتدوين ما يعتلج في نفوسهم تلك الطبيعة الجبلية الصلدة، والصفائح الحجرية المصقولة التي تغري بالكتابة والرسم حيثما نظرت أو وقفت أو استرحت، أو سجلت رسالة. فقد رأيت كتابة في (درب البكرة) كُتِب فيها «إن القوم قد ماتوا جميعاً».

والآثار تنقسم إلى قسمين أحدهما: النقوش من كتابة ورسم. وثانيهما: الآثار العينية من نقود وآلات حرب، وأواني، وخزائن، وكان اهتمامي محصوراً في الأول، ولكن لقائي مع رفيق الدراسة عودة فرج السميري، نقلني إلى التواصل مع الصنف الثاني، حيث أن الرجل معني بالآثار العينية القديمة، وقد اشتهر في منطقة تبوك بمتحفه الشخصي، وطول التدبر فيها، جعل عند الرجل علماً وافراً وخبرة وثيقة الصلة.

وقد دعاني دعوة فورية ـ في لقاء بعد طول انقطاع ـ إلى متحفه، فلبيتُ فرحاً مسروراً.

وإذا بالمتحف الشخصي كفيل بتأسيس متحف إقليمي.

والمتحف يشمل على كم من ألوان الآثار، فهناك النقود التي تنسب إلى الساسانيين، وإلى العصور الإسلامية من العهد الأموي مروراً بالعباسي، وعهد صلاح الدين الأيوبي.

وهناك الأواني الفضية، والخشبية لمختلف العصور ورأيت عجباً من الحلل الفضية، وأدوات الزينة المعدنية، وأدوات التجميل من أحزمة، وبراقع، وقلائد، ومما يلفت النظر أن الرسوم عمل عليها صور البوم في بعض العقود، حتى الأدوات الطبية لها نماذج متعددة، والمتحف يضم أصنافاً من الأدوات الحربية من السيف، والترس، والدروع والأنواع الأولى للبنادق والمسدسات.

ونظراً لأن المنطقة حافلة بالآثار حتى استقطبت كثيراً من المعنيين، وبعضهم يهملها، وآخرون تضعف نفوسهم، فحبذا لو عُمِل متحف تشرف عليه هيئة أقليمية بالتعاون مع قسم الآثار من وزارة المعارف، ويكون مكانه القلاع التركية التي حول السكة الحديدية، والمشروع يحتاج من بدايته إلى تبرع رجال الأعمال في المنطقة. ولو تمت الاستفادة من الرسوم حول الحدائق وهي صالحة لتكوين قرية سياحية تقام على امتداد آثار السكة الحديدية. وتستفيد من الشباب الجامعي الذين حصلوا على ليسانس من قسم الآثار والتأريخ ليشرفوا عليها، ويصنفوها.

تبوك في العصور الإسلامية:

توسعت رقعة الدولة الإسلامية الأولى فغزاها الرسول ﷺ وغزاها من بعده أسامة بن زيد، وحدثت معركة بين يزيد بن أبي سفيان والروم في تبوك، وقامت لتبوك أهمية أخرى في عهد بني أمية إضافة إلى أهميتها السابقة حيث إن الخلافة في الشام (دمشق) مما يحتم أن تكون الطريق عامرة آهلة بالحركة بين مكة المكرمة والمدينة المنورة والعاصمة دمشق الأمر الذي دعا الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى بناء المسجد الذي صلى فيه الرسول ﷺ.

ويضاف إليها المعبر والمسار الذي تفد إليه العرب في طريق ذهابهم للجهاد في سبيل الله وكذلك كثافة القبائل العربية المحيطة بتبوك.

وقد ازدهرت قرى مجاورة لتبوك منها المحدثة إلى الجنوب الشرقي من تبوك تبعد عنها بمرحلتين. وكذلك القرى في جنوب الشام والأردن الآن حيث استوطنها عدد من أعيان الحجاز فأسرة عثمان بن عفان استوطنت أيلة، وأسرة محمد بن علي بن عبدالله بن عباس استوطنت الحُميمة، وقد رأينا آثاراً وكتابات تدل على أن علي بن عبدالله بن عباس زار تبوك فقد كُتب على أحد الأحجار الكبيرة ما يدل على أن الزيارة أو الاستيطان في عام ٨٥ هـ.

وتبوك ظلت صامدة تتغير حسب التطورات على الدولة الإسلامية وتصحب حلقات التاريخ ونتائجه تنطبع عليها وتتأثر بها، فلما استقر الحكم الإسلامي في الشام فإنهم سلكوا الطريق الداخلي وهو المسار الذي يمر بتبوك وسمي بالداخلي للتفريق بينه وبين والطريق الساحلي، وقد دوّن المؤرخون القدامى الأحداث التي وقعت في تبوك وعبور الحاج في دربها مثل ابن رستة في (الإعلان) وكذلك ابن خرداذابة في المسالك، وابن قدامة في الخراج وأشاروا إليها إشارات عابرة[1]، ما عدا الجزيري الذي تتبع رحلة الحاج من أوائل العهد الإسلامي حتى أوائل القرن الحادي عشر[2].

وكما تأثر الشام بالاحتلال الصليبي وهيمنوا على الأردن والكرك بصفة خاصة وأخذوا يقطعون طريق الحجاج ويسلبونهم، ويقتلونهم بل تعرضوا للقوافل الكبرى التي تبعث بها الدول من مصر والشام مما جعل الطريق غير آمن لعدم استظلاله بظلال دولة إسلامية، لذا فإن الحجاج تحولوا إلى

---

(١) انظر: الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ص ١٧١.
(٢) الجزيري، انظر: الدرر الفرائد.

الطريق العراقي ومنهم من يأتي على السفن من طريق الوجه والموانىء الساحلية على البحر الأحمر.

وأشار إلى ذلك المقريزي فكان الاضطراب (من أعوام بضع وخمسين وأربعمائة إلى أعوام بضع وستين وستمائة)[1].

وأشار المؤرخون الأوائل إلى الطريق بين المدينة المنورة والشام فـ «يمتد الطريق من المدينة إلى ذي خشب إلى السويداء إلى المر إلى ذي المروة إلى الرحيبة إلى وادي القرى إلى الحجر إلى الجنينة إلى الأقرع إلى المحدثة إلى تبوك»[2]. وهذه الطريق غير التي سلكها الرسول ﷺ، لكنها طريق الحاج من بعد ذلك، وهي التي رُصِفت عليها سكة الحديد الحجازية. والطريق التي عبرها الرسول ﷺ أقرب منها لكنها وعرة جداً.

ويبدو أن هذه الطريق عُرِفت في عهد الخلافة الراشدة بعد أن سلكتها الجيوش الفاتحة فهذا جميل بن معمر يسلكها في رحلته إلى الشام ومصر، ويلوي عنقه في كل منزلة إلى بثينة. ونظراً لاضطراب ترتيب القصيدة التي وصف فيها رحلته؛ فقد اضطرب ترتيب الأماكن في القصيدة، ولذا فإني أرتبها حسب معرفتي بها، فهي ما زالت تحمل هذه المسميات، وقد زرت جلّها وها أنا أوردها على الترتيب من الجهة الجنوبية القريبة للحجر؛ قرح، الحجر، الجنينة: قاع متسع ينبت ألواناً من الأعشاب يبعد عن تبوك ١٨٠ كيلاً غرب طريق الحاج وقريباً منه وادي ذات طلاح موقع الغزوة التي بعث بها الرسول ﷺ لتأديب قضاعة.

أمّا وادي الغضا فهو جنوب تبوك على بعد ٤٥ كيلاً.

ثم تبوك ثم ذات الحاج شمال تبوك على بعد ٧٥ كيلاً.

---

(١) سيد عبد المجيد بكر، الملامح الجغرافية لدرب الحاج ١٧١.

(٢) ابن خرداذبة، المسالك والممالك ١٥٠، قدامة بن جعفر الخراج ١٩١.

ثم أذرح، وهي مدينة أثرية في شمال غرب معان في المملكة الأردنية.

ثم الشراة وهي جبال مرتفعة جنوب الأردن في شمال غرب معان.

ثم معان أكبر مدن الجنوب الأردني بعد العقبة وتبعد عن تبوك ٢٢٠ كيلاً. والقصيدة هي:

فعدتُ له والقومُ صَرْعَى كأنهم ... لدى العيس بالأكوارِ خُشْبٌ مُطَرَّحُ(١)

أُراقِبُهُ حتى بَدا مُتَبَلِّجٌ ... من الصبح مشهورٌ وما كدتُ أُصْبِحُ

وليلةَ بِتْنا ذاتَ حاجٍ ذكرتكُمْ ... هُدُوّاً وقد نامَ الْخَلِيُّ المُصَحَّحُ(٢)

وبتُّ كَئِيباً لا دكاري وصُحبتي ... على مَشْرَعٍ فانهلَّتِ العَيْنُ تَسْفَحُ

ويومَ مَعانَ(٣) قال لي فعصيتُه ... أَفِقْ عن بثينَ، الكاشِحُ المُتَنَصِّحُ

ويوم نَزَلْنا بالجِبالِ عشيةً ... وقد حُبِستْ فيها الشَّراةُ وأَذْرُحُ(٤)

ذكرتكُمُ فانهلَّتِ العينُ إنَّها ... إذا لم يكن صبرٌ أَخَفُّ وأَرْوَحُ

وليلَةَ عَرَّسْنا بأَوْدِيَةِ الغَضَا(٥) ... ذكرتُك، إنَّ الحبَّ داءٌ مُبَرِّحُ

ويومَ تَبُوكٍ كِدْتُ من شِدَّة الأسَى ... عليكِ بما أُخْفِي مِنَ الوَجْدِ أُصْرِحُ

أرى شجراتِ الدار خُضراً ولا أرى ... سوى شجراتِ الدار شيئاً يروِّحُ

أمن أجلِ أن حلت السكن وابتنت ... بثينة بندى غصنكن الملوّحُ

---

(١) في المنتهى: العيش. في موضع: العيس. صرعى: يريد نيام.

(٢) ذات حاج: موضع في شمال تبوك من منازل الحاج على بعد سبعين كيلاً. ويظهر أن ترتيب الأبيات في تقديم وتأخير لأن الترتيب ان يأتي بتبوك أولاً.

(٣) معان: جنوب الأردن على درب الحاج.

(٤) الشراة: جبال تمتاز شمال غرب معان في الأردن. أذرح: مدينة أثرية عامرة في العهد الإسلامي، شمال غرب عمان.

(٥) واد يقع جنوب تبوك وغرب وادي الأخضر وغرب سكة الحديد، على بعد ثلاثين كيلو متراً من تبوك.

أأكْـرِمُ أَصْحَـابِي وأَبْـذلُ ذا يـدِي ... وأُعْرِضُ عن جَهْلِ الصَّدِيقِ وأَصْفَحُ؟
وأُكْثِـرُ قـولاً والحبِيبُ مُـوَكَّـلٌ ... سَقَى أَهْلَ جُمْلٍ حَيْثُ أَمْسَوْا وأَصْبَحُوا
أَجَشُّ هَـزِيمُ الـرَّعْـدِ دانٍ رَبـابُـه ... لـه هَيْدَبٌ جَمُّ العَثَانينِ رُجَّـحُ(١)
ذكَـرتُـك يـومَ النحـر يـا بثْنُ ذكْـرَةً ... على قـرَنٍ والعيسُ بـالقَـوْمِ جُنَّحُ(٢)
عـواطِـفَ بـالعَـيْنَيْنِ بيـنَ مُسِـرَّةٍ ... لَقـاحـا وأُخْـرَى حـائِـل تَتَلَقَّحُ(٣)
دُهـنَّ بـأَسْقـاطِ اللُّغَـامِ كـأنَّـه ... إذا قَـطَّعَتْـهُ الـرِّيحُ قَـزٌّ مُسَـرَّحُ(٤)
ويـومَ وَرَدْنـا قُـرْحَ هـاجتْ لِي البُكـا ... من الـوُرْقِ حَمّاءُ العِـلاَطَيْنِ تَصْدَحُ(٥)
ويـومَ ورَدْنـا الحِجْـرَ يـا بثن عـادَنِي ... لكِ الشوقُ حتى كِدْتُ باسمكِ أُفْصِحُ(٦)
وليلةَ بِتْنـا بـالجُنَيْنَـةِ(٧) هـاجَـني ... سَنـا بـارقٍ من نحـوِ أرضِكَ يَلْمَحُ(٨)

---

(١) الأجش: الغليظ الصوت، يصف المطر. والرباب: السحاب الأبيض. والهيدب: الحواشي. والعثانين: جمع عثنون، وهو أول المطر أو ما بين السماء والأرض منه، أو المطر عامة. والرجح: الثقيلة الممتلئة ماء.

(٢) قرن: جبل. والعيس: الإبل البيض يخالط بياضها شقرة. وأجنح: مسرعة.

(٣) المسرة: المخفية، أي تتلقى اللقاح فتخفيه في رحمها. واللقاح: ماء الفحل، وفي المنتهى: لقاح، بدون نصب. والحائل: الناقة التي حمل عليها فلم تلقح، أو التي لم تلقح سنة أو سنتين أو سنوات.

(٤) المنتهى: وهن، تحريف. والأسقاط: جمع سقط، وهو ما أسقط. واللغام: الزبد. والقز: الحرير. والمسرح: المرسل.

(٥) قرح: وادي القرى أو سوقها. الورق: الحمام. وحماء: سوداء. والعلاط: صفحة العنق.

(٦) الحجر: أرض ثمود.

(٧) اسم قاع في الجهة الجنوبية الغربية من المعظم على طريق القوافل من الحجر ويسمى الآن (المجينينة).

(٨) جميل معمر، الديوان ٤٨، تحقيق د. حسين نصار، الطبعة الأولى، دار مصر للطباعة.

تبوك في كتب الرحلات

والأدريسي المتوفى عام ٥٦٠ هـ تحدث عن المنطقة في كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) فقال.

«وعلى ساحل بحر القلزم مدينة مدين[١]، وهي أكبر من تبوك وبها البئر التي استقى منها موسى عليه السلام لسائمة شعيب. ويحكى أنها بئر معطلة، وقد عمل عليها بيت وماء أهلها من عين تجري إليهم. وسميت مدين بالقبيلة التي كان منها شعيب، وبها معايش ضيقة وتجارات كاسدة.

ومن مدينة مدين إلى أيلة خمس مراحل.

ومن أيلة إلى الجار نحو من عشرين مرحلة.

ومن مدين إلى تبوك في البرية شرقاً ست مراحل.

ومدينة تبوك بين الحجر وبين أول الشام، وأول الشام منها على أربع مراحل في نحو نصف طريق الشام ولها حصن يطيف بها وشرب أهلها من عين ماء خرارة وبها نخيل كثير ويقال: إن أصحاب الأيكة الذين بعث الله إليهم شعيباً كانوا بها وكان شعيب من مدين.

والحجر من وادي القرى على مرحلة وهو حصن نظيف الحال بين الجبال وبها كانت ديار ثمود وبها بيوت منقورة في الصخر وأهل الحجر

---

(١) مدينة مدين ليست على الساحل وتبعد عنه أربعين كيلاً ويطلق عليها الآن (البدع).

وتلك النواحي يسمونها الأثالب وهي جبال في ذاتها متصلة في العيان حتى إذا توسط المار بها كانت كل قطعة منها قائمة بذاتها يطاف بكل واحدة منها من غير أن يمازج بعضها بعضاً أو يختلط بعضها ببعض وبها الآن بئر ثمود ويحيط بالحجر من كل ناحية جبال ورمال لا يكاد أحد يرتقي إلى ذراها إلا بعد جهد ومشقة.

ومن الحجر إلى تيماء أربع مراحل ومن تيماء إلى خيبر أربع مراحل.

ومدينة خيبر مدينة صغيرة كالحصن منيعة ذات نخيل وزروع وكانت في صدر الإسلام داراً لبني قريظة والنضير وكان بها السموءل بن عاديا المضروب به المثل في الوفاء.

ومنه إلى المدينة أربع مراحل.

وبقرب خيبر جبل رضوى وهو جبل منيف ذو شعاب وأودية ورأسه من ينابيع الماء به كخضرة البقل وفيه مياه كثيرة وأشجار ومنه تحمل أحجار المسن إلى سائر الآفاق.

وفيما بينه وبين ديار جهينة وساحل البحر ديار يسكنها قوم من ذرية الحسن بن علي بن أبي طالب، وهم يسكنون بيوت الشعر، وهم خلق كثير زيهم زي الأعراب، ينتجعون المراعي والمياه كانتجاع العرب لا فرق بينهم وبين العرب في خُلُقٍ ولا خَلْقٍ. وتتصل ديارهم مما يلي المشرق بوادي أراذان وهو من الجحفة على مرحلة، وبينها وبين الأبواء التي في طريق الحاج ستة أميال.

ومن تيماء إلى دومة الجندل أربع مراحل.

ودومة الجندل حصن منيع ومعقل حصين وبه عمارة، وتتصل به عين التمر وبرية خساف من بادية السماوة. وبرية خساف وهي ما بين الرقة وبالس عن يسار الذاهب.

وتيماء حصن عامر وبنية أزلية، وهو أعمر من تبوك وبينهما أربع

مراحل، وبين تيماء وأول الشام ثلاثة أيام، وبتيماء مياه ونخيل ومنه تمتار البادية وبه تجارات قلائل. ويسكن بين أيلة وتبوك إلى وادي القرى قبائل لخم وجذام وجهينة وبلي وبلادهم بلاد إبل وألبان وأسمان، وهم ينتجعون مراعي هذه الأرضين ولهم كرم وبذل لما في أيديهم، وهم يسكنون بيوت الشعر وينتقلون من موضع إلى موضع لا يقيمون بمكان ولهم مصايف ومرابع يدورون عليها وينتقلون إليها مع الدهر وهم مترددون إليها[1].

«قال ياقوت الحموي المتوفي ٦٢٦ هـ صاحب معجم البلدان عن تبوك: تبوك بالفتح ثم الضم، وواو ساكنة، وكاف: موضع بين وادي القرى والشام، وقيل بركة لأبناء سعد من بني عذرة، وقال أبو زيد: تبوك بين الحجر وأول الشام على أربع مراحل من الحجر نحو نصف طريق الشام، وهو حصن به عين ونخل وحائط ينسب إلى النبي ﷺ، ويقال: إن أصحاب الأيكة الذين بُعث إليهم شعيب، عليه السلام، كانوا فيها ولم يكن شعيب منهم، وإنما كان من مدين، ومدين على بحر القلزم على ست مراحل من تبوك، وتبوك بين جبل حسمى وجبل شروری وحسمى غربيها وشروری شرقيها.

وأقام النبي ﷺ بتبوك أياماً حتى صالحه أهلها، وأنفذ خالد بن الوليد إلى دومة الجندل وقال له: ستجد صاحبها يصيد البقر، فكان كما قال، فأسره وقدم به على النبي ﷺ، فقال بجير بن بجرة الطائي يذكر ذلك:

تبارك سابق البقرات، إني رأيت الله يهدي كل هاد
فمن يك حائداً عن ذي تبوك فإنا قد أمرنا بالجهاد

وبين تبوك والمدينة اثنتا عشرة مرحلة، وكان ابن غريض اليهودي قد طوى بئر تبوك لأنها كانت تنطم في كل وقت، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمره بذلك[2]».

---

(١) الأدريسي، نزهة المشتاق من اختراق الآفاق ١/ ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٣.
(٢) معجم البلدان، ياقوت الحموي ٣: ١٤ طبعة دار صادر.

ولما استعاد المسلمون السيطرة على القدس وبلاد الشام من الصليبيين، وأقامت أسرة صلاح الدين الأيوبي (الدولة الأيوبية) أولت الطريق الداخل ـ طريق تبوك ـ العناية والرعاية، فحفرت الآبار، ومنها بركة المعظم التي تحمل اسم أحد أبناء العادل الأيوبي وقد أشار إلى هذا ابن رشيد الأندلسي فذكر جفار المعظم، والأخيضر.

وزار محمد بن رشيد الأندلسي[1] تبوك، مر بها في طريقه للحج في أول شهر ذي القعدة عام ٧٨٤ هـ، وقال في وصفها: «هي أدنى أرض الشام إلى المدينة، وهي أقصى أثر رسول الله ﷺ، وحين دنونا منها بأميال خمسة أو ستة عبأ الناس الجيش، وتزينوا بالأسلحة ورتبت الرجال والفرسان وخلفهم الرواحل، ونزل كثير من الناس عن رواحلهم، وساروا بها يسوقونها وعبؤوها بجزل الحطب، حتى كأنها مراكب بحرية موسقة وذلك لتعذر الحطب بأرض تبوك إلا على بعد منها، ويذكر الناس أنهم إنما يعبئون الجيش عند دخولها عادة لهم، يزعمون فيها الاقتداء لأنه ﷺ دخلها كذلك ـ والله أعلم ـ ولا شك أنه انتهى إليها وأقام بها ولم يتجاوزها وكانت مدة إقامته فيها عشرين ليلة، وهي آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ بنفسه سنة تسع من الهجرة فسار فيها رسول الله ﷺ بالمسلمين لغزو الروم في شهر رجب، وعاد إلى المدينة في شهر رمضان، ثم أورد حديث أن رسول الله ﷺ قال: «إنكم ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضيء النهار، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتي» فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان، والعين تبض بشيء من ماء، فسأل رسول الله ﷺ: «هل مستما من مائها شيئاً؟» فقالا: نعم، فسبهما رسول الله ﷺ وقال لهما ما شاء الله أن يقول ثم غرفوا من العين بأيديهم قليلاً قليلاً، حتى اجتمع في شيء، ثم غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه

---

(١) محمد بن عمر بن رُشيد الأندلسي ٦٥٧ ـ ٧٢١ هـ وكانت زيارته في عام ٦٨٤ هـ، ورحلته ملىء العيبة فيما جمع بطول الغيبة» طبع منها جزءان بتحقيق الأستاذ محمد الحبيب بن الخواجة.

ويديه، ثم أعاده فيها فجرت العين بماء كثير، فاستقى الناس، ثم قال رسول الله ﷺ: «يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة، أن ترى ما هاهنا قد ملىء جناناً».

ثم نقل عن ابن وضاح قوله: «أنا رأيت ذلك الموضع كله حوالي تلك العين جناناً خضرة نضرة[1]، وعقب قائلًا: قلت: صدق ﷺ فقد رأينا هذا الموضع قد ملىء جناناً من نخيل وبينها يسير زرع للأعراب وهذه العين صهريج كبير مطوى بالحجر، يجتمع فيه ماء كثير، ويخرج منه إلى جفر آخر كبير، يجتمع فيه ما يسيل من ذلك، وماؤها كثير عذب، فاغتسلنا من هذه العين المباركة، وتضلعنا من مائها الطيب المبارك. وبمقربة من العين أصل شجرة يابس، فيه غصن كبير ناعم أظنها سدراً، يزعم الناس أنه ﷺ رقد هناك فأخضرت الشجرة - والله أعلم - ولقد اتفق لي هناك أن أخذت يسيراً من لحائها بسكين الأقلام على حكم التبرك لما ذكر من أمرها، ولأني رأيت بعض من حضر هناك أخذ شيئاً منها متبركاً، فرأيت شخصاً قد أقبل إلي، لم أعرفه قبل، ولا بعد فقال لي: حتى أنت تفعل ذلك؟ فقلت: ولِمَ؟ وما تنكر من ذلك؟ فقال: إن كان حقاً ما ذكر فيقتدي الناس بك في الأخذ منها فيفنيها الناس، فيذهب هذا الأثر المبارك، فتكون سبب ذهابه، وإلا يكن فيقتدى الناس بك في باطل أو معنى هذا الكلام، فشكرته وانصرف»[2].

والبلوي في رحلته عام ٧٣٧ هـ يصف رحلته من مدينة معان إلى تبوك بقوله:

«ومهامه كالبحر لا أثراً | فيها لمفتقر ولا سنن
لو سار فيها النجم ضل فيها | حيران لا شام ولا يمن

(١) هذا انبهارهم من مزارع في صحراء شاسعة، فكيف لو رأيا، المشاريع الضخمة التي كست الصحراء كلها في زمننا هذا على امتداد ١٢٠ كيلاً.
(٢) انظر: مجلة العرب ٧٨٥.

إلى أن وصلنا تبوك التي غزاها رسول الله ﷺ وبلدها اليوم خراب، وعلى كل جدار غراب، فوردنا البئر المبارك التي فاضت ببركة رسول الله ﷺ، ففرحنا بنزولها، وسرحنا في ظل نخيلها ثم سرنا من مهامه تجمع بين النفس والجزع، وتتصيد عنقاء البسالة في شرك الفزع إلى أن وصلنا إلى العلا بعد مدى بعيد وعناء شديد، وهي بليدة ذات منظر جميل، كثيرة المياه والنخيل، وبينها وبين تبوك مسيرة ثمانية أيام، نهاراً وليلاً وهي مسافة لها مهابة ومخافة تتعب فيها الركاب، وتفقد الرفقاء والصحاب، وتكابد الخطوب الصعاب وقديماً ضربت العامة بها مثلاً فقالت: «ترك أبوك بين العلا وتبوك»[1] وسبحان مغير الأحوال فإن الأمن والبناء العمراني، والحياة العلمية وتواصل الطرق والخيرات المتدفقة حولت ذلك المثل إلى ما هو متداول اليوم عند العامة تبوك تنسيك أمك وأبيك»[2].

ونلحظ من قول البلوي أن الديار خالية وربما في أيام مجدبة هاجرت منها القبائل إلى بلاد الشام، ومصر، وربما أن الأمن مستتب في فترة من فترات المماليك.

وتحدث الرحالة العربي المشهور ابن بطوطة في رحلته المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار:

«ثم ارتحلنا إلى معان وهو آخر بلاد الشام، ونزلنا من عقبة الصوان إلى الصحراء التي يقال فيها داخلها مفقود وخارجها مولود وبعد مسيرة يومين نزلنا ذات حج هي حسيان لا عمارة بها ثم إلى وادي بلدح ولا ماء به ثم إلى تبوك وهو الموضع الذي غزاه رسول الله ﷺ وفيها عين ماء كانت تبض بشيء من الماء فلما نزلها رسول الله وتوضأ منها جادت بالماء المعين ولم يزل إلى هذا العهد ببركة رسول الله ﷺ ومن عادة حجاج الشام إذا وصلوا

---

(١) خالد بن عيسى البلوي، تاج المفرق ١: ٢٧٨، تحقيق الحسن السائح لجنة التراث المشتركة بين الإمارات والمملكة المغربية.

(٢) الأصح وأباك.

منزل تبوك أخذوا أسلحتهم، وجردوا سيوفهم، وحملوا على المنزل وضربوا النخل بسيوفهم ويقولون هكذا دخلها رسول الله ﷺ، وينزل الركب العظيم على هذه العين فيروى منها جميعهم ويقيمون أربعة أيام للراحة ورواء الجمال واستعداد الماء للبرية المخوفة التي بين العلا وتبوك ومن عادة السقائين أنهم ينزلون على جوانب هذه العين ولهم أحواض مصنوعة من جلود الجواميس كالصهاريج الضخام يسقون منها الجمال ويملؤون الروايا والقرب ولكل أمير أو كبير حوض يسقي منه جماله وجمال أصحابه ويملأ رواياهم وسواهم من الناس يتفق مع السقائين على سقي جمله وملء قربته بشيء معلوم من الدراهم ثم يرحل الركب من تبوك ويجدون السير ليلاً ونهاراً خوفاً من هذه البرية وفي وسطها الوادي الأخيضر كأنه وادي جهنم أعاذنا الله منها وأصاب الحجاج به في بعض السنين مشقة بسبب ريح السموم التي تهب فانتشفت المياه وانتهت شربة الماء إلى ألف دينار ومات مشتريها وبائعها وكتب ذلك في بعض صخر الوادي ومن هنالك ينزلون بركة المعظم وهي ضخمة نسبتها إلى الملك المعظم من أولاد أيوب ويجتمع بها ماء المطر في بعض السنين وربما جف في بعضها وفي الخامس من أيام رحيلهم عن تبوك يصلون إلى بئر الحجر ثمود»(١).

وصاحب رحلة الشتاء والصيف محمد الحسيني الموسوي ارتحل من المدينة ١٠٣٩ هـ ولم تُحدد عودته وقد كتب في هذه الرحلة هذا التسجيل لها، وقد مات عام ١٠٧٠ هـ ومما قاله عن منطقة تبوك، في رحلة العودة من دمشق:

«حتى أتينا على تبوك وهي على النصف من طريق الشام، وفيها عين ونخل وحائط، وهي آخر غزوات النبي ﷺ، وفيها قلعة فيها بئر وشجرة توت، وحولها منازل للعرب ومزارع وأشجار على عيون وعريش ثم أتينا

(١) رحلة ابن بطوطة ٦٨، المكتبة التجارية الكبرى بمصر سنة ١٩٦٤ م.

على المعز وهو قفر لا أنيس به.. ثم مررنا بالمضيق وهو مسلك حصر، كثير الأوعار والمحاجر حتى أتينا على الأخيضر وهو واد مثلث الجوانب، في جنوبية قلعة سليمانية بتاريخ ٩٨٨ هـ وفيها عين تملأ منها ثلاث برك، تلاصق القلعة المبنية لحفظ البئر من دفنها أيام عصيان بني لام وبني عقبة، ثم أتينا على المعظم وهو واد فيه قلعة عثمانية، عمرت سنة ١٠٣١ هـ غير أنه لم يكن بها ماء وقد أشرف على الدمار، وفيه يقول بعضهم:

يا ذا المعظم إن فيك لقسوة فلأيٍّ معنى قد سُميت معظما؟
إن المعظم من يغيث وفوده وأراك أفنيت الأنام من الظما

وعند القلعة بركة عظيمة متسعة جداً، يأتيها الماء من الأمطار ولها خمس وعشرون درجة، ولما وردناها وجدنا منها خمسة عشرة درجة في الماء الفرات ثم أتينا على الأقيرع ثم بشطب العجوز»[1].

والعياشي، هو أبو سالم عبدالله بن محمد العياشي المغربي من أهل فاس المتوفى عام ١٠٩٠ هـ.. كتب رحلته (ماء الموائد) وقد اقتطف الشيخ حمد الجاسر منها ونحن أخذنا أيضاً ما يخص المنطقة فقال:

العقبة:

«ثم ارتحلنا من السطح وأخذنا في نزول العقبة بعد طلوع الشمس، وهي عقبة كؤود، صعبة الهبوط والصعود، ولم لا وهي أيلة المشهورة، إلاّ أن الطريق بها منحوتة قد سوّيت في أكثر الأماكن الصعبة، وبنيت حافاتها ببناء متقن.

ولما كان المحلّ معروفاً بتلصص الأعراب وحرابتهم تهيأ الناس، وأخذوا حذرهم، وأخرجوا أسلحتهم، خوفاً من عدوانهم، فإن الغالب أنهم لابدَّ أن يتعرضوا للركب في هذا الموضع لصعوبته، وتقدمت طائفة من

---

(١) محمد الموسوي، رحلة الشتاء والصيف ٢٣٥، تحقيق محمد سعيد الطنطاوي، الطبعة الثانية ١٣٨٥ هـ.

الحجاج بمدافعهم أمام الركب، وتأخرت طائفة ﴿وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً﴾.

ولم نر بها سارقاً ولا غائراً، ونزلناها على مهل، وبعد أن نزلنا من المنحدر الصعب جعلت الطريق تلتوي في شعاب كأنها أزقّة، يكثر فيها المخاوف والمتآلف، فَيُرَىَ البحر من بعيد فيظن قريباً، ولما وصلنا إلى البحر تأخرنا لدفن بعض الأشراف، مات بعد النزول من العقبة مطعوناً، وخشي أقاربه من جور الولاة إن أوصلوه إلى البندر فدفن هناك[1]...

ووصلنا إلى البندر عند الظهر، وفيه حصن حصين، في قرية على شاطىء البحر في سفح جبل، وبها آبار كثيرة، وفيها نخيل وسوق كبير، يحضره أهل غزّة، وتأتيه الأعراب بالإبل والغنم والسمن والعسل، والعلف للدواب. ووجدنا الفول رخيصاً أرخص ممن اكترى عليه من مصر، وبتنا بها، وبات المصري هناك، وأوقد بالليل نيراناً كثيرة، وضرب المدافع ورمى المحارق في الهواء، ولها منظر عجيب، وأسلوب غريب، كأنها شهب النجوم يرمى بها من الأرض إلى السماء، فتراها في الجو طالعة حتى ترى من أعالي هام شوامخ الجبال دونها. ثم تنعطف راجعة كأنها ثعبان، ثم يسمع لها صوت وتخرج منها شرارات من النار فإذا انقطعت تلك أتبعها بأخرى، وخروجهن فيما ترى من نار زرقاء كأنها نار الكبريت، تشتعل اشتعالاً قوياً، فتطلع منها تلك الشهب، ولا نعلم صنعة ذلك وهي من الغرائب، والرامي بها وبالمدافع عادة المصري في كل منزل أقام فيه إذا أراد الرحيل.

وقد سألنا هناك وبحثنا عن أثر القرية التي كانت حاضرة البحر هل بقي من رسومها شيء فقد ذكر المفسرون أنها أيلة فلم نجد من يشفي لنا خبرها.

---

(١) الرحلة: ١٦٧/١.

وقد ذكر لنا بعض الناس أن بأعلى الوادي أثر بناء كثير يشبه أن يكون مدينة ولعلها هي.

وقد أخبرنا كثير من متسوقة الأعراب الذين هنالك أنَّ وراء الجبل الكبير المشرف على القرية بلدة فيها نخل وماء، إلاّ أنها خالية ويمكن أن تكون هي فإنها قريبة من البحر، والعلم عند الله.

وقال في وصف العقبة عند عودته من المويلح إلى العقبة: ارتحلنا من المويلح بعد الزوال، ونزلنا حيث تنعطف الطريق يميناً عن البحر، وفي الغد مررنا بعيون القصب، وقُتَنَاهُ غير بعيد ونزلنا، وفي الغد نزلنا مغارة شعيب قرب المغرب، وفي الغد ارتحلنا بعدما طلعت الشمس وارتفعت، وبتنا أعلى الوادي دون شرف بني عطية، وفي الذي يليه نزلنا أسفل الوادي قريباً من البحر حيث تميل الطريق إلى ظهر الحمار، وفي الذي يليه نزلنا العقبة ظهراً[1].

ووجدنا أهل غزَّة وأهل معان قدموا بعنب كثير وفاكهة، وبات الناس بها تلك الليلة وأقاموا غداً وارتحلوا يوم الأحد التاسع والعشرين من محرم، وأقمنا بعده يوماً.

وزرنا ـ في ذلك اليوم ـ قبر الشيخ إبراهيم اللقاني[2]، وهو دون البندر في مقبرة هناك، معلم عليه بأحجار، وما عرفناه إلاّ هذه المرة دلّنا عليه بعض أصحابنا الأفريقيين.

حفاير النخل ـ ظهر الحمار:

ثم ارتحلنا من العقبة، وسرنا في مسلك ضيّق، بين البحر والجبل، لا يمرّ فيه، إلاّ جمل إثر جمل، كأنه متن السراط، إلاّ أنه غير مستقيم،

---

(١) «الرحلة»: ٢/٣٠٠.
(٢) ذكر أنه توفي راجعاً من الحج سنة ١٠٤٠ ـ ج ١ ص ١٤٤.

وقلما يخلو هذا المحل من لصوص، يتعرضون للركب فتشتدّ إذايتهم وتعظم نكايتهم، ولكن ذلك في الرجوع أكثر، ولم نر في يومنا هذا بأساً.

ونزلنا ظهراً بموضع يقال له: ظهر الحمار، على بسيط من الأرض أحرش مرتفع، يطلع إليه من مسلكين لا يخلو من صعوبة، وتحته على شاطىء البحر أحساء كثيرة، في وسط حدائق نخل، وماء ذلك المحل كله طيب، وقد يسمى ذلك المحل في زماننا هذا حفائر النخل، وقلما تخلو من عمارة بعض ضعفة الأعراب، سيما في وقت جذاذ النخل، ويكون فيها في ذلك الوقت رطب جيد[1].

شرفات بني عطية ـ عش الغراب:

ثم ارتحلنا منه وخلفنا البحر يميناً، وسرنا يومنا في صعود إلى نحو العصر، فوصلنا إلى موضع يقال له شرفات بني عطيّة، وبنو عطية، هم عرب هذه البلاد كلها في هذا الوقت، ويقال لهذا المكان أيضاً عش الغراب.

غريبة:

تزعم العرب أنّ الإبل تنفر في هذا المكان، ويقولون: إنها تسمع صوت صقب ناقة صالح، وأنه في ذلك الجبل، وأن هنالك الصخرة التي دخل فيها لما عقرت أمّه، فالإبل إذا وصلت إلى ذلك المحل تسمع صوت العشار فتنفر.

ولا أدري من أين لهم ذلك، وهو بعيد، إذ ليست هذه ديار ثمود الذين عقروا الناقة، وهم قوم صالح عليه السلام.

أبو العظام:

ثم انحدرنا من الشرفات إلى محل النزول، ويسمى أبو العظام وبه

---

(١) هذا الوصف ينطبق على حقل، الذي أصبح الآن مدينةً.

ينزل المصري، ونزلنا به، وتسوقنا بعض نساء العرب بلبن وغيره، وأخبرونا أن من وراء الجبل الذي على يسارنا بلداً واسعاً فيه ماء جار، وأرض مخصبة، وربما عطش الركب في ذلك المحل فيأتيهم العرب بماء يبيعونه.

مغاير شعيب (مدين):

ثم ارتحلنا من هناك وسرنا يومنا في هبوط منحدر مع الوادي، لا نفارقه إلى أن نزلنا في المكان المسمى بمغاير شعيب عليه السلام، عند العصر، وأدركنا هناك أواخر المصري ـ كما هو شأننا في كل دار ـ وهي أحساء كثيرة في مضيق بين جبلين فيها نخيل، وماؤها طيب جدّاً حلو خفيف نافع، وتسوقنا بها أعراب مدين بأحمال كثيرة من العنب الجيِّد الأسود، وهو في غاية الحلاوة، وجاءوا برمان كثير، واشترى الناس العنب أولاً بدرهمين، ثم صار بعد ذلك رطل ونصف بدرهم.

ووقعت بين الأعراب عند نزولنا مهارجة، فقتل واحد وارتث آخر.

وبين الموضع الذي نزلنا فيه وبين مدين مسيرة نصف يوم، وهي بلدة على ساحل البحر كثيرة الفواكه والمياه الغزيرة، وسكانها أعراب أهل بادية، وكانت قبل ذلك مدينة[1]، وأخبرونا أن أثر البناء باق فيها إلى الآن. وعلى يسار منزلنا خارج المضيق مغاور يقال: إن فيها كان شعيب يأوي بغنمه، وبإزائه بئر كبيرة معطلة، وبجانبها بركة، ويقال: إن هناك كانت البئر التي سقى منها موسى عليه السلام غنم شعيب عليه السلام، وفي ذلك الوادي دوم طويل كأنه نخل، صنوان وغير صنوان، وعريش كثير في الوادي، وهو محل مخافة قلَّما يخلص من لصوص الأعراب[2].

---

(١) أشار قبل ذلك الأدريسي إلى كون مدين على الساحل، ولا علم لي بذلك وإنما مدين هي مغاير شعيب، وربما يريدون (شرمة) أو الخريبة.

(٢) العياشية ١/١٦٩ ورحلة أبي مدين عبدالله بن أحمد الروداني الدرعي المتوفى ١١٥٧ وهو ينقل عن العياشي.

عيون القصب:

ثم ارتحلنا من هناك، ونزلنا بعيون القصب، وهو ماء جار، في مضيق بين جبلين، في محل كثير القصب والدّيس، وفي أعلى الوادي نخل وأرض صالحة للحرث قلَّ ما يخلو ذلك المكان من أعراب نزول به، فيكثر الخوف، ويعظم ضررهم، سيما عند نزول الليل، فطلع أمير الركب ومعه الرماة حتى جاءوا أعلى الوادي فبقوا هناك حتى استسقى الناس كلهم، وأخذوا حاجتهم من الماء وروت الإبل، فرجعوا بعد العشاء.

وعلى شفير الوادي عند منزل الركب مسجد مبني بالحجارة المنحوتة ومنبر بإزائه.

المويلح:

ثم ارتحلنا منه، ونزلنا إلى ساحل البحر، ولم نزل نسايره إلى بندر المويلح، ونزلناه بعد العصر، وماؤه كثير، وفيه آبار كثيرة، وبساتين حسنة ونخل.

وهناك حصن كبير فيه عسكر وأمير، وتخزن فيه الميرة والفول كثيراً، وعلى بابه سوق كبير، يوجد فيها غالباً المحتاج.

وفيه مقاثي كثيرة من دلاع وبطيخ وغير ذلك.

وبه مرسى حسنة تنزل بها السفن القادمة من سويس، والقادمة من جدة، ومن القصير[1].

ومر بتبوك الشيخ إبراهيم الخياري المدني في سنة ١٠٨٠ هـ،

---

(١) مقتطفات من رحلة العياشي من ٢٢ حتى ٢٦.

(١٦٦٩ م) وقال: «أشرفنا على تبوك المنزل المبارك، وشاهدنا قلعته المبيضة، ورأينا أهل الشام الواردين عليه للملاقاة مع ما معهم من الأمتعة والأسباب التي تعد للبس والكسوة، وما يناسب ذلك من الأزواد وأنواع الحلوى التي يتهاداها الحجاج بعد وصولهم إليها، وأنشدت هذين البيتين بعدما وقع لنا مزيد صفاء وأكيد محبة ووفاء ورخص لأدران السفر وإزالة ما يوجب الكدر:

قصدنا إلى وادي تبوك عشية   لننشق عرفاً للشام يطيب
فمنذ بها صرنا أرينا محاسنا   تسلي فتى الأوطان وهو غريب

ثم ساق خبر غزوة تبوك وقال بعد ذلك:

«وأما ما يتعلق بنفس المكان المسمى بتبوك، فقد وصلناه ضحوة يوم الإثنين تاسع الشهر فرأيناه وادياً عذب الهواء والماء، متسع الجوانب والأكناف والأرجاء به قلعة عامرة البناء، محكمة الوضع شامخة الرفع مبنية بالحجر المنحوت بين الصفرة والحمرة بناء حسن الإلصاق بحيث لا يظهر ما بين الحجرين لولا الكمال بالنورة، وهي مشتلة على دهليز يقابل الباب فيه دكة لطيفة وبابها محكم فيه كتابة على قيشاني لفظها: (أمر بتعمير وتجديد هذه القلعة المباركة مولانا السلطان محمد خان غز نصره على يد العبد الضعيف محمد بن الناشف التذكرجي سنة أربع وستين وألف) وبعد الدخول أرض مربعة مفروشة بالحجر وعلى يمين الداخل إيوان معقود وفي الأركان أوضات ومقابل الباب والإيوان صورة مسجد مفروش بالبسط وفيه محراب وفي وسط الصحن صورة بئر يقال: إن ماءها نبع لا من المطر، وبجانبه حوض منقور من الحجر يملا للتوضي والاستعمال ويشتمل على أوضات أيضاً في الدور الثاني وعلى مسجد غير مسقوف فوق المسجد الأول، هذا صيفي وذلك شتوي، وبأعلاها مدافع كبار يرمي بعضها عند وصول الحاج إلى ذلك المنزل، وقد نقل أهل التاريخ أن بها مسجداً مأثوراً ويقال على ألسنة الواردين: إن هذا المسجد الذي بداخل القلعة هو محل ذلك المأثور

والله أعلم، وإلى جانب القلعة من الخارج على يمين الداخل بركتان إحداهما مربعة والأخرى مستطيلة ويقال: إن ماءها ينبع نبعاً من الأرض لا يؤتي به لا بآنية ولا بغيرها من الآلات وهو عذب كما علم وبالقرب من البركة بساتين مشتملة على أشجار عنب وليمون وتين كثيرة داخل البساتين وخارجها وهناك سوق مشتملة على أبنية قديمة ويقابل باب القلعة بناء مربع يقال: إنه معد للضعفاء والمنقطعين هذا ما يتعلق بالمكان وأما من يقدم إليه من الشام الملاقين للحجاج فإنهم يقدمون جماعات كثيرين مضاهين للحج بخيام عظام وعساكر ومدافع وسردار وكان في عامنا هذا موسى بيك ابن التركمان حسن المشهور بالشجاعة وينقلون من الشام كل موجود بها من الفاكهة وفي عامنا هذا نقلوا التفاح والعنب والرمان لعدم استوائهما وأما غيرها فلم ينضج فلم ينقل وأما سائر النقليات والمخللات والأرزاز والحبوب والملابس بأنواعها والفرش والثياب فأمر كثير ويقوم بها سوق عظيم لم تر العين قبله مثله، والحبوب والأجبان والدقيق ويعملون الرقاق الحواري وغيره مما يؤكل والبيض الكثير وما لا يسعنا شرحه)[1].

وحاجي خليفة في كتابه (جهان) يمتدح من بين منازل الحاج محلة تبوك لكثرة نخيلها ومائها وكثرة الماء بها إنما هو من بركة الرسول ﷺ ووفقاً لما ذكره حاجي خليفة فإن السلطان سليمان قد جدد القلعة هناك وبنى بركة كبيرة للماء»[2].

ويقول محمد أديب: «إن تبوك تعرف كذلك بعاضي خرما ويحدد المسافة بينها وبين المنزل المعروف بقاع البسيط باثنتي عشرة ساعة ويقول: إن النخيل البري ينمو هناك بكثرة. وأما القلعة والبركة بها فيرجعان إلى عهد

---

(١) مجلة العرب ج ٣ ص ٢ رمضان ١٣٧٨ هـ.
(٢) المرجع السابق.

السلطان سليمان، ثم يقول: إن في القلعة شجرة تين عظيمة حفر بجوارها عين ماء وفي البركة عين تتدفق بشدة وينبت بالقرب منها أشجار التين والرمان والسفرجل والعنب والباذنجان والبطيخ ويقال: إن في تبوك مسجداً حيث صلى الرسول ﷺ وقد جدده عمر بن عبد العزيز وأمام تبوك يسمى ثنية المدراري كان فيه كذلك مسجد صلى فيه النبي ﷺ وبهذه المناطق ينبت البعيثران بكثرة وكذلك الغابات لأن الماء يسيل هناك. وفي البقاع المجاورة فإن العرب يقيمون في أماكن يزرعونها وقليل من أكواخ البدو قد بقي حتى الآن حيث كانت تقوم القرى والحلل قديماً وغير بعيد من هذه المنطقة تقع القرية المسماة بسرغ وجميع هذه الأماكن تابعة للحجاز الذي تقع فيه مكة المكرمة والمدينة المنورة واليمامة ووفقاً لما يذكره الأصمعي فالحجاز اسم للمنطقة التي تشتمل الحرارة فجميع منازل سليم حتى المدينة تسمى الحجاز لأنها تحتجز بالجبال»(١).

ويعلق موزل: لم توجد مطلقاً ولا توجد الآن أية غابات بالقرب من تبوك ولكن يوجد إلى الغرب والشمال الشرقي كثير من الغضا الذي يكون في هيئة أحراش ترى من بعيد كأنها الغابة الصغيرة ومنذ أنشئت سكة حديد الحجاز أخذت هذه الأحراش تتضاءل فقد كان الغضا يقطع ويرسل إلى المحطات المختلفة على طول الطريق أو كان يستعمل لعمل الفحم الذي ينقل إلى دمشق، وثنية المدراري أو المدرا الحديثة الواقعة قريباً من قصير التمرة على نحو من عشرين كيلاً من تبوك، أما منازل العرب فتقوم بالقرب من حديقة الرايس وبالقرب من عين الجرثومة وبالقرب من بير القنا وفي كل مكان إلى الجنوب والغرب من محلة تبوك. أما قرية (سرغ) فتذكرنا بالمنزل

---

(١) انظر: المرجع السابق ج ٣ ص ٣ لعام ١٣٧٨ هـ.

المعروف بسرغ الذي يقع على مائة وسبعة عشر كيلاً إلى شمال الشمال الغربي من تبوك(١).

وينقل موزل عن يوسف الملكي بأن تبوك كانت تسكنها في القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) قبيلة الحميد (الحميدات) التي كانت قد هاجرت إلى الشمال ثم عادت بعد فترة قصيرة(٢).

والشعراء يتحدثون عن رحلات الحج كثيراً ويوردون أسماء الأماكن مما جعلها متداولة معروفة ومنهم بدر الدين بن جماعة له قصيدة طويلة دون الأماكن التي عبرها في درب الحاج الشتوي الذي يقترب من ساحل البحر الأحمر وذكر فيها أيلة وحقل ووادي عفان، ومغار شعيب ووادي النبك، وأرض سلمى، وأزلم، والوجه:

وفي السطح أمست واستقرّت هنيهة ... وفي أيلة الفيحاءِ كان ضُحاها
إلى حقل سارت والغرام يقودها ... وبين حروف وردُها ومناها
لوادي عَفَان باشرت ثم يَمّمَتْ ... مغار شعيبٍ كي يزول ظماها
وقرت عيوناً بالعيون وراجعت ... وقد طلّقت أجفانُها لكراها
ولا تنس وادي النبك إذ نزلت به ... فروّت وسارت تستلذّ عناها
وفي أرض سلمى سَلّمَتْ ثم يممت ... كفافة تكْيفها شديد صداها
وفي أزلم حلّتْ وقد طاب عيشها ... ومنها إلى الإسطبل سار خُطاها
ومن بعدها جاءت إلى الوجه وارتوت ... وسارت إلى أكرا وطاب هواها(٣)

---

(١) انظر: المرجع السابق ج ٣ ص ٣ لعام ١٣٧٨ هـ.
(٢) أ. موسل، شمال الحجاز ١٤٢.
(٣) الجزيري، درر الفرائد ٢: ١٢٩٣.

والأرجوزة تفصل الأماكن أكثر:

يـامـا تــرى في حقـل من تغليب   واطلع إلى الجـرفين من قريب[1]

ومن عادة الحاج أن يحمل السلاح إذا أقبل على تبوك كأنهم يقتدون بدخول رسول الله ﷺ لها في غزوته، يقول الصلاح الصفدي[2]:

أتينـا بـالسـلاح إلى تبـوك   وذلـك عـادة صـارت فسـارتْ
دخلنـاهـا بـإيمـان صحيـح   دياجي الشرك منه قد استنارت
لـو أنّ جماعـة الكفّار فيهـا اسـ   ـتجاشت نحونا وبنا استجارتْ[3]

والحقيقة أن الحجاج يصلون إلى تبوك بعد رحلة طويلة شاقة من بلاد المغرب ومصر وأقل من الشام، فيعتريهم الضعف وتهزل دوابهم، وتضيق صدورهم، فيرون كل شيء بمنظار أسود مما أكثر هجومهم القـولي على البلاد والعباد وقد وصف الصفدي قافلتهم لما بلغوا تـبوك: «ثم قصدنا عين تبوك، والجمال من الهزال كالعنكبوت، وأشباحها كالآل الذي يلوح على بُعد في المهامة والمروت»[4].

والصفدي يسجل عادة أخرى هي التباكي أو البكاء عند بلوغ تبوك ولست أدري من أين أتت، ولست أدري كيف يقنع العلماء والمثقفون بتلك العادات ويسجلونها وتظهر في مواكبهم ولا يعالجونها:

---

(١) انظر الدرر المنظمة ٢: ١٢٩٥.
(٢) صلاح الدين الصفدي، أديب مؤرخ عالم له أشهر كتبه (الوافي بالوفيات) مات عام ٧٦٤ هـ.
(٣) الجزيري، الدرر الفرائد المنظمة ٢: ١٤٦٠.
(٤) المرجع السابق ٢: ١٢٦٠.

أقــول وفـي الــركـب مــن بــراه الـ	ـهــوى وســواه حين يــراه حــاكـي
إذا جــاءت تـبــوك بـنــا الـمــطايــا	(تـبيـن من بـكى مـمن تـبــاكـى) (١)

ويقول في (حالة عمار) قبل أن يصل تبوك بثلاث مراحل:

جئــنــا لـعــمــار ولـم يُـبْـقِ الأذى	فـينـا بـقيـة مـا يُـبـاع ويشـتـرى
فـلو ابـن عـمــار رآنــا لـم يــقــل:	(أدر الـزجاجـة فالنسيم قـد انبرى) (٢)

ووادي القرى المشهور في العهد الإسلامي والدولة الأموية يصبح مهامه ومفاوز خالياً من الحياة ومن الناس ومن الماء يصفه الصفدي:

قـد جعـل الله من تبــوك إلى الـ	ـعُـلا لــلورى مــفــازه
راكـب تـلك الـطريـق عـنـدي	كـأنّـه راكــب الـجـنــازه
لـكـن لـطف الإلـه أضـحـى	لـزائـر الـمـصـطفى إجــازه (٣)

ويقول عنه أيضاً:

مــررنـا بـوادي الـقــرى ضحــوة	ودسـنــا بــه المـهـمــة الأغـبــرا
فـأمـطرنــا الله ذاك الــنــهــار	فكــان قِـرانـا بـوادي القــرى (٤)

ويقول عنه شهاب الدين أحمد ابن أبي حجلة:

رأيت قـرى ووادي القرى في مسيـرنا	وبُنيــانهـا طـوبٌ من تحتـه حجـرٍ
ولـم يبـق منهــا سـاكـن متـحـرك	ولـيس بهــا لـلعيـن مـاء ولا أثــر (٥)

ويقول معتبراً بتاريخها وحالها القائم:

أوادي القـرى هذي القـرى أين أهلها	ومــاؤهم فيهـا الـذي كـان منصبّـا
أظـنّــك لمــا أن أكـلت لحــومـهـم	شربت عليها الماء من بعدهم شربا (٦)

---

(١) المرجع السابق ٢: ١٢٦٠.
(٢) المرجع السابق ٢: ١٢٧٢.
(٣) الجزيري، الدرر الفرائد المنظمة ٢: ١٢٦٢.
(٤) المرجع السابق ٢: ١٢٧٠.
(٥) المرجع السابق ٢: ١٢٧٠.
(٦) المرجع السابق: ٢: ١٢٧٠.

واعتقد أن كل ذلك يعود لجفاف الأمن لا الماء، وانعدام الدولة لا انعدام الإنسان، فقد فقدت تلك الديار الرعاية الأمنية والفكرية بعد الخلافة الأموية أو قبل انقراض الأمويين بعض الشيء، وطالها ما طال الجزيرة العربية من الإهمال الإداري، والاجتماعي والأمني والفكري، لا نقول عن قصد وتبييت نية سيئة وإنما عن عدم وعي وعن بعدها عن مواطن القوي السياسية بدليل أنها لما ظُللت بظلال الأمن، وأحيطت بالرعاية الاجتماعية وقامت فيها المدارس، تغيرت من حالة الفوضى إلى حالة الأمن فالحاج يسعد لما يبلغ تلك الديار.

ويقول الشهاب ابن أبي حجلة في وادي الأُخيضر:

غرقت طعامي بالأُخيضرِ فاغتدى ... يكدر عيشي رملُهُ حين يركد

فما زالت الزرقاء يبيضُّ وجهها ... ووجهك يا وادي الأخيضر أسود[1]

والحقيقة إنها مهمهة بعيدة عن المياه وتكثير فيها العواصف لخلوها من الغابات، وقد استعاذ منها ابن بطوطة ولكنها في أقل من عشرين سنة تحولت إلى حدائق غناء، ومروج خضر، ومزارع للقمح والشعير، قريبة الماء، سهلة التكلفة، يبلغ قيمة المشروع فيها قبل استصلاحه أكثر من مليون ريال كل ذلك نتيجة قيام دولة راعية للأمن أولاً وللفكر ثانياً، وللبناء ثالثاً فلا حياة بلا نظام وأمن، وقد سعيت جاهداً للحصول على مشروع في تلك الناحية ودعم طلبي الأمير عبد المجيد أمير المنطقة في تلك الأيام ووكيله الأستاذ أحمد الخريصي لكن قريبي وصديقي مدير الزراعة أبى ذلك ومنحت على طريق الأردن فسبحان مقسم الأرزاق.

ووادي الأخيضر يبعد عن تبوك ثلاثين كيلاً ويقول فيه الصفدي:

عبرنا على وادي الأخيضر عندما ... حثثنا المطايا واطمأنت مواكبهْ

---

(١) الجزيري، الدرر الفرائد المنظمة ٢: ١٢٧٢، ١٢٧٣.

وأحسبُهُ أن كان أخضر إنما تلظى به ضَبٌّ فجفت جوانبه[1]

ويقول فيه:

لما ارتقى الرّكب من وادي الأخيضر في أمن ومنْ يُغَشَّي كل إنسان
لم نشك في سيرنا ضيماً ولا ظَمَأً وصاننا الله أنا ننزل الصّاني[2]

والذي يعبر الأخيضر الآن يلهج بالثناء والشكر للمولى سبحانه وتعالى على هذه النعمة التي أحيت ذلك الوادي، والذي يمثل مفخرة من مفاخر الدولة السعودية في استصلاح الأراضي ورعاية الوطن والمواطن وأعظم مجمع للماء في وادٍ يسمى الآن «وادي المعظم» يسيل فيه عدد من الأودية فهو يشبه السّد لأن المياه تستقر فيها زمناً طويلاً فلما حج المعظم أشرف الدين أبو الفتح عيسى بن الملك العادل سنة ٦١٠ هـ[3] أمر ببنائها وسميت ببركة المعظم. وقد زارها الشيخ الخياري عام ١٠٨٠ هـ فقال عنها:

«المعظم واد حلو ماؤه، متسعة أنحاؤه، قد اشتمل على قلعة عظيمة محكمة البناء، مبنية بالحجر المنحوت الأصفر المايل للحمرة، وبجانب القلعة من خارجها على يسار الداخل، وبركة ماء مربعة متسعة لم ترَ عيني قبلها في الكبر مثلها وربما يبلغ كل من طولها وعرضها مائتي ذراع بذراع العمل تخميناً وحدساً، وهي مبنية بالحجر من جنس ما بنيت به القلعة»[4].

وقال عنها النابلسي عام ١١٣٤ هـ: «فوصلنا إلى قلعة المعظم بصيغة اسم المفعول، وهي قلعة خراب لا يسكنها أحد من عسكر الشام، ولا غيرهم، وكان لها جماعة من عسكر الشام سابقاً ينظرون فيها، فنقب الأعراب عليهم حايطها، ودخلوا عليهم فقتلوهم، فتركوها ولم يسكنها أحد

---

(١) المرجع السابق ٢: ١٢٧٢.
(٢) المرجع السابق ٢: ١٢٧٢.
(٣) المرجع السابق ٢: ١٢٧٣.
(٤) الجزيري، الدرر الفرائد المنظمة ٣: ١٦٨٧.

بعد ذلك. . . وهناك بئر ماء فيه ماء كثير. . . ثم سرنا في ذلك الوادي الوعر الكثير الرمال، وذلك الطريق الضيق المحفوف بالجبال إلى أن دخلنا المكان المعروف بالصاني (   ) واد في غاية الصعوبة من كثرة الضيق والأحجار التي فيه والأوعار الصغار والكبار فتضج فيه الحجاج عند الحصول من الطلوع والنزول، فلم نزل فيه سايرين نحو ثلاث ساعات، ودخلنا في مكان تسميه العامة جناين القاضي وهي مكان فيه رمل ووعر كثير، وأشجار الغيلان المشوكة (الطلح) بحيث تعلق الثياب فيفنيها، والأحمال فيبليها، ويختطف العمايم عن الرؤوس، فيحترز فيه الرئيس والمرؤوس. . . ثم دخلنا في ذلك الوادي الكثير المضيق، الوعر الطريق حتى مضى من الوقت ثلاث ساعات فوصلنا إلى المنزل المسمى بالأخضر، ويقال له الأخيضر بالتصغير وفيه قلعة متينة البناء، لطيفة الفناء، يذهب في كل سنة إليها جماعة من عسكر الشام ينظرون فيها بركة الماء، خوفاً من الأعراب أن يستقوا منها، وهناك بئر عذب حلو بجانب البركة، وقد اشتهر أن هذا البئر حضره الخضر عليه السلام تزوره الناس فيتبركون به، ولذا سمي هذا المنزل بالأخضر أو الأخيضر. وذكر بعض الناس أن هذا البئر الذي هناك في أسفله نهر جاري واسع كبير وأيوانات على حافتيه، وقد شاهد ذلك بعضهم، وقد أخبر هذا الرجل الذي أخبرنا بأنه كان رجلاً شجاعاً فدفع إليه بعض العسكر الذي هناك مائه غرش لينزل إلى هذا البير، فربطوه بحبل وأدلوه إلى البير، فرأى هذا النهر، ورأى هذين الأيوانين، فخرج وأخذ المائة غرش، وأخبر بذلك، وهذه القلعة مبنية في آخر هذا الوادي قبل أن يخرج الإنسان إلى هذا الجانب، وفم هذا الوادي يسمى نقيب الأخيضر، فإذا خرج الإنسان منه فكأنه خرج من تحت الأرض إلى وجه الأرض وهو ثقب مهول تزدحم فيه الحجاج غاية الازدحام من شدة الضيق والوعر والأحجار في ذلك الطريق إلى أن صعدنا إلى فلاة واسعة، وفضاء جوانبه شاسعة. . . ثم سرنا نحو ساعة في ذلك السهل الواسع، وبركت جمال الحجاج نحو ساعة حتى يتكامل الخروج من هذا النقب النكود والعقبة

الكؤود ثم سرنا إلى أن وصلنا إلى المنزل المسمى بمغاير شعيب ولا ماء فيه فنزل الحجاج هناك ونزلنا معهم إلى أن صلينا صلاة العصر فركبنا وسرنا سير الهوينا إلى أن مررنا نصف الليل على مكان كثير الرمل بحيث يثور فيه الغبار بمشي أخفاف الإبل، وحوافر الدواب الكبار والصغار... ويسمى ذلك الوادي وادي الأثل، وأن غباره يتكاثف فيه فليس له مثل...»[1].

وقال عن تبوك: «ثم أشرفنا على قلعة تبوك في ذلك السهل الواسع ثم نصبت الخيام بقرب القلعة، ولم نجد أهل الملاقاة من جهة الشام وصل منهم أحد على خلاف العادة، فانحصر الحجاج من ذلك غاية الحصر. هذه القلعة عظيمة البناء، مشرقة الأرجاء، مشرفة على هاتيك الجهات والأقطار، وفيها بئر ماء من أعذب الآبار، ويخرج منه الماء بالدواب والدولاب إلى خارج القلعة والبركة في الخارج، وهي بركة كبيرة واسعة»[2].

وتستنبط من رحلة النابلسي هذه أن الحاج لم يتعرض لأي اعتداء من القبائل المحيطة بتبوك، وأن المعظم مملوء بالماء، وإن غابات كثيفة من (الطلح) شجر الغيلان كانت تكسو تلك الأودية وأن قلعة المعظم كانت موجودة قبل الحكم العثماني لكن يبدو أن العثمانيين قاموا بإصلاحات فيها لتشابه البناء مع القلاع العثمانية المتناثرة في المنطقة والتي تمّ عمرانها في عام ١٣٢٤ هـ كما هو مدون على قلعة الأثيلي التي تقع على الطريق للمعظم من تبوك.

وبركة المعظم ما زالت محتفظة بشكلها العام وهي أشبه بسد صغير

---

(١) النابلسي، الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز ٤٨٣، ٤٨٤. والمؤلف أشار إلى مكان يسمى (مغاير شعيب) وهذه التسمية تطلق على تلك الآثار في مدين (البدع الآن).

(٢) المرجع السابق ٤٨٤.

غير أن الطمر من الأتربة أخذ يتكاثر فيها. وطريق الحاج انحرفت عنها لأن الدرب البري المعبد اتخذ مساراً شرقياً ليمر بتيماء.

وبركة المعظم تستحق أن يبنى فيها سداً ضخماً، يؤدي إلى استقرار البادية، وإلى إعادة الغابات التي انقرضت وإلى تشجيع المزارع.

ونستنبط أن تبوك في هذه السنة لا أهمية لهـا فكان الكثيـر من أهلها مـرتحل عنها إمّا للحروب أو هجرتها القبائل لمتابعة مساقط المطر ومنابت الكلا، لأن النابلسي لم يتحدث عنها ولا عن عمرانها ولا مزارعها ولا تجارتها.

وأكثر من فصّل المراحل حول تبوك الزياني في سنة **١٢٠٨** هـ وذكر (عنيزة وعيون معان والعقبة ـ هي غير المدينة وإنما هي عقبة يتخللها الآن الطريق البري ـ والمدورة وهي قريبة من حالة عمار وكانت مركزاً للحدود الأردنية ولا زالت قريبة من حالة عمار وذات الحاج، والبوغاز الوعر ـ وهو مكان تحت الجبل يخترقه القطار، والدار الحمراء، ومداين صـالح البئـر الجديدة ـ وتسمى الجديدة)(١).

وقد سجل الرحالة تشارلز دوغتي سنة **١٢٩٣** هـ الأماكن التي يعبرها الحجيج فذكر (معان ـ بطن الغول ـ المدورة ـ ذات الحاج ـ تبوك ـ وادي المعز ـ الأخضر ـ الدار الحمراء مداين صالح ـ العلا)(٢).

وهذه الأماكن لا زالت معروفة ومحتفظة بهذه المسميات.

وفي أواخر العهد العثماني أعلن السلطان العثماني الرغبة في مد خط حديد الحجاز وقامت عـدد من الجمعيات لجمـع التبرعـات، ثم فرضت ضريبة على كل حاج في نفس العام واستمر العمل فيه لمدة ثماني سنوات وتتبع المراحل التي يمر بها طريق الحاج الداخلي أو الشامي الذي يمـر

---

(١) انظر: الزياني، الترجمانة الكبرى ص ١٨٦. بتصرف.

(٢) انظر: الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ص ١٧٣.

بمعان والمدورة وذات الحاج والمعظم وقد وصل أول قطار للمدينة المنورة عام ١٣٢٦ هـ. وقد قامت في تبوك ورشة لهندسة القطارات ودليل على أهميتها فإن الورش لم تُقم إلا في درعا ومعان وتبوك.

وقد كانت تبوك تستقبل كبار الولاة والأمراء وربما نالها بعض الإصلاحات منهم وقد زاد من أهميتها أن حجاج مصر اتجهوا إلى الخط الداخلي بعد أن سار القطار من الشام إلى المدينة المنورة وأقام فيها إسماعيل باشا عشرة أيام. واستمرت أهمية تبوك بعد انقطاع الخط الحديدي وتدميره.

حيث أولت الحكومة السعودية درب الحاج رعاية خاصة فرصفت الطريق البري الممتد من المدينة المنورة ماراً بتيماء إلى تبوك وكان من أوائل الخطوط المعبدة في المملكة، وكانت تبوك البوابة الرئيسية لاستقبال الحجاج من بلاد الشام وتركيا ومصر، وكانت تقام أسواق خاصة في تبوك للحجاج وفيها التبادل التجاري حيث يحمل الحجاج معهم كثيراً من البضائع ويشترون كثيراً، وأقامت الدولة السعودية مدائن للحجاج، ومراكز للصحة ومراكز اتصالات، وإسعافات أولية، ومراكز أمنية.

هاجس أمن الحج في الشعر

وأنت ترى أن هاجس الأمن للحج يتفاعل في ضمير الدول الإسلامية منذ العصور الأولى، وذلك لفقد أُسس المقومات له في الجزيرة العربية ومنها الأمن الشامل، فالدول تعرض عن الأرض والحياة البشرية لها إلا في زمن مخصوص هي أيام الحج فحسب، والدويلات الصغرى التي تحكم فيها يكون همها في المدن مثل مكة المكرمة والمدينة المنورة وكل منهما تستقل فيها دولة قائمة بذاتها، أو تظهر بعض الولايات، أو الإمارات في الأحساء أو الإمارات القبلية على الأطراف، ودرب الحاج يفتقد الأمن الذي يظل بظلاله الناس، وما دام افتقدوا الأمن وعاشوا في صراع قبلي، وفتك بهم الجوع مما جعلهم يعترضون القوافل التجارية، أو قوافل الحجيج، وفقدان الإصلاح العمراني، والأمني وإيجاد عوامل الاستقرار يؤخذ على الخلافة العباسية. سيما أن جذوره بدأت من عهد الرشيد حيث الاعتداء على قافلة حجه، ولأن العباسيين لم يتعهدوا الجزيرة مهبط الوحي بما ذكرنا بل اندثرت معالم قرى كثيرة ظهرت في عهد الخلافة الراشدة وخلافة بني أمية. فلو عملت الدولة على استتباب الأمن لتولد الاستقرار والاستقرار يبني الفكر والفكر ينشر الإيمان والوعي.

وكتب الرحلات تدعو بالويل والثبور على تلك القبائل وأصحابها يتنعمون في معية المحامل المحمية، ولم يفكر كل من الشامتين ولا

المسؤولين عن قيادة الحج ولا الدول الكبرى في كيفية القضاء على تلك الظاهرة المستديمة، وإنما رضوا بالاسترضاء المؤقت للقبائل على دروب الحج، وتعهد إليهم بحماية قوافل الحجاج بجعل معروف، يدفع لهم، وزيادة في الحيطة والحذر فإن قيادة عسكرية تصحب (محامل الحج) وكثير ما تتعرض تلك للنهب والسلب فقد انتزعت بعض القبائل ثياب الكعبة المشرفة من المحمل المصري، ولم تفد (الصرة)[1] التي يدفعها المماليك والعثمانيون للقبائل، لأن موجات القبائل الجائعة التي تصارع من أجل لقمة العيش لمّا ترى الثراء والمال فلا قدرة لها على امتلاك نفسها. ذلكم ما يتعرض له المحمل المدجج بالقوة العسكرية، فكيف بجموع المسلمين الذين يعبرون في قوافل صغيرة أو الذين يقطعون البيد سيراً على أقدامهم، ولا يملكون راحلة ولا مالاً ولا أمتعة، وهم يشبهون رجال القبائل في الفقر مما جعلهم في منجاة منهم، ولكن أين هم من مهالك الطرق، ومن وحوشه وسباعه، وبرد الصحراء وحرها. وكانت القبائل تطلق على هؤلاء (الدراويش) وهم من الصوفية فهم الذين يعذبون أنفسهم ويحتملون مثل هذا.

ولما جاء العهد السعودي في منتصف القرن الرابع عشر الهجري، وأدرك الملك عبد العزيز يرحمه الله، ويرحم رجاله وبطانته الخيرة. أنّ معالجة الأمر على النهج القديم لا ثمرة له، فلم يعط (صرة) أي مالاً للقبائل، وإنما أعلن الأمن أولاً، الأمن الشامل، فمن تعرض لإنسان من الداخل أو الخارج فالقصاص المباشر، أو حدّ الحرابة أو حدّ السرقة، فكان الأمن، ولو وقف عند هذا الحد لكانت المدة الزمنية للأمن محدودة وإنما بادر إلى القضية الكبرى، وهي الاستقرار فبناء الهجر قرب مواطن القبائل فاستوطنتها، وأقام البناء الفكري مصاحباً للتهجير وأسس المدارس، ومن

(١) في العهد المملوكي يسمى الدوك، وفي العهد العثماني يسمونها «الصرة».

تعلم حرفاً، عليه أن يعلمه لجمع من الناس، فانتشر التعليم في نواحي الجزيرة، وعمّ الأمن والاستقرار، ونما الفكر والوعي، فأصبح الحاج في أمن وسلامة، وخدمة وحماية، وحب وكرامة، وكان الشعراء من الأقطار الإسلامية يذهلون أمام الواقع الجديد فيسجلون إعجابهم بهذه الفضيلة الكبرى، ففي حج عام ١٣٤٩ هـ يسجل الشاعر المصري أحمد محمد الكناني:

عبد العزيز نشرت الأمن في بلد ... كانت نفوس البرايا فيه تنتهب
وقد أقمت حدود الله معتمداً ... على العدالة فارتاعت لها العصب
إذ ما رعوا حرمة البيت الحرام ولا ... خافوا الإله ولم تردعهم النوب
فأنت الذي لولاك ما أمن الـ ... حجاج بل أنت في الراحة السبب
صنت البلاد بعين منك فاعتصمت ... ممن يظنونها نهباً لهم نهبوا[1]

والشعراء من السعودية أخذوا يتغنون بظلال الأمن سيما أولئك الذين عايشوا اضطرابه والرعب المصاحب له، وعاشوا ظلاله الوارفة وأشهر أولئك الشاعر أحمد الغزاوي الذي يزخر ديوانه بسجل حافل لأعمال الخير: يقول في حج ١٣٥٢ هـ أي بعد عام واحد من توحيد البلاد:

فمن كان من قبل السعود وبأسه ... يُطيق بلوغ الحج دون تزلزلِ
ومن كان يستطيع المناسك آمناً ... على نفسه ما بين جمع وجرولِ
ومن كان في الرؤيا يُصدّق أنه ... يروح، ويغدو في أمان مخوّلِ
ومن كان يمضي في (الجزيرة) وحده ... بأزواد تبرٍ في سلام ممثلِ
ومن كان يأتي للحجاز وقلبه ... يُرجّى نجاة: من حمام مُعجّلِ
ومن كان لا تُغري الثياب بحتفه ... ولو هي ساوت نصف حبة خردلِ[2]

ويحج الشاعر العراقي محمد رضا الخطيب عام ١٣٥٤ هـ فيذهل من

---

(١) أم القرى ع ٣٣٣ في ١٣٤٩/١٢/١٣ هـ.
(٢) أم القرى ع ٤٧٤ في ١٣٥٢/٩/٢٦ هـ.

الواقع الأمني ويسطر ذلك في قصيدة طويلة منها: يخاطب فيها الملك عبد العزيز رحمه الله:

لقد وجدت فيك الجزيرةُ سيداً ... علاها على رغم الأنوف وسادها
وكانت مواتاً قبل ذاك وإنما ... أبو فيصل نحو الحياة أعادها
ليجعل فيها الأمن والعدل ظاهراً ... ويمحو بآيات الصلاح فسادها
بأحكامه للشرع جاء معززاً ... وتلك من الذكر الحكيم استفادها[1]

والغزاوي يلح على الحجاج بأن ينشروا ما رأوه من الأمن في بلادهم وأن يذكروا الحقيقة. يقول من قصيدة في حج عام ١٣٥٠ هـ:

نضحي في سبيل الله عنكم ... وندفع عن مصالحكم ذئابا
نذكركم وفي الذكرى انتفاع ... بحق يصدع الصم الصلابا
وقول ٍ من صميم القلب فصل ... تطامن بالمودة واستطابا
حللتم في مغانينا سروراً ... ونلتم من أمانيكم رغابا
بأمن ٍ لا نظير له بأرض ... وعدل يوسع الجاني عقابا
وكان الجمع قبل اليوم يخشى ... من الفرد المناهل واليبابا
فهل حدثتموا بالصدق عما ... رأيتم: أم أحالوه آرتيابا[2]

---

(١) أم القرى ع ٥٨٨ في ١٣٥٤/١٢/١٩ هـ.
(٢) أم القرى ع ٣٨٣ في ١٣٥٠/١٢/٧ هـ.

الفصل الثاني

تبوك المعاصرة

- التنظيم الإداري.
- أمراء تبوك.
- التطور العمراني.
- التطور الزراعي.
- التطور التجاري.
- الإدارات الحكومية.
- الحياة الاجتماعية.
- الجمعيات الخيرية.

التنظيم الإداري

الأجهزة التنفيذية في تبوك، ومنطقتها، قد واكبت النمو الإداري في المملكة، وأخذت تتنامى قدرات الإدارات، وهياكلها، وتكوينها، ويُشرع في افتتاح وإنشاء أجهزة تنفيذية أخرى كلما دعت الحاجة إلى ذلك وقد تكاملت الإدارات الحكومية في تبوك؛ فهناك الإمارة تأسست عام ١٣٤٦ هـ، والمحكمة الكبرى تأسست عام ١٣٥٤ هـ، والمديرية العامة للشرطة، ومديرية البلدية، مديرية الدفاع المدني، إدارة المرور، إدارة السجون، إدارة مكافحة المخدرات، فرع وزارة العدل الجوازات، الأحوال المدنية، إدارة التعليم للبنين، إدارة تعليم البنات، المديرية العامة للشؤون الصحية، الأشغال العامة، مكتب العمل والعمال، الخطوط السعودية، مكتب اتصال وزارة الداخلية، الاتصالات السعودية، البنك الزراعي، مديرية الزراعة والمياه، ديوان الخدمة المدنية، رعاية الشباب، مكتب مكافحة التسول، الضمان الاجتماعي، مؤسسة النقد، صندوق التنمية العقارية، بنك التسليف السعودي، المباحث العامة، الاستخبارات العامة، فرع وزارة التجارة، الغرفة التجارية الصناعية، إدارة المطبوعات، هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التأمينات الاجتماعية، فرع وزارة المالية والاقتصاد الوطني، الأوقاف، إدارة الطرق، مركز المعلومات، إلى جانب الجهاز الإداري الضخم الذي ينظم تنفيذ الإدارة في المدن العسكرية.

أمراء تبوك

بعد أن توحدت البلاد في ظلال العهد السعودي بعث الملك عبد العزيز رحمه الله بأول أمير هو:

١ ـ محمد بن شهيل ١٣٤٦ هـ، وقد استوطن قلعة تبوك وهي الدار ومقر الإمارة.

٢ ـ عبدالله القنب.

٣ ـ محمد الحميد.

٤ ـ سليمان بن سلطان.

٥ ـ سليمان ابن خرينق.

٦ ـ الأمير سعود بن هذلول آل سعود.

٧ ـ عبدالله السديري.

٨ ـ عبدالله بن محارب.

٩ ـ الأمير خالد السديري.

١٠ ـ الأمير مساعد السديري.

١١ ـ سليمان تركي السديري.

١٢ ـ صاحب السمو الملكي الأمير عبد المجيد بن عبد العزيز آل سعود.

١٣ ـ صاحب السمو الملكي الأمير ممدوح بن عبد العزيز آل سعود.

١٤ ـ صاحب السمو الملكي الأمير فهد بن سلطان بن عبد العزيز آل سعود.

وهؤلاء وغيرهم من رجالات الدولة خدموا المنطقة خدمة بارزة وقدموا

العطاء وبذلوا الجهد. غير أننا نتحدث عمن رأينا لهم أثراً كبيراً وواضحاً في تبوك ومنطقتها وهم:

الأمير خالد أحمد السديري:

تسلم إمارة تبوك في عام ١٣٦٧ هـ ١٩٤٧ م وخالد السديري رجل له مكانته لدى الأسرة السعودية الحاكمة وقد استطاع بحنكته وحكمته أن ينال رضا الأهالي والقبائل المجاورة، ومن المحامد التي تؤثر له تشجيعه للهجرة من البادية إلى الحاضرة عن طريق إلحاقهم بالوظائف الحكومية وتوزيع الأراضي السكنية وافتتاح المدارس.

وفي عهدة تطورت مدينة تبوك وانتقلت من قرية صغيرة إلى مدينة نامية حيث قام بتخطيطها وتوزيعها، ومن الأحياء التي رأت النور في عهده الخالدية وسميت باسمه.

ويمتاز تخطيطها باستقامة مساراتها وتناسقها، وكذلك المنشية، وبنى دار الإمارة القديمة الذي عُوض بمبنى حديث، ومن آرائه أن تكون مدينة تبوك قاعدة عسكرية لتوسطها وربما استلهم الفكرة من أن مدينة تيماء كانت أول خط تموين وحماية يدعم الجيوش الإسلامية في عهد أبي بكر رضي الله عنه نظراً لتوسطها وبعدها عن الحدود المباشرة.

وقد أنصف صاحب أرض الأنبياء الأمير خالد حين قال فيه: (وإلى خالد هذا تدين مدينة تبوك بما تتمتع به حالياً من تقدم وثراء نسبي). وفي عهده تم افتتاح أول مدرسة أهلية لتعليم البنات عام ١٣٦٩ هـ وظل أميراً حتى انتقل وزيراً للزراعة عام ١٣٧٦ هـ ثم أميراً لنجران حتى توفي في عام ١٤٠٥ هـ رحمه الله.

الأمير عبد المجيد بن عبد العزيز:

ولد بمدينة الرياض في عام ١٣٦٢ هـ وتلقى علومه الأولى بمعهد الأنجال بالرياض وتربّى تربية إسلامية على أيدي كبار العلماء، وقد سمع

ورأى من مدرسة والده العملية وهو على قدر كبير من الثقافة والمعرفة والوعي والحكمة والأناة يتسم بالوقار وهدوء الطبع عُين أميراً لمنطقة تبوك في عهد الملك خالد بن عبد العزيز رحمه الله حيث صدر المرسوم الملكي في ٢/٥/١٤٠٠ هـ.

وبتوليته الإمارة شهدت تبوك عهداً جديداً حيث قام بتقديم الخطط الفعالة لتطوير المدينة وقنع بها المسؤولون في الدولة الرشيدة وأخذت تدعمه، ونفذت كثيراً من الطرقات الفسيحة داخل المدينة وعند مخارجها والطرق التي تربطها ببعض من مدن المنطقة، وقامت كثير من المتنزهات والنوافير والمعالم الجمالية. وشُيدت الأسواق التجارية، وأنشئت عدد من الجمعيات الخيرية والجمعيات التجارية والزراعية، وظل يواصل مسيرة التقدم والتطور ويتعهد مدينته تبوك التي يعشقها ويحبها ويميل إليها حتى بعد انتقاله إلى إمارة منطقة المدينة المنورة في ١٥/٥/١٤٠٦ هـ.

الأمير ممدوح بن عبد العزيز:

ولد في مدينة الرياض عام ١٣٦٠ هـ وتلقى تعليمه في مدارس الأنجال، وصحب والده وأخذ عنه، ثم واصل تعليمه حتى تخرج من الجامعة عام ١٣٩٧ - ١٣٩٨ هـ ثم التحق بالدراسات العليا ونال درجة الماجستير من جامعة الملك عبد العزيز بجدة قسم التاريخ، وسجل رسالة الدكتوراة في جامعة الإسكندرية بمصر.

تولى إمارة منطقة تبوك بموجب المرسوم الملكي المؤرخ في ١٨/٥/١٤٠٦ هـ وقد تولى تنفيذ المشاريع، وبادر إلى معرفة الشرائح الاجتماعية والتقى بفئات الأهالي فجعل يوماً للقاء المفتوح، وآخر للجامعيين، وآخر لرجال الأعمال وأصدر تعميماً بالتزام اللغة العربية الفصيحة والصحيحة في جميع الرسائل الرسمية مما أحدث توعية لغوية.

قام بتأسيس بعض الجمعيات وقام بزيارات وجولات متعددة على

المدن التابعة للمنطقة، وله كثير من الطموحات التي دأب على تنفيذها، ثم صدر القرار بانتقاله إلى مجلس الوزراء برغبة منه.

الأمير فهد بن سلطان بن عبد العزيز آل سعود:

ولد في مدينة الرياض عام ١٣٧٠ هـ ١٩٥٠ م وتلقى تعليمه في مدارس معهد العاصمة النموذجي. والتحق بجامعة الملك سعود ونال درجة بكالوريوس في التاريخ عام ١٣٩٠ - ١٣٩١ هـ، وعمل في وزارة العمل مديراً الإدارة والبحوث ثم مدير عاماً للرعاية الاجتماعية، فوكيلاً للوزارة لشؤون الرعاية الاجتماعية.

ولما باشر العمل في منطقة تبوك أميراً لها قام بجولات تفقدية على الإدارات الحكومية هادفاً إلى معرفة القدرات والإمكانات ورفع مستواها وباحثاً عن أوجه النقص ليمد يد العون والمساعدة مولياً المشاريع كل جهده وطاقته ودعمه المتواصل. وقد عمد إلى وضع خططاً لتطوير تبوك ومنطقتها وقد تبين له الأمور الآتية:

* التقدم والبناء والتطور الذي شهدته المنطقة مع مثيلاتها من مدن المملكة يحتاج إلى قدرات إدارية لتحفظ له البقاء والثبات وربما فاقت البناء والتأسيس مثل إيجاد ما يحمي الأحياء القائمة من المصارف الصحية ويحل قضيتها غير المستعصية، وقد وعد سموه بسرعة إنجازها وما لبث أن صدر أمر سامي بتنفذ المشروع وهو الآن في حالة التنفيذ.

* وكذلك تواصل التقدم العمراني الذي تتنامى الحاجة إليه في تبوك ومنطقتها أمر له دوره الفعال، ومسؤوليته الكبرى من حيث التخطيط أولاً ثم التنسيق، وإيجاد الموارد.

* وتبوك مزرعة المملكة العربية السعودية في منطقتها الشمالية والجميع في بلادنا يدرك بحمد الله ما تحتاج إليه الزراعة وما هي إلا كبرى مسؤوليات الأمير فهد بن سلطان في المنطقة ولن يكتب لها الازدهار إلا

ثم إدارة الشـرطة، ثم الـدفـاع في عـام ١٣٥٦ هـ ويسمى الجيش النظامي ووزارة الدفاع الآن وهو من أعظم عوامل التطوير في مدينة تبوك.

التطور العمراني

النهضة العمرانية التي أطلت تباشيرها عام ١٣٥٠ هـ والتي تلألأت بفعلها المدن في أرجاء الجزيرة العربية بفيض من عطاء بلادنا والحمد لله وتعاون الأشقاء وتآزرهم وتعاضدهم، تلك النهضة كان لتبوك ومنطقتها النسبة المعادلة مع شقيقاتها من مدن المملكة العربية السعودية ونحن نستقرىء التطور المتواصل لمدينة تبوك من خلال الواقع الذي تزدهر به تبوك. فقد تميزت تبوك بأهمية خاصة في العهد السعودي وكان لتناميها علاقة حميمة مع التطور الكبير لقواتنا المسلحة بقيادة الدولة الرشيدة، وتنفيذ صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبد العزيز وزير الدفاع والطيران والمفتش العام والنائب الثاني لمجلس الوزراء، فإن هذا الرجل لم يفض عطاؤه وخيره على المدينة العسكرية ورجالها فحسب ولكن زياراته المتتابعة لمدينة تبوك كان لها الأثر الأكبر على تطور المدينة، ولا سيما أن سموه رعاه الله أخذ يتعد تبوك من عام ١٣٨١ هـ الأمر الذي جعل له مكانة خاصة بين أهالي تبوك.

وكان إشراف سموه وتنفيذه لبناء المدينة العسكرية في تبوك وما صحبها من حركة تجارية وعمرانية وتقنية، كانت عوناً كبيراً في تقدم مدينة تبوك وازدهارها، فالمدينة العسكرية والقاعدة الجوية ومدرسة المدرعات، وغيرها من العمران الذي يلحق بالمدينة العسكرية جعلها درراً تتلألأ في أفق سهل مدينة تبوك، فهي مدينة كبيرة قائمة بذاتها مزدهية بحدائقها، رائعة بجمالها، تجوبها المسارات ذات التخطيط الجميل وتحلق في سمائها معالم

جمالية، وتصطف في معابرها أطايب الأزهار وأروع الأشجار يتخللها النخيل المصحوب بالرعاية التقنية.

أحيـاء تبـوك:

١ ـ البلدة القديمة: ومنها القلعة وما حولها من مبان كانت تُبنى من الحجارة والطين ومن معالمها (مسجد التوبة) الذي صلى الرسول ﷺ فيه، وفيها العين المباركة، إضافة إلى القلعة المشهورة وتتخللها جادة سمو الأمير فهد بن سلطان أسواق تبوك القديمـة. وكانت أسـواق المواشي قـريباً من القلعة، وقد أدركت ذلك. يليها من الشرق الأسواق التجارية الأخرى وعند طرق الأسواق من الجهة الشرقية الجنوبية قام مبنى الإمارة، وقريباً منه إلى الشرق مسجد الملك سعود وإلى الجنوب من المسجد قصر الأمير.

٢ ـ أم درمان (النزهة). ٣ ـ الجُديدة: حيان صغيران تكثر فيهما المباني القديمة من الطين، ويبدو أنهما أول حيّين بعد البلدة القديمة، وربما أنهما مساكن لمن يعمل بسكة الحديد، وصيانـة محطتهـا، وحراسـة المنشآت فيهـا وأسر الحـامية التركية.

٤ ـ المنشيـة: وهي الحي الحديث في تبـوك القديمـة ويمتـد من شمالها الشرقي إلى جنوبها الشرقي، وقام الأمير خالد بن أحمد السديري عام ١٣٦٩ هـ بتوزيع الخالدية التي سميت باسمه وهي ذات تخطيط منظم تقع جنوب البلدة القديمة وتبلغ مساحة هذه الأحياء ٦كم^{2}.

٥ ـ حي العزيزية: حي العزيزية يمتد بمحاذاة السكة الحديدية من الشرق وينقسم إلى قسمين العزيزة القديمة من الجهة الشمالية، والجديدة من الجنوبية.

٦ ـ حي المنتزه: بجانب الهضبة جنوب الخالدية.

٧ ــ حي الشيخ: نسبة للشيخ (صالح التويجري) الذي مكث قاضياً في تبوك ٢٦ عاماً.

٨ ــ حي البساتين: يقع في جنوب غرب تبوك، وهذه الأحياء نشأت على أنقاض بساتين ومزارع نخيل على مساحة ٧ كم٢ تقريباً. وهي أحياء شعبية لا تخطيط لها مزدحمة بالسكان، غير أن البلدية أخذت تُعنى بها أخيراً.

ثم انطلقت النهضة العمرانية في عام ١٣٩٥ هـ وزاد من وهجها تبني الدولة لها بتوزيع قروض الإسكان (البنك العقاري) الذي يدفع لصاحب الأرض دفعة أولى فإذا ثبتت جدّيته على مواصلة العمران فيدفع إليه قسطاً

أكبر وهكذا يتزامن الدفع مع البناء حتى يكتملا ثم يعيدها المواطن على أقساط مريحة لمدة خمسة وعشرين عاماً.

وقد ضاقت الأحياء القديمة بالسكان، فوزعت البلدية أراضي سكنية.

٩ ــ هي حي الفيصلية: التي تمتاز بسعة أراضيها ٣٥ × ٤٠ تقريباً والفيصلية كونت ثلاثة أحياء تمتد من الجنوب إلى الشمال ومقسمة إلى (أ ـ ب ـ جـ).

١٠ ــ حي المهرجان: ويسمى بذلك لقيام الاحتفال الكبير لاستقبال الملك فيصل رحمه الله لما زار تبوك عام ١٣٩٣ هـ وهو من الأحياء التى وُزِّعت أراضيه منحا وينقسم إلى (أ) و(ب) ويتوسطهما حديقة الملك عبد العزيز الكبرى التي أنشئت فيها المكتبة النسائية.

١١ ــ حي سلطانة: الذي وزع على منسوبي الدفاع، فسميت باسم وزير الدفاع سمو الأمير سلطان بن عبد العزيز، وهي في الجهة الشرقية.

١٢ ــ حي السليمانية: بمحاذاة سلطانة إلى الشمال.

١٣ ــ حي الورود: إلى الشرق وهو أحدث الأحياء، وتبلغ المساحة الكاملة للفيصلية وحي المهرجان وحي سلطانة، والسليمانية والورود ٣٠ كم ٢.

١٤ ــ حي السعادة: في الجهة الغربية من تبوك القديمة.

١٥ ــ حي الصناعية: في الجهة الغربية من تبوك القديمة جنوب حي السعادة ومساحة حي السعادة والصناعية ٥ كم٢.

١٦ ــ حي النهضة: على طريق ضبا في الجهة الغربية من تبوك ٤ كم٢.

١٧ ــ حي الصالحية: يسير امتداد لحي الفيصلية يفصل بينهما طريق حالة عمار وهي في الجهة الغربية وفيه الأسواق المركزية للخضار والفواكه ويحده من الغرب خط السكة الحديدية ومساحته ٤ كم٢.

١٨ ــ حي العليا: يقع جنوب تبوك قريباً من المدينة العسكرية والمطار، وهو أحدث الأحياء وتبلغ مساحته ٤ كم٢ تقريباً.

١٩ ــ حي المصيف: الممتد شرق طريق حالة عمار وبمحاذاته من الغرب حيان جديدان وقد رصفت طرقاتها ووضع عليها القار وتمت الإنارة وقد بدأ العمران فيها وتبلغ مساحتها جميعاً ١٢ كم٢.

الأحياء الشعبية التي قامت على أنقاض بساتين زراعية:

٢٠ ــ حي الرحيل.
٢١ ــ حي الشيخ كريم.
٢٢ ــ حي أبو سبعة.
٢٣ ــ حي الرويعيات.

وهذه بطون من قبيلة بني عطية لهم مزارع في تلك الأراضي قديماً وحولوها إلى مساكن وسميت بأسمائهم. والأحياء متجاورة في الجهة الغربية

الجنوبية لتبوك وقد رصفت شوارعها ووضع عليها القار، وأنيرت طرقاتها وتبلغ مساحتها ٦ كم^{2}.

٢٤ ـ المدينة الصناعية: وأسواق الأنعام في الجهة الشمالية الغربية من تبوك تبتعد عنها قليلًا، قريباً من (دمج) وتبلغ مساحتها ٥ كم^{2}.

ونحن إذا أضفنا المخططات التي بدأ فيها العمران المصيف والحيين المحاذيين له ومساحتهما ١٢ كم^{2} فإن مجمل المساحة العمرانية ٨٣ كم^{2} فإذا ضممنا إليها المساحة العسكرية التي تحتل المنشآت فيها ٣٠ كم^{2} تقريباً فإن المساحة العمرانية في مدينة تبوك كاملة ١١٣ كم^{2}.

إسكان قوى الأمن الداخلي بتبوك:

في ظلال حكومة خادم الحرمين الشريفين وولي عهده الأمين ورعايتهما للفرد السعودي ولا سيما حراس الأمن ورجاله فإن إنجازات الخير تتوالى لدعم قوات الأمن الداخلي بتسخير الوسائل المادية لدعم القوة البشرية ولتكون عوامل مساعدة لها لتأدية واجباتها ومسؤولياتها.

ووفقاً للتوجيهات السامية فقد قام صاحب السمو وزير الداخلية وسمو نائبه بتنفيذ برنامج الإسكان استجابة لاحتياجات الأمن في ربوع البلاد وليكون وسيلة رئيسية لتجسيد سياسة وزارة الداخلية لدعم النواحي الاجتماعية والتعليمية.

ويعتبر مشروع إسكان قوى الأمن الداخلي بتبوك أحد المشاريع التي تم إنجازها حديثاً وسيوفر هذا المشروع إسكاناً لحوالي ثلاثة آلاف وخمسمائة نسمة في ٥٧٦ فلة سكنية. يقع المشروع على مدخل مدينة تبوك من الجهة الشمالية قرب مدينة الملك فهد الرياضية وتبلغ مساحة الأرض المخصصة للمشروع مليون متر مربع، شيد المشروع على جزء كبير منها كمرحلة أولى. وقد وزع المشروع الذي تبلغ مسطحات مبانية أكثر من ١٥٦ ألف متر مربع إلى حي كبير يحتوي بالإضافة إلى الفلل السكنية

مسجد جامع ومدرسة للبنين ومدرسة للبنات وروضتين للأطفال ونادي وصالة احتفالات ومركز صحي ومركز تجاري وأسواق ومبنى للإدارة وآخر للخدمات من مياه وكهرباء وهاتف.

وقد بلغت التكاليف الإجمالية للمشروع (٥٤٠) مليون ريال سعودي واستغرق تنفيذ المشروع أربع سنوات. وروعي في تخطيط المشروع توفير بيئة سكنية مريحة وجذابة حيث قسم المشروع إلى مجموعات من الفلل تطل على مساحات مرصوفة ومضاءة مع توفير حركة مشاة وحركة سيارات وتفادي تعارضها، وقد تم تصميم الفلل السكنية والمباني العامة لتلائم طبيعة الحياة الاجتماعية وعادات المملكة العربية السعودية وجميع الفلل المباني مفروشة ومؤثثة بالكامل.

كما تم توفير الخدمات العامة داخل المشروع من شبكات للمياه تغذى من بئرين ارتوازيين داخل الموقع بعد تنقيتهما، أما شبكات الكهرباء فتُغذى من شركة كهرباء تبوك. ويُغذى المشروع بالخدمة الهاتفية من مدينة تبوك هذا بالإضافة إلى شبكات للصرف ومحطة لمعالجة مياه الصرف الصحي حيث تستخدم المياه المعالجة لري الحدائق والأشجار في الطرقات.

وقام مكتب التخطيط الشامل لمنطقة تبوك بدراسة الخصائص الإسكانية وعدد أنماط الوحدات السكنية وهي:

١ ــ الطراز العربي القديم فالبيت مكوّن من دور واحد، متعدد الحجرات يراعى في تفصيله قسماً للرجال وقسماً آخر للنساء ويغلب أن يكون له مدخلان أحدهما للرجال والآخر للنساء، ويغلب أن يكون من الطين قبل عام ١٣٩٠ هـ ولكنه بدأ يتحول إلى الطوب الأسمنتي حتى اختفى الطين تماماً من مدينة تبوك.

٢ ــ ثم جاء عهد الفلل المكونة من دورين من الخرسانة والطوب

الأسمنتي، ويكتفي صاحب الفلة بالإقامة في الدور الأرضي، ويحاول أن يستثمر الطابق العلوي حتى إذا ما زاد عدد أسرته استوطنه كاملاً وهذا اللون يغلب على جلّ المنازل السكنية في تبوك.

٣ ـ وقد شُيِّدت المباني المتعددة الأدوار التي تتكون من شقق حيث يُوزّع كل دور إلى أربع وحدات أو ست أو ثمان وهذه المباني تتكون من ثلاثة أدوار أو أربع أو ست إلى ثمانية أدوار.

إلى جانب بعض القصور الحديثة للأثرياء والوجهاء في البلد وقد بُني بعض منها في المزارع القريبة.

الـزراعـة

إن الذي يجوب أرجاء الجزيرة، ويرى الأشكال الأسطوانيـة الفضية تسطع يتذكر قول حسان:

لنـا الجفنـان الغـر يلمعن في الضحى وأسيـافنـا يقـطرن من نجـدة دمـا

ونحن نقول لنا الصوامع البيض يشرقن في الضحى ويضئن في الليل وتشع الحياة في دياجي الفقر بين الربوع الإسلامية.

إن النهضة الخضراء التي تشهدها بلادنا الحبيبة، والتي بسطتها دولتنا الرشيدة على أرضها بقوة الإرادة، وجدية العزيمة، ومصداقية العطاء، وعمق التفكير، وقدرة التخطيط.

إن هـذه النهضة الخضـراء التي نعـدهـا معلمـاً من معـالـم العصـر الحديث، فالناس إذا ما ذكـرت الصناعـة، فإنهم يـولون وجـوههم حيث اليابان، وبدأت النظرات تحدق إلى بلادنا العزيـزة فإذا ذكـرت الزراعـة، والتغذية الإنسانية فإن الناس سينظرون إلينا نظرة إعجاب وتقدير.

والزراعة في بعض البلاد تقترن بالفقر لاعتبارات كثيرة، وتشيـر في بعض البلاد إلى الغنى والاقتصاد المزدهر، فإذا ما كانت الزراعة معتمدة على العلم والتقنية، والأبحاث المتواصلة، فإنها تؤدي إلى الرفاهية، والنماء الاقتصادي للفرد والدولة معاً، لأنها تعتمد على غزارة الإنتاج، وانخفاض التكلفة، ونحن لو نظرنا إلى رقعة المساحات المزروعة في آسيا وإفريقيا

لاعتقدنا أنها تعادل ١٥٠٪ أو أكثر من المساحات الزراعية في أمريكا وأوروبا ولكن ما زالت أمريكا الإمبراطورية الكبرى للقمح.

وربما إن تقدم أمريكا كان السبب في تردد الشائعة التي تتضمن عدم قدرة العالم الثالث على استيعاب الانتاجية الزراعية وتقنيتها، وتعليميتها وخبرتها ومن ثم لن يكون النتاج بقدر النتاج في الدول المتقدمة، لذا فإن المزارعين في العالم الثالث هم الفقراء، ومزارعي العالم الصناعي هم الأغنياء، وهذه الفكرة يرددها خبراء الدول المتقدمة وأخذها مثقفوا العرب قضية مسلمة لا ريب فيها.

ومن نتائج النهضة الزراعية في المملكة العربية السعودية تحطيم هذه المسلمة. فالزراعة إذا رعتها الدول، واستقطبت المجتمع ليكون عاملاً منتجاً رابحاً مستفيداً، فسيكون العطاء والنماء.

والمزارع السعودي اعتمد على أدق التقنيات وأحدثها، وقد استفاد أيضاً من تجربة أعظم المزارعين في أمريكا وليس في ذلك من ضير ولا غضاضة، فإن أمريكا تتلمذ الآن على الحركة التعليمية في اليابان، وقبل هذا وذاك فإن الحكمة ضالة المؤمن، وهذا يثبت بطلان الاعتقاد السائد أن العالم الثالث له ظروفه التي لا تناسب الأخذ بالتقنية، لأن الاشتراك في كل ما يلائم العقل ويتولد عنه، وما ينسجم مع الإنسان وإنسانيته، صالح للفرد والمجتمع في كل زمان ومكان قابل للتكيف والتعديل في اتجاهه.

والتقدم الزراعي في بلادنا يحتاج إلى المزيد من الرقابة والمتابعة التي تلتزم الدراسة الميدانية، ومحاولة المعالجة بدأ من حفر الآبار والآلات وإصلاحها، ومعرفة خصائص التربة، ونشر الوعي الشعبي الزراعي، وكل ما يتضمن التواصل لتنامي الزراعة واستمراريتها، وتفوقها، وهذا ما تعمل به وزارة الزراعة فقد أصدرت كثيراً من النشرات وهناك عدد من مراكز الأبحاث ولكن نطلب المزيد منها والمختصة لمعرفة خصائص كل منطقة.

وفي بداية النهضة الزراعية أخذ الكثير يسرد العقبات التي سوف تعترض المزارع السعودي، مثل صعوبة الأرض وصحراويتها، وعمق المياه، وكلفة استخراجها والاستفادة منها، ولكن كل أمر في حياة الإنسان يقوم على الكَبَدِ، والمعاناة لكي يتاح لعقل الإنسان التصدي لها وتذليلها، وقد واجهت أوروبا العديد من المشكلات، وعدم الخصوبة في أرضها في بداية النهضة ولكنها مع ذلك تنامت زراعتها وانتاجها بفضل التقدم العلمي والتقني حيث تفتق الفكر الإنساني عن العوامل المساعدة على تسخير الأرض وتذليل العقبات.

والزراعة في تبوك تتمثل فيها أغلب الصعوبات ومع ذلك فإنه لا جدال بأن تبوك والقرى المجاورة لها صالحة للزراعة حيث توجد مقومات الزراعة من التربة الخصبة والغزارة في المياه، وسهولة المواصلات، وأشار المؤلفون القدامى إلى مكانتها الزراعية وخير دليل بقايا الجداول في آثار (رجوم شوهر) والجداول في (قُريّة) إلى جانب الجداول المائية حول التلال المتفرقة في تبوك وعلى ضفاف الحواجز الصخرية الممتدة من رايس حتى العجيجات، وغيرها الكثير.

أما الدراسات الحديثة حول الزراعة في تبوك فإنها أثبتت فاعليتها وجدواها الاقتصادية وقد بدأ النشاط الزراعي الحديث في تبوك عام ١٣٧٨ هـ غير أن الذي قام بالزراعة نفر محدود، ومنهم من استثمر الأرض الزراعية، فوزعها إلى أرض سكنية، وباعها كمثل حي المنتزه وحي البساتين تلك المرحلة الأولى. أما المرحلة الثانية، فهي توزيع أراضي دمج على المواطنين ولكن نظراً لصعوبة استخراج المياه، وكثافة الأتربة المتنقلة، وعدم وجود التقنية، والتوجيه والإرشاد وزاد الأمر أن الأرض وزعت على فقراء ولم يُختار المكان المناسب الصالح للاستثمار واقتصر نجاحها على أفراد محدودين رغم إقبال الأهالي وتنافسهم وبذلهم ما يملكون.

أما المرحلة الثالثة فهي مرحلة الانطلاقة الزراعية، حيث قامت على

دراسة مستفيضة من الدولة ممثلة في وزارة الزراعة، واعتمدت على الدعم المادي والتقني من الدولة، والقروض الوافرة من البنك الزراعي، ووضع حوافز وضوابط كان لها دورها الفعال في نجاح الزراعة في منطقة تبوك.

وتطورت الزراعة في المنطقة تطوراً كبيراً، فشهدت نهضة زراعية، وإقبالاً من المواطنين، فازداد عدد المزارعين حتى بلغ أكثر من خمسمائة مزارع في مساحة تقرب (٤٠٠٠٠) دونم أغلبها مزارع حديثة لا تقل عن مائة دونم، وما زال النمو والتطور، والتفوق الانتاجي، وحسن تدبير المياه والاستفادة من الأرض، وتسخير التقنية الحديثة الزراعية في تنامي مستمر.

والمزارع الحديثة استهلت زراعتها بالتنقيط وتحولت أغلب المزارع القديمة إلى الأساليب الحديثة واعتمدت مزارع الحبوب على الري المحوري.

وقد اهتدى المزارعون إلى استخدام البيوت الجاهزة البلاستيك لحماية المحصولات التي لا تتحمل التقلبات الجوية من أشجار خضار وفواكه، وهي مكيفة صيفاً وشتاء، ويبلغ عدد بيوت (الفيبروجلاس) في مدينة تبوك أكثر من مائتي بيت.

وفي تبوك عدد من المزارع المتقدمة كمزرعة (أسترا) الواقعة بين تبوك والبئر على طريق حالة عمار، وتعتمد اعتماد كلياً على التقنية الحديثة والدراسات المعملية، والخبرات المتطورة، لذا فإن نتاجها في درجة عالية من التفوق والجودة والغزارة، وقد عرف عنها تصدير الزهور التي طرحت في أسواق الخليج ودول أوروبا، وكذلك اشتهرت بالخيار التبوكي، والبرتقال الذي يسمى (المندلينا) وغيرها من الفواكه والخضار، وأخذت في تصدير عسل النحل كما لديها مزرعة لتربية المواشي وتسمينها تفيض على مدينة تبوك، وتغطي احتياجات المدينة العسكرية، وقد قامت بتربية طيور السمان وتوزيعها في الأسواق المركزية بمدن المملكة العربية السعودية.

وهناك مزارع أخرى لها دورها الكبير في تصدير الشمام والطماطم، واشتهر الشمام التبوكي بمذاقه الحلو حتى أصبحت الثلاجات السيارة تنقله إلى المنطقة الغربية والشرقية.

أما المشاريع الزراعية فهي تمثل الحضارة الزراعية ولا أقول النهضة الزراعية وكان لاتساع السهول في أحضان تبوك دوره الفعال في نجاح المشاريع الزراعية من القمح والشعير والأعلاف، وتربية المواشي، وتصنيع وتعليب الألبان، وقد شيدت وزارة الزراعة الصوامع في مدينة تبوك لتخدم الإنتاج وتستقبله، وتوفر مؤنة النقل على مزارعي المنطقة الأمر الذي دفع بالمزارعين والمواطنين إلى مضاعفة الجهد ومما يدعو إلى الاطمئنان انتشار الوعي الزراعي، ورواج الثقافة بمقوماتها، حتى أصبحت ثقافة شعبية.

ويبلغ عدد المشاريع في منطقة تبوك أكثر من (٣٢٢) مشروعاً زراعياً مساحة كل مشروع أربع كيلو متر موزعة في منطقة تبوك وحظ تبوك منها (٢٢٤) مشروعاً، منها ما يختص بالدجاج البياض واللاحم وتسمين الأغنام وتربية الأبقار، وتبلغ المساحة ما يزيد على (١,٧٠٠,٠٠٠) دونم.

شركة تبوك للتنمية الزراعية:

الموقع: تقع الشركة شمال تبوك على بعد أربعين كيلاً متراً بمحاذاة الطريق البري الدولي إلى الجهة الغربية منه.

وقد أنهت شركة تبوك للتنمية الزراعية موسمها السادس في زراعة القمح فأصبحت إنجازاتها كما يلي:

١ ــ حفر ١١١ (مائة وأحد عشرة) بئراً.

٢ ــ تركيب ٢٠٠ (مائتين) رشاش محوري يروي الواحد منهم ٥٠ (خمسين) هكتاراً.

٣ ــ تركيب ٣ (ثلاثة) أنظمة ري طولية يروي الواحد منهم ١٢٥ (مائة وخمسة وعشرين) هكتاراً.

٤ ـ تسوير أرض المشروع بشبك يزيد عن ١٠٠ (مائة) كيلومتراً.

٥ ـ تهيئة مساكن للعاملين بالمشروع بطاقة استيعابية قدرها ١٣٠ (مائة وثلاثين) شخصاً.

٦ ـ إنشاء مخازن وورشة ومستودعات تفي بحاجة المشروع.

٧ ـ توفير جميع المكائن والآليات والمعدات اللازمة للعمليات الزراعية.

٨ ـ شق وتعبيد ورصف طرق داخل المشروع بمعدات وعمال الشركة يصل طولها إلى ٢٠٠ (مائتين) كيلومتراً.

٩ ـ إنشاء حاسب آلي في المركز الرئيسي لضبط وتسهيل أعمال الشركة في الشؤون الإدارية والمالية والفنية.

١٠ ـ إنشاء حاسب آلي في مكتب الشركة بالرياض مختص بسجل المساهمين.

١١ ـ توزيع الشهادات النهائية ونقل الملكية من خلال مكتب الشركة بالرياض.

١٢ ـ تحقيق ٢١٠٠٠ (أحد وعشرون ألف) طن من القمح خلال الموسم الأول ١٤٠٣ ـ ١٤٠٤ هـ بمعدل ٤ طن للهكتار.

١٣ ـ تحقيق ٦٣٤٠٠ (ثلاثة وستون ألف وأربعمائة) طن للموسم الثاني ١٤٠٤ ـ ١٤٠٥ هـ بمعدل ٦,٢ طن للهكتار.

١٤ ـ تلبين عشرات الآلاف من قش القمح لموسم هذا العام ١٤٠٤ - ١٤٠٥ هـ.

١٥ ـ زراعة وحصد وتلبين عشرة دوائر من حشائش السودان يصل إنتاجها إلى حوالي ١٥٠٠٠٠ (مائة وخمسين ألف بالة).

وللعلم فإن جملة ما تم إنجازه حتى الآن بالنسبة للمشاريع القائمة لا يتجاوز ثلث ما هو مخطط للمستقبل.

وتبلغ المساحة العامة للشركة ٣٥,٠٠٠ هكتار

العالمية التي تتعامل مع الدول الأجنبية والعربية لتسويق العربات، والمعدات الزراعية، وآلات الكهرباء المنزلية والصناعية إلى جانب أسواق المواشي من الأغنام والإبل التي تمد المدن والقرى والبادية المجاورة لتبوك.

ومن هنا تأسست الغرفة التجارية الصناعية التي تخدم التجارة في تبوك ومنطقتها.

الغرفة التجارية الصناعية[1]:

أهدافها:

١ ـ إبلاغ التجار والمصانع والمزارع بالأنظمة والقرارات والتعليمات ذات العلاقة بالأمور التجارية والصناعية والزراعية، وتوجيه التجار، وأصحاب المصانع والمزارع إلى أفضل مناطق التصدير والاستيراد.

٢ ـ جمع ونشر كافة المعلومات التي تتصل بالتجارة والصناعة والزراعة وإعداد البحوث المتعلقة بذلك.

٣ ـ رفع المقترحات والتوصيات إلى المسؤولين من أجل حماية الإنتاج الوطني من المنافسة الأجنبية.

٤ ـ التعرف على المشاكل التي تواجه الزراعة والصناعة والتجارة، ودراستها بهدف إيجاد الحلول الملائمة لها.

٥ ـ تبصير رجال الأعمال إلى فرص الاستثمار الجديدة في النواحي التجارية والزراعية والصناعية بالمنطقة.

---

(١) انظر: كتاب المسؤول والإنسان للأمير عبد المجيد بن عبد العزيز.
انظر: نشرة الغرفة التجارية لجمادى الآخر ١٤٠٦ هـ.

٦ ـ تشكيل اللجان الفرعية المتخصصة من بين المشتركين لإعداد التوصيات والمقترحات التي تساعد على إيجاد الحلول والبدائل.

٧ ـ دعوة استقدام الوفود التجارية والصناعية والزراعية وإتاحة فرص الاجتماع برجال الأعمال في المنطقة.

والغرفة التجارية والصناعية من المجمعات ذات الفعالية والحركة الدائبة فقد بلغ عدد المنتسبين إليها (٢٦٠٠) من رجال الأعمال وستة وعشرون مصنعاً، وقامت بدورات تدريبية تخدم البيع والإدارة التجارية والمحاسبة وإدارة المستودعات، وهي تقوم بإصدار نشرة دورية اقتصادية.

وقد قامت نهضة صناعية مزدهرة في المنطقة تخدم التجارة والزراعة أو هي ثمرة للوجود الزراعي والحركة التجارية ومن هذه المشروعات الصناعية:

١ ـ صوامع الغلال ومطاحن الدقيق التي تستوعب جميع إنتاج المنطقة من القمح.
٢ ـ مصنع لإنتاج أنابيب الري بالتنقيط بأنواعه والأغطية البلاستيكية.
٣ ـ مصنع لإنتاج الأعلاف.
٤ ـ مصنع لإنتاج الصناديق الخاصة بتعبئة الخضار والفواكه.
٥ ـ مصنع غربلة البذور
٦ ـ مصنع للألبان.
٧ ـ مصنع للأكسجين والأثلين والأيدروجين.
٨ ـ مصانع أتوماتيكية للبلاط والرخام والبلوك[(١)].

وفي تبوك عدد من الإدارات الحكومية المساعدة على التنمية ومنها:

---

(١) انظر: كتاب المسؤول والإنسان، الأمير عبد المجيد بن عبد العزيز.

المـواصـلات

يمر بتبوك خط بـري دولي عبر التـاريخ القـديم والحديث، وزادت أهميته في العصور الإسلامية؛ لأن الخط البري الذي يمر بتبوك يمثل درب الحجيج الشامية وتعهدته الدول الإسلامية بكثير من الإصلاحات.

وعلى نفس الدرب الأول أُنشيء الخط الحديـدي الحجازي الـذي يربط المدينة المنورة بتبوك مروراً بالمملكة الأردنيـة الهاشميـة فدمشق ثم بإستنبول.

وقد تعطل الخط الحجازي في الحرب الكونية الأولى، ولما توحدت البـلاد السعـوديـة تحت ظـلال الملك عبـدالعزيـز رحمـه الله أخـذت العربات التي تنقل المسافرين والحجاج والبضائع تسير عبر الطريق البري، ولكن سرعان ما اهتمت الدولة بالخط البري ورصفته ومهدته ووضعت عليه القار فكان من أول الخطوط في المملكة العربية السعودية، وأصبح الخط البري الذي يربط المملكة بالأردن.. وسوريا ولبنان وتركيا وأوروبا.

ثم أخذت الدولة تنشيء الطرق الفرعية التي تصل تبوك بمختلف مدن المملكة العربية السعودية فإلى جانب الخط الحجازي هنـاك الخط الذي يصل تبوك بتيماء وحائل والرياض وقد جُهز حديثاً ويختصر الـطريق إلى الرياض بأكثر من ثلاثمائة كيلاً، ويتفرع من تبوك خط آخر يتجه إلى الشرق ويخدم عدد من القرى ويستمر حتى يرتبط بالجوف وطريف وعرر والقريات والمدن في الشمال الشرقي للبلاد.

ويتفرع من تبوك خط بري يتجه غرباً إلى ضبا طوله (١٨٥) كيلاً فيخدم المدن الساحلية التابعة للمنطقة ويُسهل ورود البضائع إلى تبوك من المرافىء الساحلية، ويخدم القرى والبادية في حسمى ويُيسر الوصول إلى الآثار القديمة مثل روافة ويخدم المنطقة الزراعية، في وادي الديسه، ومركز (شقراء) وينطلق الطريق عبر الساحل إلى الجهة الشمالية ليصل لشرمى والشيخ حميد، ومقنا، والبدع، والشرف، وحقل، وينطلق إلى الجنوب ليصل نحو الوجه ومدينة أم لج، والقرى بين المدينتين.

وكذلك يتفرع من تبوك طريق بري يتجه إلى الشرف ثم يتفرع إلى فرعين أحداهما يتجه إلى حقل ثم إلى الدرة مركز الحدود ثم إلى العقبة في الأردن والشعبة الثانية تتجه إلى البدع، ومقنا والشيخ حميد، وشرمى وكلها على ساحل البحر الأحمر.

وهناك عزيمة صادقة من وزارة المواصلات لإنشاء عدد من الطرق الزراعية والتعبيد المستعجل وتغطيته بالقار لعدد من القرى المجاورة في الحرة وحسمى والمعظم.

الاتصالات السعودية(١):

من ضروريات الحضارة المعاصرة وسائل الاتصالات الفعالة الناجحة التي تخدم الوقت الإنساني، والجهد الذاتي والجماعي، وتوفر المال والعمل، وتسهل سبل التجارة، وتعين على التقدم الصناعي والزراعي، الأمر الذي جعل المملكة تضع الاتصالات ووسائلها في مقدمة الخطط الخمسية، كيما تكون قاعدة من قواعد انطلاق النهضة أولاً، ثم تبلور الحضارة وتكون إحدى معطياتها، فعقدت الدولة العزم وأجرت الدراسات، وتعاقدت مع الشركات الاستشارية وتنامت مع الزمن حتى اعتمدت الدولة السعودية الخطة الناجحة والنافعة وبتنفيذها عمت الاتصالات أرجاء المملكة

(١) استمدت المعلومات من التقرير السنوي للاتصالات لعام ١٤٠٤ ـ ١٤٠٥ هـ.

العربية السعودية، وتدفقت ينابيع الاتصالات الداخلية والخارجية معاً، وأصبحت إحدى قنوات الخير للبلاد، وصار في ميسور كل مواطن سعودي أن يهاتف من بداخل المملكة العربية السعودية ومن بخارجها في الشرق والغرب والجنوب والشمال من أجزاء المعمورة الأرضية بل ويهاتف من يعبرون آفاق الفضاء، ولكي لا تخضع لعوامل متغيرة فإن الدولة ممثلة في وزارة البرق والبريد والهاتف قد سخرت ألواناً من التقنية الحديثة والمتطورة لتحصل على درجة عالية من الخدمة، ولتكون هناك وسائل بديلة.

وقد كانت النهضة شاملة لأرجاء البلاد من مدينة وقرية ومزرعة أيضاً، ومنطقة تبوك جزء عزيز من هذه البلاد لذا حظيت باهتمام الدولة ومسؤولي التنفيذ للاتصالات فنالت حظاً وافراً مما يسّر اتصالها بالعالم.

وقد تنامت الاتصالات في تبوك ومنطقتها في إطار التطور الذي شهدته البلاد السعودية وحسب مقتضيات القدرات والتقنية والاحتياجات وملاحقة التنامي والتطور والتغيير التكنولوجي.

البرقيات:

وقد بدأت الاتصالات في تبوك ومنطقتها بتأسيس أول مركز لاسلكي في تبوك وقريب من الحوانيت الرئيسة داخل البلد في عام ١٣٣٦ هـ مع امتداد سكة الحديد الحجازية وبداية التشغيل فيها ثم أخذت تتطور حسب مقتضى الحاجة «وكان المستخدم آنذاك هو نظام المخابرة أو (المورس) والذي استبدل فيما بعد بمراسلة من طراز (آر. سي. إيه) وفي عام ١٣٩٩ هـ استخدمت أجهزة التلكس الحديثة من طراز (أوليفتي، سيمنز)، وهي مبرقات عربية ولاتينية، ثم أدخلت في الخدمة أحدث ماكينات التلكس المزدوجة (عربي - لاتيني) وكان ذلك في بداية عام ١٤٠٣ هـ»[1].

---

(١) انظر، التقرير السنوي عام ١٤٠٤ هـ ص ٢.

أما التلكس فإن أكبر الإدارات الحكومية ورجال الأعمال والقطاع الخاص قد نالوا ما يبتغونه من الخدمات التلكسية حتى بلغ مجموعها أكثر من أربعمائة خط.

الهاتف:

أما الهاتف فإنه استهل خدماته في تبوك عام ١٣٨١ هـ (كان أول هاتف يدوي ماجنيتو) يعمل في مدينة تبوك عام ١٣٨١ هـ من خلال مقسم يسع ١٠٠ خط فقط، وفي عام ١٣٨٥ هـ ركب مقسم آخر بسعة ٣٠ خط (ماجنيتو) وظلت هكذا حتى عام ١٣٩٩ هـ ومنذ هذا التاريخ توالت اهتمامات وزارة البرق والبريد والهاتف بمنطقة تبوك، فأنشأت شبكة حديثة، وزُودت مدينة تبوك بمقسم آلي من طراز (هيتاشي) بلغت سعته ١٠٠٠ خط بالإضافة إلى أربع عشرة دائرة أقمار صناعية مكنت المواطنين من الاتصال بمدن المملكة الأخرى، وفي منتصف عام ١٣٩٩ هـ نفذت وزارة البرق والبريد والهاتف مشروع شبكة الميكرويف مباشرة لتأمين الاتصال الخارجي.

ومع تزايد تطور المدينة واتساعها لم تفِ سعة هذا المقسم باحتياجات المواطنين المتزايدة للخدمة الهاتفية، فكان لزاماً على وزارة البرق والبريد والهاتف وضع خطة شاملة لمواجهة هذا التطور، وفي رجب عام ١٤٠٠ هـ تم افتتاح مقسم آلي جديد من طراز (بي آر. أكس) بسعة عشرة آلاف خط أخرى على مرحلتين إلى جانب تركيب مقسم ترانزيت من طراز (إيه أكس. أي) ثم توجت هذه الإنجازات بتركيب معدات الهاتف السيار في نهاية عام ١٤٠٣ وبدأت الخدمة في نهاية شهر صفر عام ١٤٠٤ هـ[1].

ولم تنحصر الخدمات الهاتفية على تبوك بل عمت مدن المنطقة وقراها الداخلية والساحلية معاً وهي: تيماء، القليبة، حالة عمار، حقل

(١) التقرير السنوي عام ١٤٠٤ ـ ١٤٠٥ هـ ص ٢.

البدع، الخريبة، ضبا، الديسة، شواق، الوجه، بدا، الكر، أبو القزاز، أم لج، والشبحة، مقنا، البئر، العيينة، الجهراء، المويلح، شرمى.

الهاتـف السيـار:

وقد شهد الأسبوع الأخير من شهر صفر عام ١٤٠٤ هـ مولد خدمة الهاتف الآلي السيار بمنطقة تبوك حيث تم تركيب أول هـاتف سيار بعـد اكتمال الإجراءات الفنية لهذه الخدمة من تركيب وحدة مقسم الهاتف السيار والهوائيات المسـاعدة وتجهيـز مركـز للتركيبـات والصيانـة بكامـل أجهزتـه ومعداته[١].

وقد تم تركيب محطتي لاسلكي للهاتف السيار خلال عام ١٤٠٥ هـ إحداهما على طريق تبوك حالة عمار والأخرى بحالة عمـار ووزارة البرق والبريد والهاتف تسعى إلى تغطية جميع المدن في المنطقة بخدمة الهاتف السيار، وقد بلغ عدد خطوط الهاتف السيار أكثر من مائة خط[٢].

---

(١) التقرير السنوي للاتصالات ١٤٠٤ هـ ص ١٢.
(٢) المرجع السـابق ٦.

إدارة الأوقاف بتبوك

وأهم عمل تقوم به رعاية المساجد القائمة والمحافظة على الجوامع والمساجد الأثرية، وإنشاء المساجد والجوامع في المنطقة الآهلة بالسكان، ورعاية المساجد بالأثاث والتنظيم والتنظيف، ومتابعة أعمال الموظفين في المساجد والجوامع وتعيين الأئمة والخطباء والمؤذنين والخدم.

وقد قامت الوزارة بجهد متواصل لبناء الجوامع والمساجد فقد تم إشادة الجامع الأثري (التوبة) الذي صلى فيه الرسول ﷺ، وجامع الأخوياء، وجامع الملك فهد بالفيصلية ويتسع لثلاثة آلاف مصل، وجامع الملك عبد العزيز في مبنى مصلى العيد السابق، ومسجد العيد الذي يتسع لمائة ألف مصل وجامع سلطانة الجديد إضافة إلى جانب عدد من المساجد التي وافقت الوزارة على بنائها من قبل أهل الخير وتجدر الإشارة إلى أن في تبوك أكثر من مائة وخمسين جامعاً ومسجداً، وتمدها الوزارة بالمصاحف اللازمة من مطابع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف في المدينة المنورة، وقد عهد إلى إحدى المؤسسات الوطنية بالإشراف على نظافتها، وإصلاح ما يطرأ من العطل فيها[1].

---

(١) أخذ عن التقرير السنوي للأوقاف في تبوك لعام ١٤٠٧ هـ.

التعليم

إدارة التعليم في تبوك:

كانت بداية التعليم تعتمد على الكتاتيب، كتعليم القرآن الكريم، ومعالم الكتابة والقراءة، والخط، وكانت أول مدرسة في مدينة تبوك أسست عام ١٣٥٦ هـ مديرها (محمد علي كابلي) في عهد الأمير عبدالله السديري وعدد طلابها لا يتجاوز الأربعين.

وبدأ التعليم الحكومي في تبوك بمدرسة ابتدائية عام ١٣٦٠ هـ وتسمى المدرسة السعودية، ثم توالى تأسيس المدارس فأنشئت أول مدرسة متوسطة عام ١٣٨٠ هـ ثم افتتح مكتب إشراف عام ١٣٨٥ هـ ليتولى الإشراف على هذه المدارس ويضم تحت إدارته ثلاث عشرة مدرسة وتأسست أول مدرسة ثانوية في عام ١٣٨٦ هـ.

ونظراً للنمو المتزايد في أعداد الطلاب، وافتتاح المدارس، وضرورة إيجاد إدارة قادرة على توجيه دفة التعليم، فقد تحول مكتب الإشراف إلى إدارة تعليم عام ١٣٩٨ هـ.

ويتبع إدارة التعليم في تبوك كل من حقل والبدع وضباء، والوجه، وتيماء وأملج والقرى التابعة لكل مدينة، وقد افتتح فيها خمسة معاهد للمعلمين، وقد مرت إدارة التعليم بمراحل تنامي متواصلة وبدرجة مذهلة، وتبين هذا التطور الإحصائية التي صدرت من وزارة المعارف لعام ١٤١٢ هـ حسب الجدول الآتي:

القطاع / المرحلة	تبوك	تيماء	حقل	ضباء	الوجه	أملج	المجموع
ابتدائي	٤٣	٢١	١٩	٢٣	١٧	٣١	١٥٤
متوسط	١٨	٥	٨	٩	١٠	١٠	٦٠
ثانوي	٩	٣	٢	١	١	١	١٧
المجموع	٧٠	٢٩	٢٩	٣٣	٢٨	٤٢	٢٣١

تعليم الكبار:

وبلغ عدد المدارس التي تعنى بتعليم الكبار ٣٣ مدرسة وعدد طلابها ١٠٨٧ طالباً كما بلغ عدد طلاب المدارس الابتدائية ١٦٥٤٥ والمتوسطة ٥٧٥٥ والثانوية ٢١٣٥ طالباً.

المعهد العلمي بتبوك:

أسس عام ١٣٨٤ هـ بأمر من سماحة مفتي الديار السعودية الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ يرحمه الله ويمثل إشعاعاً فكرياً إسلامياً فله نشاطه الفكري حيث استقطب عدداً من رجال الفكر لإلقاء محاضرات وندوات في المنطقة سيما بعد تكوين جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٣٩٥ هـ فأصبح ممثلاً لها، وأسست فيه أول قاعة محاضرات في مدينة تبوك فاستقطبت الأنشطة الثقافية في تبوك.

وقد ضم عدداً من أعضاء هيئة التدريس الذين لهم مكانة مرموقة وقد واصل بعضهم دراساته العليا حتى نال درجة الدكتوراه والمعهد أكن له حُبّي وتقديري فقد كنت من الدفعة الأولى التي التحقت به دارساً ثم درّستُ فيه سنة واحدة ثم استلمت إدارته من عام ١٣٩٤ حتى عام ١٤٠٦ هـ حيث حصلت على الدكتوراه وانتقلت لأكون عضواً لهيئة التدريس في فرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في القصيم ثم انتقلت إلى كلية اللغة العربية بالرياض.

* الكلية المتوسطة أسست عام ١٤٠٦ هـ وتسمى الآن كلية إعداد المعلمين، ويقضي الطالب فيها أربع سنوات وفيها تخصصات مختلفة تناسب مقررات الدراسة في المرحلة الابتدائية.

* المعهد الثانوي التجاري ١٤٠٢ هـ.
* المعهد الثانوي للمساحة ١٤٠٣ هـ.
* مركز التدريب المهني ١٣٩٨ هـ.
* المعهد الثانوي الصحي ١٤٠٥ هـ.
* دار الملاحظة ١٤٠٦ هـ.
* مركز الخدمة لرعاية الأمومة والطفولة ١٤٠٦ هـ.

إدارة تعليم البنات في منطقة تبوك:

لقد أصدرت إدارة تعليم البنات كتاباً إحصائياً عام ١٤١٢ هـ يبين تاريخ المدارس وعددها وتنامي المباني المدرسية وأعداد الفصول وبيانات أخرى تبرز الأعداد المتنامية للمعلمات والطالبات والإداريات ويتضح أن المدارس الابتدائية داخل تبوك أكثر من خمس وعشرين مدرسة بما في ذلك المدارس داخل المدينة العسكرية وتضم أكثر من تسعة آلاف طالبة، وقد تميزت الرئاسة العامة بالمباني ذات الطابع الإسلامي، والتي تمثل نسبة عالية في تغطية احتياجات المدارس وما زالت تواصل المسيرة ويجدر بنا أن ننوه بالجهد المبذول من قبل الدولة، لأن السياسية التي أنتهجتها للاكتفاء الذاتي من بنات الوطن ليقمن بالتعليم والتربية والتوجيه قد أتت ثمارها فالتعليم الابتدائي قد شارف على الاكتفاء الذاتي من بنات الوطن ففيه أكثر من ثلاثمائة وخمسين معلمة ابتدائية. ومن الخير أن نشير إلى مدرسة تحفيظ القرآن الابتدائية وإقبال الطالبات عليها وهذا يؤكد حرص المجتمع السعودي على تمسكه بدينه وعقيدته وغرس ذلك في نفوس الأمهات لتفيض به على الأبناء والبنات.

التعليم المتوسط للفتاة:

أمّا التعليم المتوسط فإنه يجسد السياسة التعليمية التي تعمل على تأهيل الفتاة السعودية لتكون رائدة التعليم في بلادنا الغالية. فكان من الخير أن يكون التعليم المتوسط يوجه لكي يخدم التعليم الابتدائي مما جعل ولاة الأمر يقررون الأولوية لمعهد المعلمات المتوسط ففتح عام ١٣٨٧ هـ وكان له دورة في تغذية التعليم في المنطقة ثم تلاه افتتاح المتوسطة الأولى عام ١٣٩٠ هـ. وتنامى التعليم المتوسط حتى بلغ إحدى عشرة متوسطة في مدينة تبوك وحدها وأغلبها في مباني حكومية ثابتة وحديثة ويحصل على التعليم فيها أكثر من ألفي طالبة وفيها أكثر من ستين معلمة سعودية.

التعليم الثانوي:

أما التعليم الثانوي للفتيات فقد انطلق بمستهل عام ١٣٩٣ هـ بالمدرسة الثانوية الأولى ثم افتتحت المدرسة الثانوية الثانية عام ١٤٠٣ هـ حتى تجاوزت خمس مدارس ثانوية وكذلك هناك ثانوية في المدينة العسكرية وأخرى في القاعدة الجوية ومع تطور التعليم في المملكة طُوِّر معهد المعلمات ليصبح تعليماً ثانوياً، وتضم هذه المدارس أكثر من ألف طالبة.

والاهتمام العالمي بمحو الأمية مشهور وكثرت حوله الدراسات والمناهج وطرق التربية المتبعة فيه كالدولة السعودية، بذلت جهوداً تشكر عليها وجعلت مدارس محو الأمية تقترب من المدارس الأخرى وعمت أرجاء المدن وتشعبت في الأحياء، وغزت القرى مما جعل هذه الجهود تثمر ثمارها الطيبة. وقد أسست أول مدرسة لمحو الأمية في تبوك عام ١٣٩٢هـ وأخذت تتنامى وتزداد أعدادها حتى بلغت ٢٧ مدرسة في تبوك حسب التقرير الإحصائي لعام ١٤١٢ هـ.

وقد بلغ مجموع المدارس في منطقة تبوك ٢٠١ من ابتدائي ومتوسط

وثانوي ومنها ١٣ تابع لوزارة الدفاع، ١٢ لمدارس أهلية، ٣ تابعة للجمعية الخيرية.

كلية التربية للبنات:

وتضم خمسة أقسام:

الدراسات الإسلامية، والدراسات الأدبية، القسم الإنجليزي، الفيزياء، والرياضيات وفيها دائرة تلفزيونية مغلقة، وتضم عدداً من المعامل المتكاملة وفيها أكثر من ثلاثين عضواً لهيئة التدريس، ويبلغ عدد الطالبات فيها أكثر من ألف طالبة.

الحياة الاجتماعية

النمو السكاني:

كانت تبوك قرية صغيرة قبل العهد السعودي وظل الحال حتى عام ١٣٦٠ هـ وكانت أهمية إدارتها تكمن في كونها مركزاً جمركياً على الحدود وأمنياً لعشائر قبيلة بني عطية التي تحيط بها من جميع جهاتها، وقد دأبت الإمارة فيها على نشر الأمن والاستقرار، فانتعشت الحركة التجارية في تبوك ولحقت بها الحركة العمرانية، وقد استفادت عائلة آل غريض من ذلك فاستثمرت الأراضي، وكونت المباني وشاركها قليل من بني عطية، وبعض القادمين لتبوك مبكراً من أبناء المملكة.

وقد استفاد أهل البادية من بني عطية من تلك الحركة فأخذت قوافلهم تتجه إلى تبوك لقربها لمساكن القبيلة بدلاً من الذهاب للأسواق الخارجية، وأخذ بعضهم يُعجب بها ويستوطنها.

وقد بادرت الدولة السعودية إلى تشجيع هجرة البادية، فافتتحت المدارس التي كانت تصرف لكل طالب أربعين ريالاً، وأتاحت فرص العمل، مثل الالتحاق بالقطاع العسكري أو القطاع المدني.

ووزعت الأراضي السكنية على الناس، ثم حدثت مجاعات أهلكت الحرث والنسل، فهاجر كثير من أهل البادية إلى تبوك واستوطنوها ومن الظواهر المشاهدة أن كل عشيرة من بني عطية أخذت تستوطن الجهة من

تبوك المواجهة لموطنها في البادية. وهذه الظاهرة رأيناها في أغلب المدن في المملكة وقد استقطبت الحياة الحضرية جلّ أبناء القبيلة حتى أنه لم يبق إلّا فئة قليلة جلهم من متقدمي السن أو من اعتاد على حياة البادية لأن كل شاب يفضل الالتحاق بالعمل الحكومي على النصب والكدح في البادية فهو يرى كيفية المعيشة الحضرية، والرواتب الجارية المجزية، والتعليم، فيفضلها على الحياة الرعوية، ولذا فإن ظاهرة انطلاق الشباب بعد أن يشبوا عن الطوع إلى المدن معروفة لدى البادية، وتؤثر في حياتهم، ويتبع ذلك أن الشباب أولئك الذين التحقوا بالحياة الحضرية يتزوجون من بنات البادية، وينزلون بهن للحاضرة، فتكون الهجرة من الجنسين معاً، ولم يمكث إلا الأباء والأمهات وليس لهم من يخدمهم، ويربي مواشيهم، فيضطرون إلى أن يهاجروا للحاضرة.

ومنذ سنوات عديدة أقامت الدولة التعليم الابتدائي في القرى المجاورة للبادية إضافة إلى مدارس الخيام التي تلاحق البادية، فاستقطبت الأبناء ومن ينهي المرحلة الابتدائية ينتقل إلى تبوك ليكمل دراسته فتنتقل الأسرة معه أيضاً.

مع هذا ظلت بعض الأسر في البادية لكن هؤلاء يؤثرون على مسيرة أبنائهم التعليمية، فالأبناء يخرجون لهم في كل أسبوع، ويمدونهم في عرباتهم بالماء والأعلاف والغذاء فيشغلونهم عن التحصيل العلمي، أو يستنزفون دخل أبنائهم في الأعمال الوظيفية.

ليست الهجرة إلى تبوك من قبيلة بني عطية فحسب ولكنها استقطبت قبيلتي بلي والحويطات وغيرهما على تلك الشاكلة، وإن نافست المدن المجاورة لهم تبوك على تلك الهجرة مثل العلا والوجة وضبا والبدع وحقل لكنها بنسب أقل كما توضحه الدراسة الصادرة من بلدية تبوك التي اقتبست منها الصفحات التالية:

السكان في منطقة تبوك:

وتبوك في نمو متواصل من ناحية العمران والتطور الزراعي وازدياد القوات المسلحة والوفود عليها مضطرد، ولذا فإن السكان في ازدياد مستمر، وقد بلغ عدد سكانها حسب آخر إحصائية مائتان وخمسون ألف نسمة ويمثل الذكور في مدينة تبوك ٥١,٢٣٢٪. بينما يشكل الإناث ٤٨,٧٦٨٪ نسمة وإن من تخطوا سن الخامسة عشر حوالي ٤٨,١٦٦ نسمة وإن من هم دون تلك السن حوالي ٥١,٢٦٨٪ نسمة.

وإن المتعلمين في مدينة تبوك من الذكور يمثلون ٧٨,٣٪ منهم ٣٢,٩٪ حاصلون على الابتدائية و٢٣,٣٪ يحملون مؤهل متوسط و١٣,٥٪ خريجي ثانوي بينما الحاصلون على تعليم عال تقدر نسبتهم بحوالي ٨,٦٪.

أنماط الاستيطان بمنطقة تبوك:

يوجد في منطقة تخطيط تبوك ١٤٢ مدينة وقرية ومستوطنات أخرى، وفيما عدا تبوك والبلديات الخمس الأخرى، فإن معظم المستوطنات صغيرة من حيث المساحة والسكان. ويتراوح تعداد سكان ستة منها ما بين ٥٠٠ إلى ٢,٠٠٠ نسمة و٦٩ منها ما بين ١٠٠ إلى ٥٠٠ نسمة في حين أن ٦١ منها تحتوي على أقل من ١٠٠ مواطن. ويتمركز حوالي ٦٧٪ من السكان في مدينة تبوك والمراكز الحضرية الخمس الكبرى.

إن غالبية المستوطنات الأصغر بالمنطقة تقع في منطقتي السهل الساحلي وجبال الحجاز الفرعيتين. كما أن لدى منطقتي سهل تبوك وتيماء الفرعيتين الداخليتين عدداً أقل من المستوطنات خارج المدينتين الرئيسيتين.

تقع معظم القرى والمستوطنات البدوية الصغيرة جداً في جبال

الحجاز، ومن الصعب خدمتها. كما أن نمط الاستيطان الغالب في منطقة التخطيط، وخصوصاً في المناطق الجبلية، يجعل توفير المرافق والخدمات العامة أكثر تكلفة وأقل كفاءة مما هو ممكن.

وعلى الرغم من معوقاتها الحالية فإن نمط الاستيطان الحالي بالمنطقة يوفر إطار عمل وأساس لتطوير نظام هرمي للمراكز الحضرية يتفق مع استراتيجية الاستيطان الوطنية.

تعتبر مدينة تبوك مركزاً أقليمياً وسوف تستمر كذلك. وتوفر المدن الكبيرة الخمس الأخرى خدمات إلى مناطق فرعية واسعة وينطبق عليها تعريف مراكز مناطق. ويوفر إطار العمل هذا أساساً لتطوير نظام ممكن لمراكز أصغر.

السكان بمنطقة تبوك:

التقديرات الحالية للسكان: قدر عدد سكان منطقة تخطيط تبوك في عام ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣ م) بـ ٢٦٢,٠٨٠ نسمة. وأن ثلاثة أرباع السكان ثابتون، ومنهم ٨٩٪ تقريباً يعيشون في تبوك وفي مراكز المناطق أو المراكز الكبيرة الخمسة.

ولقد شمل تعداد السكان سنة ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣ م) حوالي ٦٤,٧٢٠ نسمة من السكان الرحل.

قدر عدد سكان تبوك بـ ١٢٦,٢٠٠ نسمة. وهذا يمثل ٤٨٪ من إجمالي سكان منطقة التخطيط. أما مراكز المناطق الخمس فتحتوي على ٤٨,٥٦٠ نسمة تمثل ١٨,٥٪ من إجمالي سكان منطقة التخطيط.

يلخص الجدول الموضح أدناه تقدير عدد السكان الحالي. ويوضح

الجدول التوزيع الحالي للسكان على المراكز الرئيسية، ويؤكد عمود «النسبة المئوية من المجموع» الأهمية الكبرى لمدينة تبوك التي تحتوي على ٤٨٪ من سكان المنطقة عام ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣ م).

جدول: تقديرات السكان حسب المنطقة ـ منطقة تخطيط تبوك ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣ م)

المنطقة	السكان	النسبة المئوية من المجموع
مدينة تبوك	١٢٦,٢٠٠	٤٨,٢
مراكز المناطق	٤٨,٥٦٠	١٨,٥
تيماء	٩,١٢٠	٣,٥
ضباء	٥,٣٤٠	٢,٠
الوجه	٨,٦٠٠	٣,٣
حقل	٧,٨٠٠	٣,٠
مستوطنات أخرى	٢٢,٦٠٠	٨,٦
السكان الرحل	٦٤,٧٢٠	٢٤,٧

المصادر: المسح الاجتماعي الاقتصادي لتبوك: ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣ م).

المسح الاجتماعي الاقتصادي لمنطقة تبوك: ١٤٠٥ هـ (١٩٨٥ م).

أنماط السكان بمنطقة تبوك:

لقد ازداد عدد سكان منطقة التخطيط ٧٨,٠٠٠ نسمة خلال الفترة منذ إحصائية السكان الأخيرة لعام ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م) إلى عام ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣ م). ولقد كانت نسبة الزيادة ٤٢٪ أقل من النسبة التي حققتها المملكة بشكل عام (حوالي ٤٧٪) خلال نفس الفترة، فلقد تم منذ عام

١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م) هجر ميناء ضبـا القديم ومن المرجح أن يكون سبب انخفاض عدد السكان هو أن قسماً كبيراً من السكان المقيمين هناك قـد هاجروا بدون حلول سكان جـدد محلهم. وتبين النتائج المستخلصة من المسح الاجتماعي الاقتصادي أن قسماً كبيراً جداً من مواطني ضبـا «كانوا يعيشون هناك بشكل دائم» كما وأن المستـوطنات الصغيـرة شهدت نمـواً محدوداً وأن عدد السكان الرحل بالمنـطقة قـد انخفض بحوالي ٢٤٠٠٠ نسمة.

الحيـاة الاقتصاديـة:

كانت الحياة المعيشية تعتمد على نوع من المزارع التي تغلب عليها زراعة النخيل وبعض الحبوب الموسميـة في تبوك والقـرى المجاورة لهـا والمتباعدة عنها ومع كثرتها وحبهم للأعمال الزراعية غير أنها لم تغن شيئاً، فهم يعتمدون على الرعي في أغلب حياتهم، ويقومون ببعث القوافل، لتعود بالحبوب وألوان التجارة من الشام، ويفدون إلى العلا وتيماء لجلب التمور وكذلك إلى ضبـا من أجل الإتيان بالضروريات التي تـزرع في الساحـل والتي ترد عن طريق المرافىء الساحلية.

ولما توحدت البلاد في ظل الدولة السعودية المباركة، أخذ التغييـر يدب في الحياة الاجتماعية، فالتحق الناس بالوظائف الحكوميـة، وأخذوا يعملون في عـروض التجارة، وهـاجروا من البـادية طلبـاً للعلم والرزق، وشجع ذلك السياسة التي تبنتها الدولة لتوطين البادية، ومما أجبر بعضهم للهجرة مع حبهم للحياة البدوية أن المنطقة تعرضت لجفـاف شديـد في ١٣٧٨ هـ هلكت الأنعام خلالها حتى سميت (بسنة العظامية) الأمر الذي جعل الكثير يذعن للتوطين، فكان خيراً لهم، حيث تعلم أبناؤهم، والتحقوا بالحياة المعاصرة، وانطلق التغيير الاجتماعي، غير أن الاعتماد كله على الوظائف الحكومية، ولا موارد داخلية إلا التجارة، وكانت الأعمال العمرانية للمدينة العسكرية والمنشآت العمرانية احتضنت الكثير منهم، فكان الرجال

يعملون ويتعلمون عن طريق المدارس الليلية، ومكافحة الأمية، وربما كان اجتهاداً ذاتياً.

أما الأبناء فإنهم واصلوا مسيرة التعليم في المدارس الحكومية المتناثرة، التي لم تفِ بحاجة المدن والقرى فحسب بل تجاوزته إلى أن تنتقل مع البدو وتلاحق خيامهم أينما حلوا أو ارتحلوا.

ونتيجة لذلك فقد هجر الناس البادية، فلا تجد فيها إلا طاعناً في السن يسعى أبناؤه لإرضائه، أو من لديه هجرة مائية يزرع ويربي الماشية حولها، أو من يملك قدرة على أن يربي المواشي وقت الربيع بجوانب مدينة تبوك، ثم يعود في الصيف بحيث لا تؤثر على مسيرة تعليم الأبناء، وهذا شأن كثير من المدن والقرى في الجزيرة العربية، حيث الاستمتاع بمناظر الطبيعة وجوها الجميل بعيداً عن الصخب، وتلوث الجو داخل المدن، فيقيمون الخيام في الأراضي المجاورة للمدن ويستقرون فيها أيام الربيع، وربما يخرجون إليها في فترات الراحة الأسبوعية طوال أيام السنة.

وكان من المشاكل التي أدركتها الدولة في هذه المرحلة، أن مدينة تبوك من المدن الاستهلاكية التي يقل نتاجها عن متطلباتها، وأن العمالة تعتمد على مرحلة النهضة، فكيف إذا انحسرت الشركات ألا تحدث بطالة عمالية؟.

نعم شعرت الدولة بذلك، فكان أن أخذت على عاتقها وضع الخطط الكفيلة باستمرار الحياة السليمة، فبادرت إلى إرساء قواعد الزراعة، فوزعت كثيراً من الأرض البور، ونفذت الخطة الزراعية التي تعتمد على القطاع الخاص بمساعدة الدولة المالية والفكرية، وتمخضت حركة اقتصادية، واستهوت المواطنين للزراعة، والعمل في الصناعات المساعدة، والناتجة عنها والتجارة فيها، مما حولت البلد من مستهلك إلى منتج، وأفسحت المجال لليد العاملة وأصحاب الخبرة واستثمروا جهدهم، وتكونت الجمعيات التي تدفع بالمزارع والزراعة والصناعة إلى طريق التقدم

والازدهار، وأصبحت تبوك ومنطقتها مزرعة انتاجية تهفوا إليها قلوب رجال المال والأعمال والمستثمرين.

التركيبة الاجتماعية:

وتركيب السكان في تبوك يتكون من الذين يستوطنون تبوك وهم الغرضان ويطلق عليهم الحميدات، وعددهم قليل، فقد ذكر أصحاب الرحلات قبيل توحيد البلاد تحت ظلال الحكم السعودي، أنهم لا يتجاوزون ستين بيتاً ومنهم من قال أنهم لا يتجاوزون أربعين داراً، وقيل أن عدد سكانها لا يتجاوز المئتي نسمة(١).

وهؤلاء يشتركون مع القبائل العربية بالمنطقة في كثير من العادات والتقاليد والروابط الاجتماعية كالزواج بينهم وصلة الأرحام، وكذلك بينهم علاقات تجارية، مما كون روابط راسخة.

وتحيط قبيلة بني عطية في عصرنا هذا وقبل توحيد البلاد بمدينة تبوك من جميع الجهات، وقد أخذت في الاستيطان والهجرة إلى الحاضرة مع إطلالة العهد السعودي حتى كادت البادية تنقرض من المنطقة، وانتقلت إلى مدينة تبوك بعاداتها وتقاليدها وكذلك استوطن تبوك كثير من القبائل المجاورة مثل الحويطات وبلي، وجميع القبائل متقاربة في عاداتها وتقاليدها، غير أن واقع تبوك يحتم انحسار كثير من التقاليد والعادات لظروف كثيرة، ومنها اختلاف ظروف الحياة بين البادية والحاضرة، وظروف مدينة تبوك ذاتها، فهي من المدن المفتوحة الأبواب، حيث تستقبل كثيراً من الأجناس من مختلف مناطق المملكة ومن خارجها.

وتتأثر بالطريق البري الدولي، ومما زاد في اضمحلال العادات القبلية، أن تبوك اشتهرت بكونها منطقة عسكرية، وكان الدفاع تركيبة

---

(١) انظر: أقوال الرحالة في الفصول السابقة.

اجتماعية تمثل جميع مدن المملكة السعودية وقراها وقبائلها، وكان رجال القوات قبل بناء المدينة العسكرية يستوطنون المدينة بأسرهم مما أحدث تمازجاً وتآلفاً وتقارباً، ولا سيما أن جميع الوافدين لمنطقة تبوك يجمعهم الدين الإسلامي، فيسيرون وفق تعاليمه، ولذا فإنهم اتفقوا على ما يدعو إليه الدين وانحسرت العادات التي تغايره أو تعارضه من الوافدين والمقيمين معاً.

وكذلك فإنهم يشتركون في لغة واحدة هي اللغة العربية، ولذا لجأ الناس إلى الكلمات الفصيحة وأحجموا عن اللهجات المحلية والوافدة فتقارب الناس في لهجاتهم وكيفية النطق، ونتيجة لهذا التلاحم فإن الدارس الاجتماعي للشرائح الاجتماعية في تبوك يرى بوضوح عدم هيمنة عادات وتقاليد أبناء المنطقة على غيرها. ولكن المتخصص من الباحثين ربما يكشف عن وجود عادات وتقاليد وارتباطات وثيقة بين أفراد البطون والعشائر، ربما تنبىء عن ارتباط بالقبيلة بشكله الكلي.

والثبات على المعتقد الديني، والتمسك بالموروث الشعبي الذي يتراءى من خلال العشائر والبطون يقف حاجزاً ضد الانزلاق في بعض المخاطر، والانهيار الخلقي وإن كان في حاجة إلى بناء مصدات جديدة ومتنامية لتقف في وجه التيارات التي لا تنحصر في جو أي مدينة من المدن فحسب، وإنما تتسرب في جميع المجتمعات الإسلامية والعربية، وقد ثبتت بعض الموروثات، وطرأت ظواهر اجتماعية جديدة بعضها يميل إلى الخير، وقليل منها يُخشى عواقبه.

غير أن الصلة متواصلة والقرابة عامل من عوامل الترابط والتكوين الاجتماعي في تبوك ولكنها انتقلت من القبيلة إلى البطن والعشيرة، ورغم تباعد منازلهم إلا أنهم يميلون إلى الارتباط بالزواج، والولائم، وقليلاً مما تجد ارتباط الزواج بأسر خارجية.

ورب الأسرة هو المهيمن في مجتمع تبوك بيده السلطة المنفذة، وله

دور فعال في زواج الأبناء والبنات، لذا فإنها تتمحور نحو الرجل وأبناء عمومته وأقاربه وربما أن إصرار أبناء القبائل على التزاوج من القريبات كان أهم عاملاً في عدم تمازجهم مع الشرائح الأخرى في المجتمع.

ويتميز المجتمع في تبوك بالوعي التام نتيجة التعليم، والامتزاج الحضاري، فيصعب وجود شعوذة وخرافات وانحرافات، وإن أي طارىء يطرأ سرعان ما يندثر لأنه يوضع تحت المراقبة فيناقش ويحدث حوله جدلاً حتى يتبين خيره من شره.

ويتصف أهالي المنطقة بالقناعة والطيبة فلا يحملون أحقاداً، ولا يلحون في طلب، ولا يكررونه أو يتمادون فيه، وهم يميلون إلى الصراحة والوضوح، إن أحب الفرد منهم ظهر حبه، وإن كره أعلن كرهه، ولا يماري، شديد في إخلاصه، ذو مروءة وأنفة شأنه شأن أبناء الجزيرة، وأصبح الكرم خصلة عالقة في نفوسهم يتوارثونها حتى أسرفوا وتجاوزوا الحد فيها.

وقد أدرك تلك الخصال فيهم الأمراء من آل سعود وغيرهم، فأعلنوها في مجالسهم ومنتدياتهم وقد وصفها الشعراء في المنطقة من الإخوة الوافدين الذين عاشوا في التعليم زمناً طويلاً وكذلك تغنى بهذه الخصال شعراء المنطقة من الشباب.

مشاكل الزواج في تبوك:

والقبائل التي تحيط بالمنطقة تميل إلى الزواج المبكر في الأعم والأغلب، وهذا أمر يدعو إليه الشارع الحكيم ويجب أن نسير على منهجه لما فيه من العصمة للشباب من الزيغ والانحلال الخلقي والفساد وبما أن البيئة هنا تتصف بالتحفظ وبالتربية الخاصة التي يمليها الأباء والأمهات إلى أولادهم منذ الصبا حتى بلوغ سن المراهقة. لذا يندفعون إلى هذه العادة الطيبة، إلاّ أن لها أضرارها إن لم يترووا في الاختيار ولها فوائدها العظيمة

والكثيرة إذا تم التكافؤ بين الزوجين وقد دعا رسول الله ﷺ الشباب إلى الزواج المبكر فقال عليه الصلاة والسلام: «أيما رجل تزوج في حداثة سنه عج شيطانه يأويله عصم دينه» ويقول عليه الصلاة والسلام: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» ويتراوح الزواج ما بين سن الخامسة عشر حتى العشرين للفتيات ويندر من تتجاوز هذا السن وحدد الأمر بالزواج لمن يجد الباءة. والباءة تعني كل دواعي الزواج المعنوية والحسية.

فعلى هذا يجب أن نفكر قبل زواج أولادنا في الاستعداد الشخصي بالنسبة للزوج هل نضج فكرياً وجسمياً؟ وهل استعد لتحمل هذه المسؤولية الكبيرة ثم نفكر في الزوجة كذلك وفي التجانس والتكافؤ بينها وبين حال الزوج جسمياً وثقافياً وتربية وبيئة.

والواقع أن التكتلات القبلية والعصبية ما زالت موجودة فتجد الأقارب يتجمعون ويأخذ كل قريب قريبته وهذا نابع عن رغبة من ولي الأمر ذاته وغالباً ما يتم الزواج بعد عملية الإقناع لأسرته أما القسر والعضل والإجبار فهي نادرة وقليلة وكادت أن تنحسر، والالتزام بالزواج من الأقارب يحتاج إلى توجيه وإرشاد وأن لا نحجر على الشاب والشابة في الزواج من قبيلته وأسرته فحسب والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه ألا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساداً كبيراً». وكلما كثرت الأصهار وتنوعت القبائل ازداد التعارف وقويت الروابط وزال النزاع والخلاف القبلي والله تعالى يقول: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾[1] وإن الالتزام بالزواج من العائلة ذاتها يؤدي إلى ضررين ظاهرين:

الضرر الأول: قد لا يتوفر التكامل في التكافؤ من حيث العقلية

---

(١) الحجرات ١٣.

والمستوى العلمي والفكري والثقافي ويترتب على هذا عدم الاستقرار وكثرة النزاع والخلافات فلا تستقيم الحياة الزوجية المطلوبة.

الضرر الثاني: قد ثبت الضعف في النسل وقد قال الشاعر العربي قديماً.

تجـاوزت بنت العم وهي حبيبـة   مخـافـة أن يضـوى عليّ سليلي

وقد أيّد الطب الحديث كون الزواج من الأقارب يسبب الضعف في الأولاد وانتقال العاهات الخطيرة أو المستديمة بسبب الوراثة لهذا يـوجهنا رسول الله ﷺ فيقول: «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس».

تكاليـف الـزواج:

تنقسم التكاليف الزوجية إلى ثلاثة أقسام:

١ ــ المهر.
٢ ــ الحلي والصيغة وأثاث البيت.
٣ ــ حفلة الزواج.

أما بالنسبة **للمهر** فإن المهر في هذه المنطقة لم يتجاوز حده المعقول عند الأكثرية من المواطنين في هذه المنطقة إلا النادر الـذي لا حكم له ولكن المشكلة تكمن في ولي الأمر حيث يأخذ المهر الأب قل أو كثر علماً أن الشارع ينص على أن المهر هو ملك للزوجة فقـد قال عليـه الصلاة والسلام: «فلها المهـر بما استحـل من فرجهـا»، ولـم يكـن المهر معقـداً فيجزي القليل والكثير ويمكن أن يجعل منه مقدماً ومؤخراً وقد يكون المؤخر سبباً في إيجاد المشاكل عند الخلافات الزوجية فلا هو الذي يُثبّت الزوجة ولا هو الذي يجعل الزوجة تُسرح بإحسان فيكون سبباً لمضايقتها.

الحلي والزينة: بدأت هذه الظاهرة تتعمق في الإفراط والتبذير وتظهر وتنتشر حتى أثقلت هذه العادة كاهل الشباب وحرمتهم لذة الزواج وقلبته من سعادة إلى شقاء مما أدى إلى إحجام الكثيرين عن الزواج خوفاً من هذه

التكلفة الجائزة. ويحتاج الأمر إلى توعية المواطن إلى أن الصيغة والذهب تقليد لا جدوى وراءه ولا فائدة بل هو سبب من أسباب عرقلة الزواج والعبرة تكمن في الزوجة ذاتها والمفخرة يكون في دينها وأخلاقها وأمانتها وثقافتها، قال عليه الصلاة والسلام: «تنكح المرأة لأربع لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك». والزيّنة من الكماليات فإذا زاد عن الضروريات وكان هناك فضل مال لا بأس بها. وأما بالنسبة لتجهيز البيت وأثاثه فهذا أمر مطلوب ولا بد منه لكل زوج ونحن نؤيده لاستقرار الزواج ولسعادة الزوجين لكن بقدر المستطاع بلا إفراط ولا تفريط ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾[1] فيلزم البعد عن التفاخر والتقليد وإبطال المظاهر التي تزول سريعاً وترك التكاليف الكثيرة والاكتفاء بما تيسر فكانت العادة سابقاً في الجزيرة العربية في سجادة وجمل وما يشبه ذلك ثم يُذْبَح خروف أو تُنْحر ناقة تقدم قبل موعد الدخول بساعات وليس فيها شروط ولا تعقيد.

حفلة الزواج: هي رأس المشكل في هذه المنطقة وهي أعقدها وأشدها على الزوج وعلى أقاربه لأن تمكّن العادات والتقاليد في نفوس وطباع السكان واعتقادهم بأن مخالفتها عار تُعاب به القبيلة أو الأسرة ويؤثر على سمعتها ومنزلتها في المجتمع.

يبدأ الزوج وأقاربه بالإعداد قبل شهر أو أكثر ويهيئون المستلزمات من خيام وفرش وأثاث وأواني فهم في حالة إرهاق وتعب شديد لا يحسدون عليها ثم يحضر المدعوون وكل واحد معه شاة تساوي خمسمائة ريال أو أكثر (معونة) ويبدأ تجمعهم من غداء يوم الأربعاء ويستمر لعشاء الأربعاء وغداء الخميس وعشائه وغداء الجمعة وعشائها فيكون قد قدموا ست وجبات رئيسية أضف إلى ذلك وجبة الإفطار لكل يوم لمن كان بعيداً عن المدينة ولا شك أن عملية الطبخ وتكاليفه كثيرة تقدر بثلاثة آلاف ريال كما

---

(١) البقرة ٢٨٦.

أن الدعوة تشمل الأهل والجيران والأصدقاء والمعارف فهو ملزم بأخذ الاحتياط لأكبر عددٍ يمكن حضوره فيضطر إلى ذبح عشرة من الأغنام أو أكثر ويطبخ قدوراً من الأرز وإذا حضر وقت الوجبة فوجىء بالعدد القليل وهكذا في بقية الوجبات فيكون قد خسر خسارة مالية مع التعب والشقاء وذهب الطعام مع النفايات، فلا يستفاد منه وهذا العمل مخالف للتعاليم الإسلامية فإن الله تعالى نهانا عن الإسراف والتبذير ويقول الله تعالى: ﴿كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾[1] ويمكن البعد عن هذا الإسراف بحفلة صغيرة متواضعة في يوم الزفاف فقط فقد قال عليه الصلاة والسلام: «طعام أول يوم حق وطعام الثاني سنه وطعام الثالث، سمعة ومن سمع سمع الله به» وقد أولم رسول الله ﷺ على صفيه بسويق وتمر وقال لعبد الرحمن بن عوف أولم ولو بشاة.

الإعانة: الإعانة أمر مستحسن ومستحب يميل إليها الناس لما فيها من التكافل الاجتماعي وقد سأل أحد الأفراد الإمام أحمد بن حنبل فقال: إن لي قريباً فهل من صلة الرحم أن أستدين وأعينه أو أتركه فأمره بإعانته وقد أمر رسول الله أصحابه أن يجمعوا الشباب يريد الزواج وهو فقير فقال: «اجمعوا لأخيكم وزن نواة من ذهب» فجمعوا له وذهبوا به إلى القوم فزوجوه وقد سار على هذه السنة الحميدة بعض قبائل هذه المنطقة ولكن للأسف تطور الأمر إلى الإفراط وإلى تكليف الإنسان نفسه أكثر مما يطيق فقد كان يقدم مبلغاً رمزياً أو شاة إن استطاع حتى تطور الأمر الآن إلى تقديم الإعانة من الإبل حتى بلغ المقدم منها لزواج واحد وأربعين رأساً ولآخر عشرين رأساً وهذا فيه من المضايقة على المعين وعلى المتزوج لأنه مدان بها وهذه الحالة أسميها استنزاف مالي للمجتمع فهي عبء ثقيل على المتزوج وعلى المدعوين وتذهب هذه الذبائح هدراً لا فائدة منها علماً أن أغلب أهل الدعوة لا يزيد دخله على ألفي ريال ولا يخلو كل أسبوع من ثلاثة أو أربعة

(١) الأعراف ٣١.

متزوجين وفي نظره أن من العيب عليه أن لا يقدم المعونة (القود) ويذهب راتبه على هذه الحالة ويضطر إلى أن يستدين.

وهذا (القود) لا فائدة فيه وهو من الإسراف وقد يأتي بالقـود على كراهة للضيق المالي وكما قيل: «مكره أخاك لا بطل» وربما حـدث تنافس. والواقع أن هذه المعونة تذهب هدراً فلا المتزوج جمعها واستثمرها وسدد بها ديونه أو استهلكت استهلاكاً واقعياً أو احتفظ بها صاحبها فلم يستدينهـا وأني أرى أن حل هذه المشكلات والمعوقات يمكن في حملة واسعة في ترشيد الناس ووعظهم في المساجد وخاصة في خطب الجمعة وكذلك عن طريق الإمارة بإصدار تعميم تحدد الحفلة لليلة واحدة فقط وتعممـه على المراكز والأحياء داخل البلدة ويكون العمدة هـو المسؤول عنها أو شيـخ القبيلة وقـد سبق أن تكرمت الـدولة بمعـالجة الـرمي بالسـلاح الحي في الحفلات للزواج فلاقت قبولاً وارتياحاً وعدل الناس عنها علماً بأنها كانت عادة متبعة في الزواج، ونظراً لكثرة الأسلحة بعد حرب الخليج فقد عادت مرة أخرى، وكانت النتيجة أن حدثت مآسي كثيرة من إصابـة عن طريق الخطأ ثم قتل وقد قتل أحد الأفراد صباح زواجه فـأصدرت الإمـارة منعاً صريحاً التزم به الكثير.

الأعيــاد:

وفي الأعياد، ولا أعياد عندهم إلا العيدان الإسـلاميان عيـد الفطر المبارك وعيد الأضحى، وتُقام الزينة في البيوت والدور، وتضاء الأمـاكن العامة والطرقات، وتعد الإمارة في الأحياء ميادين فسيحة مزدانة بالأضواء. تقام فيها الألعاب الشعبية لعدد من أقاليم المنطقة لكثرتهم في تبوك ويُقام مركز أكبر للألعاب تشرف عليه الإمارة ويحضر جانباً منه الأمير أو من ينيبه.

وقد دأب الأمراء من آل سعود أو نوابهم بإقامة حفل إفطار في قصر الإمارة ضحى يوم العيد لأن الناس يتوافدون بعد الصلاة مبـاشرة للسـلام

على الأمير وتهنئته بالعيد ثم يقبلون على طعام الإفطار وفي صباح العيد تقفل الحوانيت، ويلبس الناس أفضل حللهم وترى الطرقات وقد ازدهت بالبنين والبنات الصغار في مرحلة الطفولة وقد أخذوا يتنقلون إلى بيوت الأقارب وهم في أجمل حلل ويلبس الرجال الثياب والغترة الحمراء أو البيضاء، والعقال الأسود اللون والعباءة ذات القصب الجميل، ويتطيبون بأفضل أنواع الطيب، ويحضرون طيب العود الذي يدار على الجلساء في مداخن صغيرة جميلة.

وفي اليوم الثاني يكثر خروج الناس في جماعات عائلية أو شبابية في رحلات إلى ساحل حقل، أو يخرجون إلى الأماكن البرية المجاورة.

وتجري السباقات بين الخيول وكذلك بين الهجن، وتحلى كلها بالزينة وينتقلون من مكان إلى مكان ويهزجون أهازيج الفرح وهم فوق خيلهم أو إبلهم ويكون السير متقارباً لا بقصد المنافسة إلا أحياناً، ولهم في الأعياد أغاني وحداء خاص يميل إلى الحماسة.

وفي الأعياد يتزاورون ويتآلفون ويكون البشر مرتسماً وتنحر الذبائح وتكثر الخيرات التي يقدمها كل بيت.

وفيها تلبس أجمل وأحلى الملابس ويكون الإعداد لها مسبقاً للرجال والنساء والأطفال.

وفي الليل يكون السمر حيث يجتمعون، فمنهم من يستمع إلى الأحاديث والقصص ومنهم من يؤدي الألعاب الليلية المتعارف عليها مثل (البدع) عند بني عطية و (الرفيحي) عند الحويطات وبلي، إضافة إلى الألعاب الشعبية الأخرى التي تناسب الأطفال والشباب والرجال والنساء فالكل له لعبة تناسبه وتكون النساء في معزل وستر عن الرجال.

والسباق في يوم العيد على الهجن أو الخيل له نظام خاص فإذا كان على الخيل فإنها تحلى بالزينة على السرج وعلى المقدمة.

أما الهجن فإنه يحمل عليها (الشداد) المركب وهو من الأخشاب الصلبة ذات القوة يتضمن مكاناً للراكب وأطرافاً يعلق بها ما يحتاج حمله مثل الخرج وله شقان صغيران توضع فيها الملابس الخفيفة وبعض مستلزمات السفر وهو مصبوغ بالألوان المتعددة، وله عدد من الأطراف الملونة التي تنتهي كل منها بما يشبه الوردة ويمتد من أعلى الدابة حتى يقترب من الأرض.

وكذلك توضع (الغرضة) وهي معلم جمالي يوضع على مقبض المركب الخلفي وتكون ملونة وممتدة إلى ما يقرب الأرض وهي أطول من الخرج أما في الأمام فتعلق (الدويرع) على الرقبة وهي مأخوذة من الدرع الذي يلبسه المقاتل غير أنها من الجلد المقسم إلى أقسام هندسية جميلة.

المقود أو الزمام ويسمى (الرسن) مصبوغ بعدد من الألوان وله معالم على شكل الورود ويشبك من خلف الرأس وأمامه وجوانبه.

الأماكن الترفيهية:

الخضرة والماء والمعلم الجمالي رموز الحضارة الإسلامية؛ اعتنى بها الآباء انطلاقاً من قصورهم ودورهم وتفننوا بتجسيم الحيوانات، وتلوين النوافير والحدائق المنزلية أو بالغوا في جماليات الدهاليز، وهي مداخل القصور وأوصوا بها؛ لأنها الصورة الأولى التي تعبر عن القصور وساكنيها، ومروان بن الحكم أول من قام بوضع البلاط في الطرقات العامة في المدينة المنورة، وجمال بغداد وروعتها وحدائقها، أمر يدعو إلى العجب، وفي زماننا المعاصر ازدادت أهمية الوسائل الترفيهية لتحد من طغيان التقنية واستحواذ العقلانية، وصخب الحياة، لذا فإن الحدائق والتشجير والملاعب ووسائل التسلية ضرورية من متطلبات المدن، وأنزلوها منزلة الرئة من الإنسان، وفضلاً عن ذلك فإن تبوك أحوج ما تكون إلى الحزام الأخضر الذي يخفف من قوة الأعاصير الترابية الوافدة من الجهة الغربية والتي تحمل

الأتربة بكثافة كثيرة ومؤثرة، من أجل ذلك عمد ولاة الأمر ورؤساء البلديات إلى ابتهال كل قطعة أرضية غير مملوكة ووضعوا المعالم الجمالية فيها، وغرسوها بالأشجار الجميلة، كما وضعت أماكن للزراعة في الطرقات المستحدثة وقامت بزراعتها بألوان الورود والأزهار.

واعتنت بالمعالم الجمالية في جميع الطرقات داخل المدينة، ووزينتها البلدية بالنوافير والمعالم الجمالية، والنافورات الملونة والعالية حتى بلغ عددها أكثر من ٣٢ نافورة، وأولت الأحياء رعايتها فجعلت في كل حي من الأحياء حديقة لتفيض على الحي بالجمال، ويتنفس فيها الأهالي وهي أكثر من ثلاثين حديقة بعضها زرع والبعض الآخر ينتظر، ومن الحدائق ما هو أكبر وأعم فيأوي إليه أهل المدينة كمثل حديقة الملك عبد العزيز التي تحتل مساحة كبيرة في قلب المدينة. وتحتوي كل حديقة من الحدائق على ألوان من ألعاب الأطفال إلى جانب أرصفة لسير المشاة.

ومن المشاريع ذات الأهمية وذات الحياة النابضة المشروع الترفيهي لحرم سكة حديد الحجاز بتبوك التي تفصل المدينة إلى قسمين كبيرين وتخترق المدينة من جنوبها حتى شمالها، ويتراوح عرضها ما بين ١٣٠ إلى ٢٥٠ متر، وتتجه العزيمة إلى تكوين مسطحات خضراء ومسطحات خرسانية، ورخام على شكل دوائر، وبناء مخيمات من النوع الثابت ومسطحات مائية وممرات للمشاة، وحديقة للحيوانات، ومركز حضاري للمحاضرات والندوات، وأفنية للاحتفالات الشعبية، ومكتبة عامة، ومتحف يجمع آثار المنطقة، ومن الخير إيجاد الخدمات الضرورية مثل الهاتف والبريد والأكشاك، والمطاعم الخفيفة.

وعمدت البلدية إلى الجهة الشمالية من حرم السكة فأخذت بإنشاء المسطحات الخضراء وتركيب المظلات، وبعض ألعاب الأطفال وعليه إقبال من الأهالي بكثافة كبيرة الأمر الذي يدعو إلى مواصلة الجهد وإنجاز المشروع متكاملاً ولو كتب له ذلك لجعل من تبوك لوحة فنية.

وقد أخذت البلدية بترميم القلاع التركية الممتدة بمحاذاة السكة الحديدية فانتزعت عنها القرميد الأحمر المتهالك ووضعت آخر جديد، ونزعت الأحجار المتداعية وجعلت عليها أرقاماً لتعيدها في مكانها الأول، وشرعت بإصلاحها من الداخل ليستفاد منها، وعملت على تجميل مداخلها، ووضعت الأرصفة حولها.

وكذلك فعلت بالقلعة القديمة لتبوك حيث أعادت بناء المتهدم وأنشئت متنزهاً قريباً منها.

أما الحزام الأخضر فإن الدراسة الاستشارية فيه نسمع عنها من القديم وكانت تكلف أربعة آلاف ريال ثم أربعين ألف ريال حتى بلغت الملايين، غير أن الأمير عبد المجيد لما رأى من تأخره فإنه شرع بالمشروع بأن وضع عمالاً يزرعون الأشجار الثابتة على شكل غابة وكتب لها النجاح وهي مظلة وإحدى الحواجز المفيدة لمدينة تبوك من الجهة الغربية ولكن تحتاج إلى مزيد من الرعاية والإشراف والتوسع، وحبذا لو استفادت البلدية من مياه الصرف الصحي وقامت بمعالجتها وتنقيتها أو الاستفادة من مجاري المدينة العسكرية ووزعتها عن طريق المجاري الضخمة على المزارع المجاورة، وقامت بزراعة ألواناً من الأشجار حول المدينة وبذلك تستفيد من المياه التي تذهب هدراً وأحدثت أضراراً لوجود طبقة تمنع تسرب المياه للأعماق. ومن أكبر المشاريع الترفيهية، الأستاد الرياضي في تبوك الذي يستوعب أكثر من عشرة آلاف نسمة ويحوى على ميادين لألوان الرياضة كملعب كرة القدم. ومسابح وغيرهما.

الجمعيات الخيرية

وقد تأسس فيها عدد من الجمعيات الخيرية ومنها:

١ ـ جمعية الملك عبد العزيز الخيرية:

تأسست عام ١٤٠١ هـ برئاسة صاحب السمو الملكي الأمير عبد المجيد بن عبد العزيز، وقامت بعدد من الأعمال الخيرية طوال السنوات الماضية، ولا زالت تواصل أعمال الخير، وقد أسست روضة أطفال ومدارس أهلية ذات مستوى جيد، وكذلك معهد للصم والبكم وهذا المعهد ضم أخيراً إلى وزارة المعارف. وقد وضعت لها أهداف أهمها: تقديم العون والمساعدة العينية والمالية إلى الأفراد والأسر الذين تثبت حاجتهم واستحقاقهم بعد إجراء بحث اجتماعي لهم على ضوء الحالات الآتية:

أ ـ المرض أو الوفاة أو العجز أو ما يشبه ذلك.

ب ـ الكوارث التي يتعرض إليها الأفراد والأسر كالحريق والسيول وتهديم المنازل والحوادث ذات النتائج السيئة أو غيرها من الحالات المشابهة.

ج ـ الاشتراك والمساهمة في المشروعات الخيرية مثل (معونة الشتاء أو كسوة العيد).

د ـ المساهمة عن طريق تقديم العون المالي في نظافة أماكن العبادة ومغاسل الموتى وما يشبه ذلك من أعمال خيرية.

هـ ـ المساهمة والمشاركة عن طريق إصدار نشرات صحية لتجنب الأفراد والأسر من عدوى الأمراض المنتشرة.

و ـ المساهمة والمشاركة وتقديم المساعدات لأي مشروع ترى الجمعية أنه ذو أهمية بالنسبة للوطن والمواطنين ويتفق مع أهداف الجمعية المشار إليها أعلاه.

ز ـ تنظيم مشروعات ترى الجمعية أن الهدف منها تقديم خدمات اجتماعية وثقافية للأفراد والأسر كبرامج الأمومة والعجز والطفولة وما يشبه ذلك[1].

٢ ـ جمعية الملك خالد الخيرية النسائية:

تأسست عام ١٤٠١ هـ برئاسة حرم الأمير عبد المجيد بن عبد العزيز الأميرة سارة العنقري وتهدف إلى إعانة الأسر وتعليم المرأة لعدد من المهن:

مثل الخياطة والتدبير المنزلي وتعليم اللغة الإنجليزية وقد عمدت إلى الأسواق الخيرية وكذلك طلب زيادة عدد من الأطباء للمنطقة وتقوم بجهد تشكر عليه.

٣ ـ الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم:

مواكبة لانتشار الوعي الإسلامي والعمل على نشره، وتعهد شباب البلاد بمدارسة القرآن وحفظه، فقد قامت الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم، في تبوك عام ١٤٠٣ هـ وصدر الترخيص لها في عام ١٤٠٤ هـ برئاسة فضيلة الشيخ عبد العزيز الحميد، والجمعية قدمت خدمة متواصلة للقرآن الكريم في مدن المنطقة فهي القائمة على تدريس القرآن الكريم في المساجد على شكل حلقات بلغ مجموع المنتسبين إليها (١١٢٩) طالباً،

---

(١) التقرير السنوي، السنة السادسة ١٤٠٦ ـ ١٤٠٧ هـ ص ٣.

وقد عملت لها بعض الموارد الذاتية مثل المكتبة الإسلامية ومثل هذه الجماعة نتمنى لها من الأعماق البقاء والخلود، ومواصلة المسيرة فهي نور القلوب وحافظة التوازن والاعتدال لشباب الأمة.

٤ ـ لجنة أصدقاء المرضى في منطقة تبوك:

إن الهدف الأساسي للجنة أصدقاء المرضى هو هدف إنساني واجتماعي حيث ينطلق من مبادىء عقيدتنا الإسلامية السمحة التي تدعو إلى الرحمة والتراحم وانطلاقاً من ذلك يمكن تفسير القواعد التي وضعتها اللجنة كخط عمل لها يمكن إدراجه وفق التفسير التالي:

١ ـ زيارة المرضى في المستشفيات وتقديم الهدايا والورود لهم في المناسبات والأعياد إضافة إلى الزيارات الدورية اليومية المعتادة.

٢ ـ دراسة أحوال المرضى الاجتماعية والمادية للمشاركة في إيجاد الحلول لها كالمساعدات المادية والعينية لأسر المرضى المعدمين.

٣ ـ التنسيق مع الضمان الاجتماعي في دراسة أحوال المرضى المنقطعة بهم السبل.

٤ ـ مساهمة اللجنة في تخفيف العبء على المرافقين لهم إذا كان المرافق من خارج مدينة تبوك وفي حاجة إلى معونة.

٥ ـ ترتيب أولويات الإعانة للمرضى حسب حالة المريض الصحية ودرجة خطورة حالته من عدمه ويكون ذلك على ضوء التقارير الطبية للمريض.

٦ ـ إتاحة الفرصة للمريض لشرح شكواه والتي قد تكون بداية حالات نفسية نتيجة قلق على معيشته أو ظروف صعبة يمر بها وتحيط به والمساعدة على حلها.

٧ ـ المساهمة مع إدارة المستشفيات عند الحاجة في الحصول على فصائل الدم النادرة.

٨ ـ الاستفادة من برامج وزارة الإعلام ووزارة الصحة في التوعية الصحية.

٩ ـ طبع النشرات والكتيبات الخاصة بالتوعية الصخية في المناسبات مثل الأسبوع الصحي والمناسبات الصحية الأخرى.

١٠ ـ يحق للجنة إضافة ما تراه من أعمال تعتبر متممة لأهدافها ومحققة لرسالتها الإنسانية.

---

(١) ألقيت في حفل منظمة التحرير بتبوك في ١٤٠٧/٦/١٣ هـ.

الفصل الثالث

الحياة الفكرية والأدبية

الحياة الفكرية

المتأمل في بداية النهضة الفكرية والأدبية في المنطقة يرى أن أهم العوامل في تناميها الأمن الذي مدّ ظلاله على المنطقة في العهد السعودي حينما توحدت البلاد في عهد الملك عبد العزيز رحمه الله عام ١٣٥١ هـ، وقد صحب الأمن الاستقرار والهجرة من البادية إلى الحاضرة فألتحق الأبناء بالمدارس، وتوافد إليها الكثير من أبناء الجزيرة من نجد والحجاز والجنوب وفيهم المتعلم والمثقف ومن القضاة والعلماء والأمراء ومنهم الضباط الذين نالوا حظاً من الثقافة هؤلاء كان لهم سهم في مسيرة التعليم والتثقيف، ثم افتتاح المدارس وانتشارها، وما صحبها من وجود الكتب، ومن وفود المدرسين من البلاد العربية.

ومن العوامل الأخرى في تكوين النهضة المعرفية سهولة المواصلات، واتصال البلاد بالأقاليم داخل الجزيرة العربية، والمدن الرئيسية، فقد قام الطريق البري الدولي من مكة المكرمة والمدينة المنورة حتى تبوك ومنها ينفذ إلى المملكة الأردنية الهاشمية وبلاد سوريا ولبنان مما يسر وصول الكتب والمجلات والصحف.

ولم تلبث المنطقة أن استقبلت الصحف وأخذ بعض الشباب يقوم بمراسلتها والكتابة فيها، ثم ازدهرت مدينة تبوك وتطورت وأصبحت عاصمة للمنطقة الشمالية الغربية، فكثرت المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية

وبعض المعاهد مثل المعهد العلمي وكلية التربية للبنات وكلية إعداد المعلمين، وصحب هذه المعاهد والكليات تواجد فئة من العلماء الأفاضل الذين قاموا بحركة علمية منظمة وتوجيه جيد لأبناء المنطقة وكانوا يوجهونهم للمجلات والكتب والقصص الأمر الذي جعل كثيراً من الشباب يتجه للكتابة وملاحقة الإصدارات الحديثة وكثيراً من هؤلاء المعلمين يقول الشعر وينظمه ويتذوقه فيتأثر به تلامذته بل تجاوز الأمر لأن يعلمهم أصول العروض والقافية ويمرنهم على النظم وإني لأذكر منهم الأستاذ أحمد مكي الجيلي فكان شاعراً أزهرياً عالماً، وأخذ يقرض الشعر، ويطلب من تلاميذه معارضته وربما يكون إيجاز بيت أو تخميس وهكذا وكان من أبنائه الشاعر مسلم فريج العطوي، ومن الأساتذة الذين كان لهم دور في المنطقة والحركة الأدبية الأستاذ محمد أمين قره علي المدرس في معهد تبوك العلمي والذي يتحلى بأخلاق فاضلة وصلاح وتقي وعلم وافر ويقرض الشعر فكان يتأثر به التلاميذ والشباب ويعلمهم قول الشعر ويطلب منهم الممارسة وتكرار التجربة.

وهؤلاء لم يكن همهم التعليم فحسب وإنما كثير منهم شعر بالنهضة السعودية وعاش تطورها، وأحب المواطن وتفاعل معه، وألف البلاد وأهلها وانطبع ذلك في تجاربهم الإبداعية كثيراً فقد وصفوا التقدم العمراني والزراعي والصناعي والعلمي والتعليمي، وقد ظهرت انطباعتهم في قصائد شاركوا بها في المناسبات الوطنية وهي كثيرة جداً غير أن جمعها يصعب الآن وأذكر منها قصيدة (فكر وعرفان) للأستاذ محمد أمين قرة علي ألقاها في قاعة المعهد العلمي بتبوك أمام الأمير عبد المجيد لعام ١٤٠٢ هـ ١٤٠٣ هـ. ويقول فيها:

هذي تبوك تَبُكُ من خيراتها ... فالأرض نشوى والعطاء نماء
من كل دانية الثمار كأنها ... والزهر يسكب عطرها الفيحاء
شهد العداة بنهضة جبارة ... والحق ما شهدت به الأعداء
سعدت تبوك بخيرها وأميرها ... ولها بفضل جهوده إنماء

قــد صيــر الإعمــار فيهــا جنــة غنت بحسن جمــالهـا الــورقــاء

هـذي تبـوك قصــورهـا في جنــة وهــواؤهــا عــنــد السـقـيـم دواء

ونميـرهـا العـذب الفـرات كـأنـه عنــد المناهــل رحمــة وصفــاء

صــافيتهـا حبـاً وبـادلني الهــوى فيهـا الـكـرام لأنهـم سمحـاء

أهدى الثناء ـ بما نظمت ـ لأهلها فبنــو عــطيــة كـلهـم كـرمـاء

فيهم طمــوح ثـقـافـة وحضـارة ومــن الـبـداوة فـطـنـة وذكـاء

عـاشرت منهم من أحب فجادني مــنــهــم وفـاء صـادق وإخـاء

لمـا رأى الـرحمن حسن فعـالهم وبـدا صـلاح بيـنـهـم ودعـاء

أهــداهم عبـد المجيـد أميـرهم فـتـأزرت مـن فـضـلـه نـعـمـاء

ومنهم الدكتور محمد الشنطي الذي ظل مدرساً في ثانوية تبوك حتى حصل على درجة الدكتوراه وكان يوجه الطلاب للأدب وكتابته ومنهم الشاعر الدكتور عبد الجبار الزيدي سوري الجنسية وله عدد من القصائد يصف بها تبوك والطبيعة فيها. وقد ساعد على التوعية الثقافية والمعرفة وجود المكتبات فقد افتتحت وزارة المعارف المكتبات في المدارس والمكتبة العامة ومن المكتبات العامة في تبوك الآن:

١ ـ المكتبة العامة وهي تحوي على كثير من الكتب المهمة غير أنها ينقصها التنظيم ويرد إليها كثير من الكتب والدوريات ويؤمها الشباب للاطلاع.

٢ ـ المكتبة النسائية أسسها الأمير فهد بن سلطان، ولها مبنى جميل في حديقة الملك عبد العزيز بالمهرجان.

٣ ـ مكتبة المعهد العلمي وتحتوي على كثير من المراجع والمصادر الدينية والأدبية وهي منظمة تنظيماً جيداً.

٤ ـ مكتبة في قيادة المنطقة الشمالية الغربية وفي النوادي مثل نادي الضباط ونادي القاعدة الجوية ومدرسة المدرعات.

٥ ـ مكتبة كلية التربية للبنات، وتحتضن عدداً من المـراجع في مختلف التخصصات.

٦ ـ هناك مكتبات في بعض مدارس تعليم البنات.

وقد قامت في تبوك عدد من المكتبات التجارية التي تؤمن الكتاب وتزخر بعدد من الإصدارات الحديثة وهنـاك عدد من المكتبـات الخاصـة المشتهرة في المنطقة مثل مكتبـة علي محمد العـامري وغيـره من الذين حصلوا على التعليم الجامعي.

● وقد وجدت المطبعة في تبوك على شكل فـردي من الدوائـر الحكوميـة، والمـدارس وقد أخـذت الإصدارات تـأخذ شكـل المجلات والـدوريـات وبالذات المدرسية وهي تميـل إلى الثقافـة والمعرفـة أكثر من ميلهـا إلى الإعلام والدعائية.

ثم افتتحت المطابع الحديثة ذات القدرات العالية مثل مطابع مدرسة المدرعات التي أسهمت إسهاماً جيداً في كل ما يؤدي إلى الخير والمعرفة وطبعت بعض الكتب الصغيرة والدوريات والنشرات والتقارير السنوية عن الجمعيات.

ومنها المطابع الخاصة ذات القدرة الجيدة والمستوى الـرفيع وكـان أقدمها مطابع الرحاب، ومطابع الشمال ومطابـع العادل ومـطابع الغـريض وكلها ذات إمكانيات جيدة قادرة على طباعة الكتب الجيدة.

ومن المؤثرات في الحركة الفكرية والأدبية في تبوك توافد الكثير من رجال الفكر والعلماء والأدباء وأساتذة الجامعات إلى تبوك وانتظام كثير من الندوات والمحاضرات وقد أسهمت إدارة الدعوة والإرشاد باستقدام الكثير من رجال العلم إلى المنطقة وكذلك جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية فهي تبعث بالكثير من العلماء والأساتذة إلى زيارة المعهد وزيارة المنطقة

وإلقاء المحاضرات والندوات مع وفود من طلابها، وقد أقام معالي مدير الجامعة الدكتور عبدالله التركي عدد من الندوات والمحاضرات في قاعة المعهد العلمي وقاعة المحاضرات في قيادة المنطقة ومن أوائل من حضر الشيخ محمد الراوي وأبو بكر الجزائري، والدكتور عبدالله المصلح، والشيخ عبد المجيد الزنداني، والشيخ أحمد محمد جمال والشيخ عبد العزيز المسند، والدكتور مصطفى محمود إلى جانب كثير من المحاضرات والندوات التي تقام في المعاهد والنوادي الرياضية والمسارح المدرسية.

والصحافة السعودية لها دورها في إثراء الفكر والأدب بما تنشر للكتّاب والشباب في المنطقة ولها كثير من المكاتب الفاعلة والتي تستقطب المواهب والقدرات الأدبية.

كل هذه الأمور تمثل العوامل الناجحة في النهضة الأدبية والفكرية في المنطقة حيث وجد فيها عدد من الأدباء والكتاب والمؤلفين، والشعراء والذين يميلون إلى كتابة القصة والمسرحيات وقول الشعر، وأشهرهم علي محمد العامر الذي أتمنى أن يجمع مقالاته في الصحف ويصدرها في كتاب فهي تمثل التطور الحضاري لمنطقة تبوك.

ومنهم من اعتنى بالتربية كالأستاذ محمد صالح المنيف مدير الثانوية المطورة بتبوك، فله كتاب (نظام التوجيه التربوي في المملكة العربية السعودية). وله مخطوط بعنوان (تطور طرق التربية عبر العصور الإسلامية).

وللأستاذ عبد الفتاح الريس مشاركات صحفية يغلب عليها الاتجاه التربوي.

ولي بحث بعنوان (دور التربية في تنمية الطفل السعودي) شاركت به في ندوة (الطفل والتنمية) التي أشرفت عليها وزارة التخطيط وقد نشر البحث ضمن مجلدات البحوث التي نشرتها الوزارة في ستة مجلدات. ولي محاضرة بعنوان (التوجيه التربوي) طبعتها إدارة التعليم في القصيم.

ومنهم الدكتور موسى مصطفى العبيدان عضو هيئة التدريس في كلية إعداد المعلمين بتبوك ورئيس قسم اللغة العربية فيها، وله كتاب (ضباء في الماضي والحاضر،) وله كتاب مخطوط رسالة الدكتوراه وله مشاركات صحفية.

ورجال الفكر والأدباء في منطقة تبوك بذلوا جهداً فكرياً لتطوير تبوك وإصلاحها عن طريق الكتابة في الصحافة، ومعالجة القضايا التي تصحب تنامي وتطور المدن، واتصلوا بالمسؤولين عن المرافق العامة، يشرحون المشكلات، ويقترحون الحلول وفق سياسة الدولة السعودية مفتوحة الأبواب، والقارىء للأدب في تبوك ومنطقتها يعيش الواقع الذي صحب تطور وتنامي تبوك...

ومن أوائل الصحفيين ما دل عليه الخبر في صحيفة البلاد عام ١٣٦٩ هـ... ويتضمن الخبر وصول الأمير خالد السديري إلى تبوك، وقد ذكر في الصحيفة أن الخبر صادر عن مراسلها (حسن شحاتة في تبوك) وقد استلم بعض إدارتها.

ومن الصحفيين المشهورين في تبوك: (علي محمد العامر)، وله مشاركات كتابية كثيرة في أغلب صحف المملكة مثل (المنهل)، و(البلاد)، و(المدينة)، و(الجزيرة)، و(الرياض)... وهو يعالج كثيراً من القضايا التي تمس المنطقة، ويتحدث عن تاريخها وتطورها، غير أن الرجل لم يجمع مقالاته في كتاب مطبوع، وله مشاركات شعرية في عدد من المناسبات الوطنية...

أدباء من منطقة تبوك

١ ـ مسلم بن فريج العطوي:

ومن الشعراء الأستاذ: مسلم بن فريج العطوي الذي نال البكالوريوس في كلية اللغة العربية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض في عام ١٣٩٥ هـ. وقد التحق بالدراسات العليا غير أن ظروفه لم تسمح له بمواصلة الدراسة حتى الآن..

وقد عاش في خضم المسؤولية الإدارية في إمارة منطقة تبوك...

ومن أوائل قصائده مطولته في (غزوة تبوك) وهي ملحمة طويلة ألقاها في إحدى المناسبات العامة، وقد أوردتها عند الحديث عن غزوة تبوك في الصفحات السابقة.

والشاعر فرد من أهالي تبوك الذين يسعون ويتمنون أن يكون الوالي لتبوك من الأسرة السعودية ليقوم بتنفيذ الحكم والإصلاحات، لما اشتهروا به من عدل وأناة، ومساواة للرعية، وتنفيذ للمشاريع ذات الحياة والحيوية، والجدوى الاقتصادية والإنمائية، فكان خبر تولي الأمير عبد المجيد بشرى سارة وخبر خير استبشر به أهالي المنطقة ولا سيما وهو أول أمير من أبناء الملك عبد العزيز، وقد عبر الشاعر مسلم العطوي عن هذه الفرحة بقوله:

بزغ الضياء من المشارق يظهر   والطير تهمس لحنها بل تجهر
عشب الوهاد تفتقت أزهاره   من أصفر يزهو عليه الأحمر

هبت صبا نجد فذي نفحاتها ... بنسيمها يشفى العليل الساهر
تلك الروابي بالثياب تزينت ... بالحب والإخلاص أضحت تزخر
اليوم يومك يا تبوك فزغردي ... عهد جديد بالحفاوة يجدر
كل الحناجر أطلقت أنشودة ... ونشيدها (عبد المجيد الظافر)
بالعدل والإصلاح يحكم بيننا ... عن ساعد الإيمان سوف يشمر

والشاعر شأنه شأن الشعراء الذين يستقون من الواقع المعاصر، ويرنون إلى المستقبل بنظرة إبداعية فيتمنى الأماني، لعلها تبلغ قلب المسؤول، فيلبي، وأحياناً يعلن الشاعر صراحة متناهية، يرضي بها الوالي، ويرضي بها الجمهور، فيجهر بالمطالب لا سيما والوالي في أيام ولايته الأولى، فيقول الشاعر مخاطباً الأمير في مستهل ولايته وبالتحديد في ١٤٠٠/٦/١٢ هـ:

وهنا مطالب نحوكم نفضي بها ... مَنْ غيركم بالبت فيها يجسر؟
أنتم لها والشعب هذا شعبكم ... من حبكم ترقى تبوك وتكبر
أين الميادين الفسيحة عندنا ... أين النوافير العظيمة تهدر
أين الشوارع وسعت أركانها ... من كل شتل في الرصيف تشجر
أين المصانع يكفهر دخانها ... أين الحدائق والحزام الأخضر
أين المشافي بالنظافة تعتني ... يشفي المريض ويستريح الخاطر

وقد لامست هذه الأبيات قلوب الجماهير فاعجبوا بها أيما إعجاب فكانت أمنية وطنية تحققت في بضع سنين.

وفي القصيدة يسدي الشكر والعرفان للملك خالد رحمة الله والملك فهد حينما كان ولياً للعهد والأمير عبدالله على ما اختصوا به منطقة تبوك من المشاريع والبناء والعمران:

الخالد المغوار يسقي جذرها ... بالفعل والرأي السديد يدبر
بالساعدين يقيم شامخ مجدها ... بهما الصعاب وكل خطب يصغر
اليمنى فهد للعلى متحفز ... واليسرى عبدالله ما يتأخر

وتبوك بوابة الشمال كما يحلو للبعض أن يسميها، قد استقبلت جمعاً كبيراً من الملوك ورؤوساء دول العالم العربي والإسلامي، فالملك سعود زارها في عام ١٣٧٣ هـ، وزارهـا الملك فيصل في ١٣٩٣ هـ والتقى بالملك حسين فيها، وزارها الملك خالد وشهد شاعرنا هذه الزيارة وهتف بشعره معبراً عن لسان الحضارة التي أرست قواعدها في تبوك ومنطقتها ضمن الكيان الكبير لبلادنا الغالية:

الخالد اليوم يرعى الشعب عن كثب ... الشب والشيخ حول القائد التحموا
تزهو تبوك على البلدان وافتخرت ... أضحى يرفرف في أجوائها العلم
ثوب قشيب ترامى في خمائلها ... ريا يداعب حينا ثوبها النسم
كل الحناجر تشدو اللحن مذ هبطت ... مواكب العز والأمجاد بينهم
أما القلوب فرفت تحت أضلعها ... فالود والحب في الأجواف يضطرم
الكل يهتف بالتكبير مبتهجاً ... إن كان عيد فإن اليوم عيدهم
الله أكبر ما أبهى سعادتنا ... الغيث ينزل في صحرائنا يسم

والشاعر بعد أن تمنى، ورأى أمانيه تتجسد أخذ في رسم لوحاتها مشيداً بالأيادي الكريمة التي بنت وأشادت هذه الحضارة الشامخة.

فيقول في الملك فهد:

يا نهضة الخير عمت كل ناحية ... في كل صقع ينال الفرد إحسانا
الفهد يرسم بالتخطيط رفعتنا ... يرعى البلاد وبالتوجيه يرعانا
دستوره العدل والإسلام شرعته ... من حاد عنه لزيغ نال خسرانا
رأى سديد وعبدالله ساعده ... عند الملمة يدعو الشهم سلطانا

وفي القصيدة يصف تبوك:

تكلم تبوك تثنت في خمائلها ... أضحى الأديم بثوب الوشى مزدانا
كم من حدائق سر العين منظرها ... أسدت إلينا شذى عطر وأفنانا
كم من مصانع شيدت في مرابعنا ... كم من مدارس إذ ما العد أعيانا

ومن القصائد التي ترسم لوحة الحضارة من جميع شرائحها، وتلقي

ظلالها على شريحة النهضة الزراعية قصيدته في موسم الحصاد في شركة تبوك للتنمية الزراعية في ١٤٠٤/٨/٢٢ هـ... بعنوان: (مناجاة مع حادي العيس).

يا حاديَ العيسِ تستهويه بيداءُ ... يمضي سريعاً تقود العيسَ وَجْناءُ
مهلاً رويدك إن البيدَ معْشبةٌ ... ارفق خطاك فهذي الأرضُ خضراءُ
إن كنت تعهدُ تلك البيدَ مقْفرةً ... تكسو البطاحَ ووجهَ الأرضِ صحراءُ
فاليوم أضحت بحالٍ لست تعهدُها ... يزهو بها الزرعُ والأغصانُ غنّاءُ
اهتزّ منها أديمُ الأرضِ مغتبطاً ... في لمحة العين زانت فيه أنْحاءُ
يا حادي العيس هل نجوايَ تسمعها ... فالصوت رجْعٌ وفوقَ الأرضِ أصْداءُ
إن كنت تحسَب هذا القولَ معجزةً ... صعْبُ الحدوثِ وما يحويه إطراءُ
فانظر تبوك تباهي اليوم منظرها ... كما تباهت بثوب الدل حسناءُ
تلف الحقيقةَ للأبصار واضحةً ... ما تشهد العين للبرهان أجْلاءُ
فرشٌ رقيق من الديباج زينها ... مع وشي سندسَ والجنّاتُ فيحاءُ

* * *

هلاّ رأيتَ فجاجَ الأرضِ إذْ كسيتْ ... قمحاً تضيق به في الأفْق أرجاءُ
إمّا تمعّنْتَ تلْقى كلَّ سنْبلةٍ ... بالرأس تعلو شموخاً وهي شمّاءُ
إذْ ما غشاها نسيمٌ ثم داعبها ... مالت وعادت يشد الجذعَ أرساءُ
بحرٌ تلاطم في البيداء لجّتُهُ ... من شدة العمق لمرأى العين زرقاءُ
حين القطاف إذا الإيناعُ أبدله ... أغلالَ تبْرٍ، روابي الأرضِ صفْراءُ

* * *

أكْرمْ بيومٍ بدا والحفْلُ يشْهده ... يومٌ ستبقى له في النفس سرّاءُ
يومُ الحصادِ وذا يومٌ مآثره ... دوْماً سيُلفى لها في القلب إحياءُ
تشدو تبوك لهذا اليوم من طَرَبٍ ... نشْوى تغنّى كما تشدوك ورْقاءُ
من جدٌ فاز وراعي الزرع يحصده ... والأرض فيها من الخيرات نعْماءُ

إن السواعد تكسو الأرضَ خضرتَها — بالعزم تعطى وذاك العزمُ بنّاءُ

* * *

الفهد دوماً إلى العلياء قائدنا — فاضت على الشعب من أيديه آلاءُ

يبني ويعطي وعبدالله نائبه — ما يبتغيه من الأمجاد علْياءُ

للخير مسعاه وسلطان ساعده — أعْظمْ بسلطان إن تشتدّ هيجاءُ

سارت تبوكُ بدرب المجد قائدُها — عبدُ المجيد ولا تلهيه آراءُ

تزهو بفخرٍ ففيها اليومَ «تنميةٌ» — والاسم يعرف إن تخفاك أسماءُ

زادت بها أرضنا الخضراءُ رقعتها — صرحٌ عظيم لهذا الشعب إهداءُ

* * *

يا حادي العيس سر فالدربُ مؤنسةٌ — في كل صِقْعٍ لهذا النور أضواءُ

أمرر بحائل يرضى العين منظرُها — وفي القصيم لما ترجوه إيفاءُ

فالفهد ينشر في البلدان عزّتَها — لا يستطاع لما يوليه إحصاءُ

أبناءَ قوميَ ابنوا اليوم نهضتنا — أنتم جميعاً لبذْل الجد أعضاءُ

إنّا لدينا لنَيْل المجد مطلبه — لا تلهكمْ عن دروب المجد أهواءُ

الجدّ والبذل والإخلاص ثروتنا — والمال والآلة والأرض والماءُ

هبوا فلا عذر بعد اليوم ينفعكم — سيروا واعطوا فبذلُ الجد إعطاءُ

شيدوا مع الزرع للتصنيع أمكنةً — كيما يكونَ لهذا الشعبِ إكفاءُ

نبغي الحضارةَ تبنى من قناعتنا — لا نستكين لما يمليه أعداءُ

لا مجْدَ يرجى إذا الأقْوام قانعةً — ذكرُ الحقيقة لا يلغيه إخفاءُ

سيروا على النهج فالإسلام شِرْعتنا — لا عزّ إن صار للإسلام إقصاءُ

والشاعر يمنح شعره لكل من يمنح الوطن العطاء والجد والعزيمة والصدق ويعلل ذلك بقوله:

البذل والجد والإخلاص منهجنا — الكل يسعى لنيل المجد مرتغبا

يبقى الوفاء لنا طبع نلازمه — دوماً سنذكر من أسدى لنا أربا

من يفعل الخير لا يعدم مآثره — ما كان فعل لوجه الله محتسبا

وعلى هذا النهج فإنه يستقبل سمو الأمير ممدوح بن عبد العزيز أمير منطقة تبوك فيقول:

ممدوح حل ليرعى سير نهضتنا ... ممدوح عاد ليلقى حبنا كثبا
أهلاً قدمتم وهذا الجمع هنأكم ... من كل صقع إلى لقياكم اقتربا
طاب اللقاء صفاء الحب يجمعنا ... لا فرق يظهر بين الكل لا حجبا

ولم يحصر الشاعر مسلم شعره في حدوده المكانية ولا الزمنية، ولكنه انطلق يصدح بشعره على أغصان الحضارة في بلادنا، وأخذ يشارك الأمة الإسلامية في قضاياها المعاصرة، فيدعو إلى الخير وغرسه كقول في قصيدة بعنوان (نداء إلى الفتاة):

لهي الركيزة وهي نصف مجتمع ... وهي الأساس لما نبنيه من هرم
بنت وأخت وأم حيثما وجدت ... في كل فج من الأقطار والأمم
أس البناء إذا ألفيت موقعها ... إن شيد بيت بغير الأس ينهدم
النشء بين يديها حيث ترضعه ... ما تستقيه من العادات والقيم
أوصى بها الرسول خيراً ومرحمة ... كيما تزيد من الإعطاء والكرم
تلقى مناها وتلكم دربها فرشت ... وشيا تضمخ بالريحان والعنم
نالت من الحظ والتعليم أوفره ... في عهد فهد ببذل الخير والنعم
يعلي الصروح وعبدالله ساعده ... شادوا معالم للأمجاد والشيم
تلكم تبوك وذا ممدوح قائدها ... يمضي سريعاً إلى العليا والشمم
إيه فتاتي غذي السير واجتهدي ... إن الفلاح قرين الجد من قدم
فالعلم يرفع بيتاً لا عماد له ... والجهل يثبط بالآمال والهمم
إن المعالي لا تعطي أعنتها ... إلا لساعٍ لبذل الجهد مغتنم
هذي العقيدة لا ترضي بها بدلاً ... من حاد عاد على الخسران والندم
سيري على النهج فالإسلام منهجه ... فيه الدواء لما بالنفس من سقم
والدين أعلى سلاح حيث ترفعه ... نعم السلاح سلاح الدين في الظلم
بالطهر والعقل والأخلاق فامتثلي ... أضفي الحجاب وبالجلباب فاحتشم
إن الحياة بهذا العصر معترك ... لا بد دون وصول الشهد من ألم

اليـوم تلفي طبـاع حيث نـنكـرهـا ... جـاءت من الضعف والتقليد للعجم
أمـا عجمت من الأعـداء بهـرجهم ... تلقي قشـوراً فـلا تغنيـك من عـدم
لا يعجبنـك من الأعـداء مـوضتهم ... إن العـدو يـدس السم في الـدسم
ومـلة الكـفـر ضـد الـدين واحـدة ... كم كيـل منهم على الإسـلام من تهم

وتبوك عضو غالي من الأمة العربية وشاعرها يشارك الأمة الإسلامية والعربية أحزانها، ويئن تحت وطئة كوارثها، فيعيش مع أهالي بيروت وصيدا وطـرابلس تحت قصف المدافـع، وشـظف العيش، والتنـاحـر والـطغيـان الصهوني، وقد أحس بالمأسـاة في يوم من أيـام الأعياد، فتـذكر أحـزان المتنبي وقوله:

عيدٌ بـأيَّةِ حـالٍ عـدت يـا عيـد ... بمـا مضى أم لأمر فيك تجـديـد

والآم المتنبي فـردية والآم شـاعرنـا جماعيـة فيقـول: . . . (قصيـدة العيد) . .

مرّ على الشاعر أحد الأعياد المجيدة (عيد رمضان لعـام ١٤٠٤ هـ على ما أذكر) وتذكر حال الأمة العربية فكانت هذه الأبيات:

أهـلاً وسهلاً قـدمْتَ اليوم يـا عيدُ ... يـزهو بـك الشيخ والشبّانُ والغِيدُ
هـلاّ رجعت علينـا اليـوم متزراً ... بمـا مضى أم بأمـرٍ فيك تجـديـدُ
أشـارك النـاسَ بـالأعيـاد فـرحتهم ... والقلب مني ضنـاه اليـوم تسهيـدُ
أنفـرح اليـوم بـالأطمـار نلبسهـا ... وإخوة الدين في بيروت قد بيـدوا
عـاث الطغـاة وفي لبنان صـولتهم ... للدّار هـدمٌ وللسكـان تشـريـدُ
بيروت فيها سعير الحرب مشتعلٌ ... صيـدا بها حـلّ بعد الأمن تبـديدُ
من قبل ذاك ربوع القدس كم صرختْ ... في أرضهـا حـلّ تـدميرٌ وتهـويـدُ
لن ترجع القدس بالأشعار ننظمها ... كـلّا ولا خـطبٌ تعلو وتهـديـدُ
في شطِّ دجلة فـرن الحرب متّقـدُ ... أفْغـانُ كابـل من أعـدائهم كيـدوا
في كـل دارٍ بها الإسـلام معتـركٌ ... تخطيط أعـدائنـا والحكم تـأكيـدُ
وملة الكفـر ضـدّ الـدين واحـدةٌ ... لا من صـديقٍ فيرجى منـه تـأييـدُ

يـا ويح قلبي أَمِـرْنا اليـوم لعبتهمْ مكْـر العداة ودسّ الكيـد مقصـودُ
كم من شكاوى إلى الهيئات نبعثها أوْلى بها التّرْكُ أو في الحفظ تأبيدُ
هـل هيئة الأمم العـزلاء نقصدهـا أم مجلس الأمن يكفي منه تنديـدُ
هل عطْف بيجن أم شـارون نأمَلهُ أمْ عدْل ريجَن أم متران إذْ نـودوا
في كـلّ يـوم و«فيليبٌ» بجُعْبتِـهِ حــلٌّ وربْط وإضْــدارٌ وتــوريــدُ
مِنْ قبلُ، هنري وذاك الغدر شيمتُه كم قلنا هذا لحلّ الخُلْفِ صنديدُ
يا أخوة العُرْبِ هل يرضي ضمائرَنا مـع كـلّ هــذا من الأحْـداثِ تحْيِيْــدُ

وفي قصيدته (نشيد العودة) ينسلخ الشاعر من فرديته ويدخل كوكبة الإنسان المسلم، ويغوص ليدخل في أعماق المسلم الفلسطيني العربي، فيزمجر بسلاحه ويصرخ من الطغيان لعل هناك من سامع ومغيث، والحسرة تجري في دمائه، وقلبه يتفجر دماً، والحماس يتجدد مع كل خلية من خلايا جسمه، ويتنقل بين المدن الفلسطينية ليعود الجرح بالنزيف، ولتحيا جذوة الإيمان وحبه في قلوب شبابنا وينشأ حبها مع أبنائنا، وتبوك ليست بذات البعد المكاني ولا الزماني بل تتعانق مع فلسطين في الإخاء الإيماني لذا فإن شاعرها استطاع أن يبلور المجاهد الفلسطيني في هذه القصيدة(١):

هــذا نـدائِي بــالقضيــةِ يصْــدعُ في سَمْع من نشدَ الحقيقة يقْرعُ
اليــوم تعـلو للعــوالـم صـرْختـي من يسْتجيب لصيحتي من يسْمـعُ
يـا من سـألتَ لمن تؤُولُ أرومتي إنّي إلى مهــدِ الرســالـةِ أنْســعُ
إن تُـلْقِنـي ربّ الثيــابِ مُشـرّداً فــالقلب منّي فيــه نــورٌ يشْــطعُ
أنـا ليث غـابٍ قـد أُبيح عـرينُـه أضحتْ تعيثُ به البُغاثُ وترْتـعُ
وطني فلسـطينُ الجريحةُ موْئِلي فيهـا تـرغْــرغْنـا وفيهــا المَـرْبَـعُ
وطني فلســطينُ الحبيبــة دُنِّسـتْ لا بـالقريضِ ولا الخطابةِ ترْجِعُ
أبنــاءُ صهيــونَ الــلآمــةُ طبْعُهمْ شُــذّاذُ آفــاقٍ عـليــكِ تجـمّعُــوا

* * *

(١) ألقيت في حفل منظمة التحرير بتبوك ١٣/٦/١٤٠٧ هـ.

أنّى ذَكَـرْتُ فِعَـالهمْ في قَـرْيتي ... فـالقلْب يخْفِقُ والمحاجر تـدْمَـعُ
أنـا في كيـاني صـورةٌ لنْ أنْسَهـا ... يـوم استحـلَّ بهـا الغُـزاة وأوقعُـوا
هـدموا البيـوتَ على الرؤوس وشتّتـوا ... شَمْـل الأقـاربِ والثَّكـالى تُفْجَـعُ
بَقَـرُوا البـطونَ ويتّمـوا أطفـالنـا ... قتْـلًا وحـرْقـاً والمعـاقـلُ تُنْـزعُ
زيتـونتي في الـدار جثّـوا جـذرَهـا ... كـرْمُ الـدوالي بـالمجْترر يُقْـطعُ
مُسْتَعْمـراتٍ شيّـدوا في أرضِهـا ... كي يشْطبـوا تـاريخَهـا ويُضيّعُـوا
لا لن تضيعي يـا معـالمَ قـريتي ... لا زال رسْمُـكِ في فؤادي يُطْبَـعُ
لا زلْتِ تجـري في دمـائيَ حُـرّةً ... مـا دام قـلبي تـحْتميـه الأضْـلعُ

* * *

أين العـدالـةُ أين نَشْكـو ظُلْمنـا ... أين الضميـر العـالميّ فيـشْـرعُ
هـل هيْئةُ الأمم الضعيفـةُ مـأمـلٌ ... أمْ مجلسُ الأمْنِ المسيّـرُ ينْفـعُ
كم مـرّةٍ شجبـوا لنـا عـدوانهمْ ... كم من قـرارٍ في المحافـل يُـرفـعُ
لـكنّمـا العـدوان بـاقٍ جـاثـمٌ ... أفعـالُهم في كـلِّ يـومٍ تـفـظُعُ
«صبْـرا وشـاتيـلا» قـريبٌ عهـدُهـا ... في «دَيْـر يـاسينَ» المجـازرُ أبْشـعُ
يـا أمّـةَ الإسـلام لمّـوا صفّـكمْ ... إنَّ العـدوَّ بـأرضكـمْ مُتَـطمِّـعُ
حيفـا ويـافـا والخليـلُ تـطلّعتْ ... والمسْجُـدُ الأقصى إليكم يضْـرعُ
إنّـي فـدائِـيّ أعيش قضيّـتـي ... أسْعى لمجـدٍ بـالعـزيمة يُصْنـعُ
لم ينْفـعِ الغُصْنُ الـرّطيبُ رفعْتُـهُ ... كي يـرجعَ الحقُّ السليبُ الضّـائعُ
لم تبْق إلاّ البُنْـدُقيـةُ فـي يَـدِيْ ... لم يبْـقَ إلاّ مجْنـدي والمـدْفـعُ
نـادى المنادي بـالجهاد فحَيْعلوا ... والنصْـرُ حتْمـاً للمجـاهـدِ واقـعُ
أنـشـودتي «الـلّهُ أكْبـرُ» صيحـةً ... تُحْنَى لهـا هـامُ العِـداةِ وتخْضـعُ
قيثـارتي تشْـدو بـأعـذبِ لحْنهـا ... لمـا تـدوسُ على الزّنـادِ الإصْبـعُ
أحْلى نشيـدٍ أسْتطيب سمـاعَـهُ ... صوْتُ الرُّصاصِ على العدوِّ يُلعْلِعُ

* * *

وَصَمتْنِيَ الأعْـدَاءُ بـالإرهـابِ، لا ... أنا عن حقوقي في الـوجودِ أدافـعُ

أنــا صـامــدٌ لن أسْتكين لغـدرهم ... عن مبــدأ التحـريــر لا أتـزعــزعُ
فـالحـرُّ لا يـرضى المهـانـةَ طبْعُـه ... أمّــا الحقيـرُ فبـالمـذلّـةِ يَقْنـعُ
أنـا عائـدٌ والخَصْمُ يعرف صـولتي ... أنــا ثـائــرٌ ولمن طغَى لا أرْكـعُ
أنـا طعْنـةٌ نَجْـلاءُ نحـو صـدورِهم ... أنــا غُصَّــةٌ في حـلْقِهـم لا تُبْـلعُ
سـأحيلُهــا لَهَبــاً.يُحــرِّقُ جَمْعَهـمْ ... نيــرانُهــا تشْــوي البُغــاةَ وتــرْدعُ

* * *

لن يهنــأَ العيشُ الـرّغيــدُ منـالُــهُ ... كـلاّ وليس يـطيب منّي المضْجـعُ
إلاّ إذا دُحِــر الــعــدوُّ وجُــنْــدُه ... من كــلِّ شبــرٍ فـي ذراهــا يُقْـلعُ
إمّــا كسبْـتُ على ثــراكِ شـهــادةً ... فـوصيّـتي أنتِ، ودَرْبـي تُـتْبــعُ
أنتِ الأمــانــةُ مــع بنـيّ وجيـلهِمْ ... الـطفـلُ يحْفظ والغـلامُ اليـافــعُ
يا «فتحُ» إنّ القدسَ ترْقُبُ عـودتي ... إنّ شــاء ربّي عن قــريبٍ راجــعُ

والشاعر مسلم من الشعراء الملتزمين بالنهج الإسلامي، والحماسي الوطني سبيله سبيل شعرائنا من الرعيل الأول، فمجموعته الشعرية التي اطلعت عليها يتأكد لك من خلالها أن الشاعر دائم العودة إلى القيم الإسلامية، متمثلاً بها في كل مسرب من مسارب الحياة، وفي كل دعوة يدعو إليها، محب لمن يقيم شعائر الدين الحنيف، ينهج نهجة، ويستلهم تعاليمه.

أما العنصر الفني في شعره فإنه يعتمد على البحر والقافية والروي وصوره مستمدة من الواقع ويستمد منهجه في الصياغة والتراكيب من سياقات الشعر العربي المحافظ على الأصالة.

ويعتمد على التقريرية والوضوح ولا سيما أن موضوعاته ومضامينه تدعوه إلى الكشف والإضاءة، فهو ابن المجتمع، ويسطر ديوان حضارة، ويدعو إلى قيم عليا إنسانية، الأمر الذي جعل شعره يتسم بالوضوح وينأى عن نزعة الغموض أو الرمز.

٢ ــ سليمان المطلق:

ومن شعراء تبوك سليمان المطلق العميد المتقاعد المولود عام ١٣٥١ هـ في مدينة العلا. وعاش زمناً طويلاً في مدينة تبوك بحكم عمله الحكومي ولأنها عاصمة الشمال الغربي وأكبر مدنها، فأحبها وعشقها، وقام فيها بعد تقاعده ومنحها حبه، ووفاءه، وشعوره فاض بذلك من خلال شعره، يقول فيها:

تبوك يا لؤلؤة الشمال ... ويا نجمة الأفق المتعالي
لي فيك آمال عذاب ... وأخر تتلألأ كالآلىء
أضئن لي ظلمة النفس ... كما يضيء البدر سود الليالي
خرجن من الغيب عرائس ... وكنت أظنهن من المحال
أركبتني كتف الريح ... إن هبت جنوبية أو شمال
فيما استعصى على نسيمـ ... ـها وما فل إعصار حبالي
وكلما صافحت حسنا خـ ... ـطرت أنت يا تبوك ببالي
وأينما تلفتت عيناي أنـ ... ـى أراك ماثلة حيالي
من ذا يرى الشفق النا ... ري عند المغيب فلا يبالي
أنت يا وحي الملهمين و ... يا كريمة للبعيد وللموالي(١)

ويقول في قصيدة أخرى:

طابت تبوك وطاب الفال والأمل ... وجد يوماً به الأفراح تكتمل
وغردت فوق هذا الربع صادحه ... من الحمام ورفت فوقها الحجل
وأزهر الروض أفوافاً معطرة ... وصبحتها غواد نوؤها الهطل
وجاء فجر جديد النور مشرقة ... ضاءت به الدور والأرحاب والجبل
فمرحباً بك يا فهد بمنزلكم ... دار لكم منذ أجداد لكم أول
صيد أباة ميامين غطارفة ... بيض الوجوه على النجدات قد جبلوا

---

(١) سليمان المطلق، قبضة من أثر جميل ص ١٧٩.

شم العرانين غوث ما يماثلهم ... إلا الغمام وإلا الواكف الهطل
ففخم إنجازهم حتى نعيش به ... وصدق أخبارهم ما رابها دخل
هذي خطاهم وهذي الدرب دربهموا ... ساروا بها رجل يتلوا بها رجل
وذي بيارقهم خفاقة أبداً ... إذا خلا بطل قام بها بطل
ترادفوا المجد والأمجاد مركبهم ... على ذراها ليوم الدين ما نزلوا

وقد صدر للشاعر ديوان (قبضة من أثر جميل) ونهج نهجه في الغزل، وإن كان يفترق عنه في المنهج الوجداني، فجميل رائد الغزل العذري، ولا يتضح ذلك في شعر المطلق والشاعر المطلق لم يلتزم في بعض أشعاره بالأوزان العروضية وإن التزم بالقافية.

والشاعر سليمان المطلق شاعر يميل إلى الوجدانيات، وتغلب على ديوانه، وكأن الشعر روضة يفيء إلى ظلال دوحها من وهج العمل وحرقة المشاكل الاجتماعية التي يتصدى فيقول[1]:

خذي الحياة كلها بفرحة وفن
خذي الهوى جميعه وفي العلن
فليس للحياة قط مستكين للحزن
وليس للمنى والعيش فيها من ذعن
تبسمي
لئن تبسمي لسوف يفرح العمر[2]

والشاعر المطلق بعد إحالته للتقاعد اتجه إلى المشاركات الاجتماعية والمناسبات العامة فأخذ يسطر الأمجاد، ويشيد بالأيادي البيضاء التي تضع حجراً في الصرح الشامخ لحضارتنا فتحدث عن بناء المدينة السكنية لقوى

---

(١) قبضة من أثر جميل ص ١٧٩.
(٢) قبضة من أثر جميل ص ٩٦.

الأمن في تبـوك حينما افتتحهـا صـاحب السمـو الملكي الأميـر نـايف بن عبد العزيز وكذلك تحدث عن تبوك في قصيدة قالها في استقبال صاحب السمو الملكي الأمير فهد بن سلطان بن عبد العزيز أمير منطقة تبوك.

٣ ـ عبدالرحمن شعبان:

ومن الأدباء الكتاب المحدثين في تبوك الشاعر عبد الرحمن إسماعيل شعبان، مدير متوسطة أبي بكر الصديق، والشاعر شارك بشعره في كثير من المناسبات، فنظم كثيراً من الأناشيد لمدارس تبوك وللكشافة أيضاً وتتسم أناشيده بالروح الإسلامية والوطنية يقول:

الله أكـبـر يـا بـلادي رددي   وخذي البيارق في يمينك وانشدي

الله أكبر الله أكبر

وطـني الـحبيب مـا أزال مـهللاً   بـالمدح نحـوك بـالحسام وبـاليـد

الله أكبر الله أكبر

أنت الجنـان إذ الحنـان تـدفق   أنت الإضـاءة والسعـادة في الغـد

الله أكبر الله أكبر

أنـا الـهنـاء والـوفـاء والـكـرم   أنت المشـاء والقلوب لـك هـدى

الله أكبر الله أكبر

يـا موطن السعـد الكريم لـك يد   بـالعـز تعـطي والمـواطن تفتـدى

الله أكبر الله أكبر

حق علي أن أصـون محـارمـك   أحمي حمـاك من عـدو أو ردى

الله أكبر الله أكبر[1]

وصـدر للشاعـر عبد الـرحمن ديوان (ألـوان) ويمثـل مجمـوعـة من الهمسـات الشعريـة ضـم فيـه ثـلاث مجمـوعـات: الأولى تتضمن الشعـر الفصيح، والثانية الأناشيـد، وخص الثالثـة بالشعـر النبطي، وإن كنت لا أرتضى أن يضم اللغة العربية والعامية كتاب مكتوب ولا ديوان مدون.

---

(١) عبد الرحمن شعبان، الوان ٤١.

(٢) المرجع السابق ٧.

ومضامين شعره تناثرت في الحياة الذاتية من وجدانيات وسبحات ورثاء واجتماعيات يقول في قصيدة بعنوان (وجاءت العراف):

وجاءت العراف ترجو	نصرة الحب الحزين
فأزاح الهم عنها	بحجاب وفنون
غرها بالقول لما	هام بالعقد الحنون
قال مهلاً جردي لي	ساحة الصدر الحنون
أسلميني راحتيك	وامسحي فوق جبيني
ومضى الأعصار يجتاح	حماها لمنون
فأحست بخداع النذل	مفتول اليمين

والأستاذ عبد الرحمن ضمن طلبة العلم الذين تخرجوا تحت ريادة الأستاذ محمد ناصر الحامد الذي تخرج بين يديه عشرات العلماء والأدباء في المنطقة واشتهر بحزمة الإداري، وقدرة على القيادة التعليمية، مما أنزله منزلة خاصة في قلوب طلبة العلم رغم الشدة التي تجاوز الحزم أحياناً، وحبه بين الناس وإشادتهم به، دليل واقعي على نجاح الإدارة التعليمية الحازمة، رغم تنظيرات المنظرين يقول شعبان:

نجم هوى:

أسامر النجم في الآفاق أرقبها	ما أكثر النجم في صفو من السحر
أسائل الليل كم أمسى يسامره	طوق تناهت له الأحلام من بشر
أعطى وأجزل من قلب وحق له	أن تهجع العين بعد السهد والسهر
العمر ماض سريعاً في تتابعه	كأننا في خضم الخلق في سفر
فاترك يميناً لفعل الخير تفعله	واكبح جماحك في عين وفي نظر
نجم هوى من نجوم العلم منزلة	عليه حزني وما حزني على الخبر
يا من رفعنا بعالي الحب رايته	ما غبت عنا وإن غطيت بالحجر

الاسم بـاق بقاء العلم في الكتب محمـد الناصـر المعني في القـدر

سيعلم الجمـع أني اليـوم أذكــره ولم أكن قـد نسيت النقش في الحجر

نعم المـربي حـويت الخلق قمتـه صـدقاً أقـول بـلا زيف ولا بـطر

عاصرته من خلال الدرس مستمعا فكم جنيت عبيراً من شذى الزهر

إليــك ربي دعـانــا أن تكــافئــه عنـد الحسـاب بجنـات على نهـر

٤ ـ علي عمر باراجي:

وللأستاذ علي عمر باراجي ديـوان بعنوان: (وتسكن أهـدابي تبوك) والديوان يعتمد على قصيدة النثر. وشأنه شأن الشعـر الحديث ينـأى عن التقريرية ويلجأ إلى الكلمة المعبرة والكثافة الشعورية ويمازج بين الحواس ويبلور المعنى ويجعله ناظراً ناطقاً.

والشاعر حين يتحدث عن تبوك تفيض مشاعره بألوان الجمال وألوان العطر وترتاح إليها نفسه وتتجلى عنه همومه وتمتع ناظريه وتأسر خياله وينعم فيها بالعطاء ويتقبل التهاني وتطيب له الأماني والآمال وقد خص الشـاعر تبوك بهذه القصيدة:

ويسعى إليك مساء الغزل
يذوب جمالاً بشهد العسل
ربيعاً يعود.. بحلو الوعود
عروس تبوك.. تبوك الأمل

* * *

فؤادي يضوع بعبق الندى
ورمشي بلاد فيها تبوك
عزيز هواك كهذا الوطن
كخفقة قلب تعطي الحياة
وتمسح منها ظلال الشجن
هوايا تبوك.. تبوك الهوى

* * *

بديع هواك كنسمة بحرٍ
تضمُّ الهجير وتبقي الشذى
رقيقٌ هواك بعذب المياه

كقبلة عمرٍ فوق الشفاه
تشف انثيالاً بلحظة خشوع
دعاء الجوانح عند الصلاة
عشقٌ تبوكْ عطاء الإلهْ

* * *

شذاها العبيرُ وبوخ الخيالْ
وفيها الوصال محط القلوبْ
بشرى رسول لقلب معاذْ
هذي الجنان وحلم المحالْ
تبوكُ الشجرْ تبوكُ الثمرْ
تبوكُ الغلالْ

* * *

تبوكُ تبوكُ وتبقى رؤاكْ
سحر الوجود وسيف الحدودْ
تبوك الحديثة خير العطاءْ
تبوك القديمة عِزُّ الجدودْ

* * *

تبوح الخزامى أمير تبوكْ
تمدُّ الأيادي بروح العطاءْ
عروس الرمال بهذا الشمالْ
بكل التهاني وطيب الأماني
تبوك تزف لأغلى الرجالْ

* * *

٥ ـ هيام حماد:

ومن شعراء تبوك الشاعرة هيام حماد العطوي التي نالت بكالوريوس لغة إنجليزية وتمارس التدريس في مدارس تعليم البنات، وقد كتبت شعرها قبل أن تحصل على الشهادة الجامعية ونشرت لها معظم الصحف السعودية ومنها الرياض، الجزيرة، والندوة، والمدينة، وقد صدرت لها كثير من القصائد في صحيفة (الشرق الأوسط) ولا زالت ولها ديوان مطبوع وسم بعنوان (لحن في أعماق البحر) في ثمانين صفحة من القطع الصغير، وأغلب الديوان يحكي شعراً وجدانياً، ويصور تجربة الشباب الفورية التي يندفع إليها من كان في مثل هذه السن، والذي يتبلور بوضوح أن التجارب الوجدانية في الديوان كلها توجه سهامها نحو العلاقة الزوجية فهي المطلب الأول تقول الشاعرة في قصيدة بعنوان (لماذا أتيت):

لماذا قتلت الهوى واختفيت
وأحرقت قلب الدنا حين جئت
وأنت الذي في النوى قد بدأت

* * *

وبت مع الليل وحدي أغني
لكأني ملكت الأماني العذاب
وقد غاب عني بأني أغني سراباً..
سراب..

---

(١) هيام حماد، من أعماق البحر ٤٩.

والأماني وسيلة للشباب ورغم أنها من صنع الخيال غير أن الإصرار والعفة والاعتصام الديني لا يفرقان شباب بلادنا الحبيبة:

أحـبـيـبـاً تـتـمـنـى أن تـكـون
يـا غـريـبـاً في حيـاتي قـد تكـون
ربـمـا تـعـرف أنـي لا أخـون
أحـفظ الـود على مـر الـسـنـيـن
إنمـا حبي عـذاب وضبـاب وسجـون
وتـحـد وعـنـاد جـنـون[1]

وقد صدر للشاعرة ديوانها الثاني بعنوان (قارب بلا شراع) في مائة صفحة من القطع المتوسط، والديوان يمثل مرحلة النضج الفكري حيث أخذت تنزع إلى معالجة القضايا العربية التي يوحي بها الواقع المرير للأمة العربية، فصرخت كما صرخ غيرها من الشعراء في قصيدة (كفى حرباً):

كفى يا سادة العالم
كفى ظلماً...
كفى قولاً
خطابات بلا معنى
وأوراق بلا معنى
تجوب موائد الدنيا
تلوك مصيرنا الأعمى[2]

ومنه قصيدتها (فلسطيني كحد السيف).

---

(١) المرجع السابق ٧٥.
(٢) هيام حماد، قارب بلا شراع ٣.

فلسطيني كحدّ السيف:

... لقد كانت بعظم الصدر محفورةْ

... شعوري لم يزل يكبرُ

برغم الريح.. والأعصار.. والخنجرْ

وعشقي للتراب الحر قد أزهرْ

بلونِ الدمِ اسطورةْ...

* * *

... لقد كانت بعظم الصدر محفورةْ

فلسطيني كحد السيف هل تسمعْ...؟؟

فلسطيني كنجم الليل لا يهجعْ...

.. ولو عاشت أفاعي الغدر في أرضي..

فلن أركعْ...

... فهذي الأرض تدعوني

... نداءُ يحرقُ الأبعادَ يأتيني

وما زال النداءُ الحُر يجري في شراييني

* * *

.. أنا لا شيء يا أما

إذا لم أطعن الظلما...

بسكيني التي غاصت بها كفي

سأمحو العنفَ بالعنف...

* * *

جذوري في عروقِ الأرضِ مخضرةْ...

على أرضي هنا أحيا...

مع الرشاش والمديةْ

... وأحمي المسجدَ الأقصى

عدو اللّهِ لا تقربُ...

أنا البركانُ إنْ أغضبْ

* * *

فلسطيني كسهم الثأرِ كالجمرةْ. . .

عرينُ الليثِ لي خيمةْ

أنا من يسحق العتمةْ. . .

أنا الماضي. . .

أنا الآتي. . .

أنا التاريخُ والثورةْ[1]

ولها قصيدة (أحلى الصبايا سوف تشنق):

. . . . بيروت تبكي مثل طفل يا عربْ

الدمع في العينين رمز للغضبْ

بيروت تهوى من كيان الشرق يا شرق العجبْ

* * *

ماذا فعلنا منذ إعلان القتالْ. . .؟؟

ماذا فعلنا يا رجالْ. . .؟؟

البعض منا قد أطال الصمت لا ينوي الكلامْ. . .

والبعض لا يهوى القتالْ. . .

يا أمة نامت على الضيم المغطى بالركامْ

يا أمة أخفت وجوه العار في ثوب الظلامْ

يا أمة أوجاعها حتى العظامْ. . .

الدور قد يأتي لإيقاظ النيامْ

* * *

---

(١) هيام حماد، قارب بلا شراع (شعر) ٢٩.

ماذا تبقى غير أشلاء الضحايا...؟
ماذا تبقى غير أنفاس البقايا...؟
... وارتعاشات الصبايا

* * *

الموت يحصد كل طفل في شوارعها الحزينةْ
والنار تكوي كل أحياء المدينةْ...

* * *

يا خزي نفسي حين ألقاني إلى الشرقِ
انتمائي... بأماني وبؤسي

* * *

أحلى الصبايا سوف تشنقْ...
أحلى الصبايا سوف تحرق ثم تسحقْ
ما عدنا نحتاج الوصايا والحكمْ
ما عدنا نخشاه الألمْ...
بيروت تأبى الذل يا ذل الندمْ

* * *

هل يكتب التاريخ عن عار الزمانْ...؟
عن قتلنا.. وذلنا.. في ساحة الهوانْ
عن طفلة تشردتْ...
ومثلها الآلاف في لبنانْ
عن قبة تحطمتْ.. في جوفها الأذانْ
في جوفها الصلاة والقرآنْ
ونحن في سباتنا نعانق الأحلامْ
نستنكر المواقف الأليمةْ...
ونرقب الخسائر الجسيمةْ...
ونطرد الأبطال من لبنانْ

● ومن الشعراء الذين نشأوا في تبوك وتأثروا بها إيما تأثير الشاعر عبدالله الصيخان، وفيها تلقى تعليمه وكانت الأحداث التبوكية مصدراً من مصادر تجاربه الإبداعية والقارىء لشعره يرى انطباعات المجتمع في المنطقة الشمالية فقصيدته التي بعنوان (فضة) مستمدة من الأسماء النسائية في المنطقة وتحدث عن مرزوق وهو غلام معتوه في تبوك، أما بشير بن رجاء العطوي الذي رثاه بقصيدته فإنه أحد أبناء تبوك من الشباب ذوي الأخلاق الحسنة والصفات الحميدة.

ومن الكاتبات الشاعرة الحداثية خديجة العمري التي تكتب في الصحف السعودية وتشارك في المهرجانات والندوات الأدبية في بعض الدول العربية. ومن الكاتبات بديعة الحزمي، فكتبت كثيراً من التحقيقات الصحفية واسمها هذا اسم فني. وهؤلاء وغيرهم لم أعثر على نماذج لأدبهم.

ومن الشباب من يخوض في نزاعات أدبية مثل معوض سالم العطوي حيث كتاباته في صحيفة، الرياضية ـ.

وبالنظرة الشاملة للحركة الأدبية في هذه المنطقة ندرك أنها تفتقت عن شباب متطلع، صاحب موهبة، غير أنه ينمي موهبته وفكره تنمية عصامية، يغلب عليها الوسائل الإعلامية الشائع الذائعة من الصحف والمجلات المنتشرة ومثل هذه لا تبنى فكراً سليماً، ولا فناً جميلاً، فليس لهم قدوة، ولا أمامهم أنموذج، لأن المنطقة تفتقر إلى علماء ولا وجود لهم في مدينة عصرية تخلو من فروع الجامعة فأعضاء هيئة التدريس ينمون الوعي بين أبنائهم ولمن حولهم.

وكذلك افتقار المنطقة إلى نادي أدبي يشرف على تطور الفكر الثقافي ويوجهه يؤدي إلى انزلاق الأدباء الشباب في تيه من الثقافة والفكر والفن.

وتبوك في منأى عن العواصم الثقافية في بلادنا، لذا فإن المنطقة أحوج ما تكون إلى فرع لجامعة، ونادي أدبي.

ونحن نستعرض بعضاً من نتاجهم.

٦ ــ فاطمة القرني:

وهي ترمز لنفسها باسم وفاء السعودية لما كانت طالبة في كلية التربية للبنات وتكتب شعراً جيداً ومنه قولها استجابة للدكتور غازي القصيبي:

«آه لو كنت قصيدة»
كنت أسرعت إلى العطر
إلى اللحن الظليل.
وتفيأت ببيت..
من قوافيك الجميلة
وستحكي لي لأني..
ما تواريت خجولة.
سوف تشكو لي العذابات..
وآثار السنين.. وانقضاء الأربعين
دون أن نخشى على أذني.. من صوت العويل
لا تقل دنياك... ويحي
كيف لا تقلق دنياي وقد أقسمت يوماً..
أنك الدنيا.. وأصل العمر أنت..
مثلما..
يتغذى البيت من روح القصيدة.

* * *

غير أني امرأة أحمل..
في روحي أشلائي العليلة
وخيالات من الماضي..
وعينين كليلة
«لست بحراً من بحور الشعر» لكن..

إنما شعري حياتي
سطرته ـ دامياً ـ كفي النحيلة.
وأرى العشرين.. من جور السنين..
والجراحات التي..
تستحث الشيب في مفرق رأسي.. للبزوغ..
جاوزت عمراً طويلاً.

* * *

أنا لا أرجوك «أن تروي غليلاً
أو تسد الجوع بالتفكير في ما
يفعل الجوع بأيتام صغار.. وقعيدة»
طالما يأتي علينا كل يوم.. حاملاً آهاً جديد
فأنا.. هذي «الأنا» تملأ نفسي
وأريد الجود والإيثار والتفكير..
لي.
مثلما أني بقلبك..
ـ دائماً ـ كنت الوحيدة
آه.. والآهات لا تغني بروحي..
كل آمالي الجميلة
لم أزل أحسب دنيانا خميلاً
«وأظن الناس أخواناً.. وأهلاً وقبيلاً»
وتظل ـ العمر ـ في عقلي وقلبي
«فارساً يقتحم الشعر إلى الموت..
إلى دنيا جديدة»[1].

* * *

آه.. لو كنا قصيدة

وطوتنا.. بعض أوراق جريدة

وتلتنا قلوب.. يصل الصدق إليها..

دونما أدنى وسيط

عندها.. قلها معي - آه ما أحلى القصيدة.

* * *

ولما تخرجت من كلية التربية بتبوك أخذت تذيل مقالاتها باسمها الحقيقي (فاطمة القرني) وقد التحقت معيدة بالكلية ذاتها، ثم ابتعثت ابتعاثاً داخلياً لجامعة الملك سعود وهي ما زالت تدرس فيها.

وهي تمثل الفتاة الملتزمة التي استشرفت المعاصرة مع الالتزام بتعاليم الدين الحنيف، فهي تبث هموم الفتاة في إطار الحياة التي تنبع من الشرع الإسلامي، ذلك يتبلور في إطار الحياة التي تنبع من الشرع الإسلامي، ذلك يتبلور من كتاباتها في مجلة (اليمامة) في زاوية (إذا قلت ما بي)، وأيضاً فإن أرباب المهنة الصحفية يشيدون بآداب مهاتفتها في حالة الضرورة وأن جلّ ارتباطها بمكاتب الصحافة عن طريق والدها فحسب.

وقد قالت مقطوعة شاعرية بمناسبة إصدار مجلة (اليمامة) ملحقاً عن تبوك:

مدي يديك

وهيىء الأحضان للجذب الذي

يحتاج صدري.. واحتوي

---

(١) ٦٢ - اليمامة - العدد ٩٦٤، الأربعاء ٢٦ ذو القعدة ١٤٠٧ هـ.

* * *

يا حلوتي
«أهل اليمامة» يوجزونك
بضع صفحات وأخبار
وألوانٍ مثيرة
«أهل اليمامة» حدّدوا
لك ملحقاً
عجباً...!!
وقد عدوا سطوره!!

* * *

غير ملحمة الغبار
وثورة الطين المخاتل
بعد أيام مطيرة
لا يعرفونك
غير (تحت الصفر)
أرقام نشوة
لون بردك حين يبلغ زمهريرة
لا يعرفونك
غير متراس الحدودي
وغير حصن للذخيرة

* * *

وأنا عرفتك
ألف جنس ذاب ممتزجاً

وفي أعماقنا اعتنقت جذوره

وأنا عرفتك

صمت...

وكيف يدوم.

هل في الحب خيرة

ما مات صوتك في دمي

فتقدمي

ليلاي.. دونك تُطربين

وإن تكن لغتي ضريرة

* * *

لا يعرفونك.. والذي أحياك

غير قبائل للبدو

تحضن بعض أطراف الجزيرة

لا يعرفونك..

دفء أيام الطفولة

لثغة الحرف اللحون

وعثرة القدم الصغيرة

وأنا...

وأنت عرفتني

لغة معاندة

وشقاوة جزت ظفيرة

حبي وأنت عرفتني

لهو الصبا

لعنادنا في كل سانحة

مغامرة خطيرة

حبي وأنت عرفتني
حلوى الخدود
وكرتا صفراء يوم العيد[1]

وهذه القصيدة تذكرني بصاحب الأعمش حينما ذهب يسترضي زوجه فأراد أن يمدحه فأخذ يسرد معايبه حيث قال: (لا يبعدك عنه عمش في عينيه وبخر في فيه، ونتن في أبطيه، ودقه في ساقيه) فهي لا تذكر عن تبوك «غير ملحمة الغبار، وثورة الطين، غير تحت الصفر».

٧ ـ المهندس محمد فرج العطوي:

● ومن الشعراء الشباب، الشاعر المهندس محمد فرج العطوي، فقد بعث لي بمجموعة من قصائده، وفيها يعالج بعضاً من قضايا الأمة بقصيدته (ثورة الأطفال) التي تحكي مأساة أبناء فلسطين وهي:

سئمت الليل يوغل في حصاري ... أشاركه السكوت بلا اختيار
يجر مصائبي ويذيب صبري ... ويبقىٰ ساجياً دون انحسار
وليت النوم في مقدور عيني ... وليت النوم يأتي بالقرار
أيسهر من يرى في الليل مثلي ... هموماً لا تعالج بالفرار؟
أيهوىٰ الليل من يحتاج ليلاً ... يزيل به تراهات النهار؟
ويأتي الليل بالأهات تترىٰ ... يصاب الرأس منها بالدوار
وما سهدي الذي أشكو غراماً ... بذات الجيد أو ذات الخمار
ولكني: فتنت بحب أرضٍ ... حباها الله قدسي المزار
لها في قمة العلياء دار ... سمت في قدرها عن كل دار
وخصّت أرضها بالدين حتى ... تناهت في القداسة والوقار
ومعظم أنبياء الله قاموا ... بها يدعون للدرب المنار
طهور ماؤها عبق هواها ... وتهدي أهلها أشهى الثمار
وإني رغم ما أبدي إليها ... غزير الدمع في عيني أواري
لأني ما استطعت لها وصالاً ... ولم أرَ وجهها رغم انتظاري
ولكن عدت للتاريخ بحثاً ... عن الماضي التليد ومجد داري
فلم أرَ في حياة اليوم مجداً ... ولا معنى لعيش أو قرار
فأين المجد والأقصى ينادي ... مراراً أين هم طلاب ثاري؟
طريحاً يستباح ويعتليه ... طغاة الأرض أرباب القمار
فيوماً يشتكي تهديم سور ... ويوماً يشتكي تأجيج نار
وفي جنباته يغتال شيخ ... وحتى الطفل يحظىٰ بالعيار
وأين المجد والأيام تمضي ... ويبقىٰ أهلنا تحت الحصار؟

فعـذراً يـا صـلاح الـدين إنّـا ... لحـطين المجيـدة لا نجـاري
فـلا أعـدادنـا تـكفي لـجيش ... كـجيش قـدتـه لـلانـتـصـار
ولسنـا قـادرين عـلى اعتـدادٍ ... بـأسـنـان كـتـلك بيـوم قـار
ولكن لـن يـطول مقـام خـصم ... يهـاب الموت من أيدي الصغـار
ففي الأرض السليبـة أمهـات ... جلبن النصـر بـالسبـل القصـار
فـانجبن الصغـار وليت شعـري ... أيفعـل فعلهم بعض الكبـار؟!
رأوا ذل الـمعـيشـة فـازدروه ... وقـالـوا لن نقيم عـلى احتـقـار
فهبّـوا يـزأرون بـوجـه خصمٍ ... شـريك في البـلاهـة للحمـار
يخـاف المـوت حتى من نبـالٍ ... وفـي مـقـدوره سبـل الـدمـار
ونـادوا لـلبـريـة فـي ثـبـات ... وقـالـوا الله أكبـر بـافتـخـار
فجلجـل صـوتهم في كـل ركن ... ورددت الـمـدائـن والـبـراري
وجـاءت ثـورة الأطفـال نصـر ... لـحق ضـاع مـنـا بـالحـوار

وله قصائد وجدانية تنبىء عن موهبة جيدة وقدوة على بلورة التجربة الشعورية ومنها:

كفـاكِ لـومـاً فـإن اللوم يضنيني ... وحكمي عقلك حينـاً ولـوميني
وراجعي الأمـر إني لست مقتـرفـاً ... ذنبـاً على ذمـة التحقيق يـوليني
وأمـهليني إذا مـا كـنت راغبـة ... في الحق حتى أوافيـك بـراهيني
فـإنـه نـالني مـن لـومـك ألمٌ ... يغيب حينـاً وأحيـانـاً يـوافيني
يـا من أسأت بي التقـدير معـذرة ... قـد هزني حكمـك لمـا حكمتيني
ورب عيسى لقـد أثقلتني ألـمـاً ... لمـا تبسمت في وجهي لتبـكيني
وقفت لي كانبثاق الصبح باسمـة ... كـالبدر حسنـاً وعطراً كـالريـاحينِ
بالجيد بـاللحظ بالأهـداب ضافيـة ... كـأنـهـا أسهـم سلت لـتـرميني
يـا أيهـا الزهـرة الحسنـاء فـاتنـة ... يـا دوحـة عـطرت شتى الأفـانينِ
آنست فيـك خصالاً ليس يملكهـا ... الآك يـا غـايـة الأخـلاق والـزينِ
فمـا دهـاك أتيت اليـوم مـانعـة ... رد السـلام وقـد كنت تحـييني
وكلت لي من سهام اللوم عاصفة ... تفـوق في وقعهـا وقـع البـراكينِ

وقلت إذ راعني ما قلت قاصدة   جرحي وقد كاد ما قلتيه يرديني
ثم انصرفت وقد أودعتني ألماً   يعاود الفكر من حين إلىٰ حينِ
مهلاً فإن احترام الغير مسألة   تحظى بجل اهتماماتي وتعنيني
وما تعودت جرح الناس قاطبة   فكيف أختارك بين الملايين؟!
وقد تعلمت حب الخير في صغري   فصار كالدم يسري في شراييني
وما تخلقت سوءاً كي أعاب به   ولا صبغت ارتباطاتي بلونينِ
فأدركيني بعفو ليس لي طلب   إلاّه واستدركي ما قلته فيني
وعاوديني بوصل كله أملي   لمسته فيك طبعاً غير تلقينِ
وابدلي البعد قرباً نستريح به   فقد تداعت بي الأشواق تدعوني
وقدري آهة بالليل أرسلها   تعيث بي غربتي والصبر يعييني
واكبري أيها الحسناء غايتنا   وكوننا في اتفاق الرأي صنوينِ
لا سيما وانتهال العلم يجمعنا   من منهل والثريا قاب قوسينِ

ومن وجدانياته هذه المقطوعة:

العين جوادة بالدمع هتان   والقلب من شوقها يكوى بنيران
كأنها أودعتني الحزن مذ ذهبت   فصار أهلي وأصحابي وخلاني
أعيش أذكارها بالليل تصحبني   ويعتلي طيفها أهرام أحزاني
يا بدر ليلي ويا أنوار ظلمته   يا شمعة العمر يا عنوان أوطاني
قد كنت لي نغمة الأفراح أعرفها   وأستقي لحنها من همسك الجاني
فغبت يا دوحة الألحان عن نظري   فكدت أنسى لهول الأمر الحاني
رسائل الشوق يا عمري سأكتبها   إليك مضمونها بالأحمر القاني
فأطفئي شمعة الأفراح وانتظري   ما يحمل الناحب الملهوف من شأني

الرياض١٤٠٨ هـ

ومن القصائد المعبرة عن تجاربه الوجدانية قوله:

تجرعت المرارة والمآسي   وأرهقني الفراق وحل بأسي
وأبديت التجلد حيث يحرى   بمثلي أن يُبوح بما يقاسي
ولكن قلبي الصب المعنى   عصى سبل التأسي والتناسي

فأثرت اصطحاب الليل حتى ... جعلت الليل أصحابي وناسي
أبدد فيه بالآمال حزني ... واترع فيه بالآهات كأسي
وابحر في دجاه بذكرياتي ... وآمل في الوصول إلى المراسي
وتعصف بي رياح الشوق عصفاً ... على منثىً يزيد به ابتآسي
إلى ذكراك تدعوني وتلقي ... عليَّ من المواجع كالرواسي
إلى تلك الليالي كيف كنا ... وقد لعب الغرام بنا سواسي
يوافينا الغرام ويعترينا ... من الأعراض أعراض النواسي
ونملأ دوحة الأفكار وشياً ... من الأحلام لا تحوي برأسٍ
ويبقى حلمنا المرجو حلماً ... ونبقى دونه هدف المآسي
فلا الأيام تمضي دون خطب ... ولا نحن خطونا باحتراسٍ
فصرت بما دهانا مثل طير ... على غصن ينوح بلا مواسٍ
حباه الدهر ألاماً وأوحى ... إليه الحزن إحياء الأماسي
فراح يردد الألحان حزناً ... وقد يهفو للحن الحزن قاسٍ

الرياض ١٤٠٩ هـ

وقصيدته (يا أمة الضاد) تعبر عن موقف الشاعر من حرب الخليج :ـ

ماذا أصاب خليج المشرق العربي؟ ... يا أمة الضاد من حيفا إلى حلبِ
من المكلاّ إلى شرق العراق إلى ... وهران خُطّت لها الأمجادُ في الكتب
إن تاق للمشرقيِّ المغربيُّ سعى ... يبثّ أشواقه الحرّىٰ مع السحب
فكيف إن وقفتْ بالشرق نائحةً ... تبكي من الحزن أخت الدين والنسب؟
تبكي الكويت ويا للهول ما برحت ... بالأمس تبكي اغتصاب القدس والنقب
لو زلزلت أرضها هانت مصيبتنا ... أو هُوجمت من عدو طامع الأرب
لكنَّ أدنى ضروب الغدر منزلة ... غدر القريب قريب الدم والعصب
ماذا اقترفنا بحق الناس من خطأ؟ ... حتى أخذنا بخصم غير محتسب
حرمت شعب الكويت الحر موطنه ... وهم كرام ببذل العين والهدب
غدرت صدام جاراً كان واسفا ... يعطي ويبذل يوم الموقف الصعب
يا قوم لبوا نداء الفهد وامتثلوا ... نداء من غير وجه الله لم يهب

فهد الذي لـو حسبنا فيض أنعمـه على العـراق لانهكنـا من التعب

تفـديـك يـا منبـع الإسـلام أفئـدة نالت أمانيها في روضك الخصب

نـذود عن أرضنـا عنـوان عـزتنـا إما إلى النصر أو في خير منقلب

٨ ـ علي عبدالفتاح سعيد:

والقـاص علي عبـد الفتـاح سعيد من الشبـاب الذين اتجهـوا للفن القصصي القصير، وقد نُشِر له قصصاً منها صوت المؤذن، فراشة تحوم حول شعلة، وجه الحقيقة، تحت الصفر، إلى لقاء، خلطة المغامرة، الصوت والصورة والانعدام، ما بعد التلاشي، يحدث في ليل الظلام، الولوج من ثقب إبرة، قولدا مائير، وجلّ هذا القصص نشر في جريدة الرياض[١].

وقصته (يحدث في ليل الظلام) تمثـل جانبـاً من ألوان الحيـاة في المنطقة حيث تربية الحمام، وصيد الصقور، ومعيشة الساحل.

ونورد أيضاً نموذجاً يدل على تواصله مع قضية المسلمين عامة قضية فلسطين بعنوان (قولدا مائير)، وإيراد هاتين القصتين ليس معناه أنهما أفضل نتاجه، وإنما هما النموذجان اللذان عثرت عليهما.

القصة الأولى: يحدث في ليل الظلام.

كل يوم عندما أنظر إلى برج الحمام القريب من دارنا مساءً وأجده فارغاً من ذوات الأجنحة أشعر بالكآبة.. تساءلت كثيراً عن سبب إصراره المستمر على المكوث خارج البرج ليلاً لفترة تستمر إلى ما قبـل شروق الشمس وقبل آذان المؤذن.. بعد ذلك أجده يتقافز في البرج وتدب الحياة حوله.. تزدحم المساحة الجوية التي فوق البرج بحركة كلها حيـوية بـلا انقطاع إلى ما قبل المغرب ثم تبـدأ أزواج الحمام بـالوصـول تباعـاً إلى البرج..

خمنت بيني وبين نفسي بأن الحمام قرر هذه الليلة عدم السهر خارج البرج وأن سبب عدم مبيته سابقاً ـ انسدال الظلام. وخوفه من الاصطدام

(١) صحيفة المدينة، ملحق الأربعاء ١٤٠٩/٨/٢٩ هـ.

بأسلاك التيار الكهربائي المعلقة وعدم قدرتـه على التركيـز وسط الأضواء المصنعة. . أو لربما كان لعدم تكيفه مع المكان الذي كان يقصده تأكد له ذلك بعد تكرار.

خرج الناس من صلاة العشاء وفي طريقي إلى المنزل لمحت البرج والحياة فيه خامدة ـ الألوان البيضاء، والكحلية والحمراء معدومة منه وأوكاره يعشعش فيها الظلام.

والحمام على بروزات البيت المقابل يربض مطمئناً هانئاً يغازل بعضه بعضاً. . احترت من هذا التغير المفاجىء. سألت نفسي بشدة ليست خالية من العنف عن هذا السبب؟

وكالعادة تجاهلت الموضوع. . ولكن عندمـا استيقظت صبـاحاً بـدأ الحمام تدب قضيته في أعماقي. . قررت عدة قرارات. أولاً: الإستمرار في مراقبة برج الحمام من قبل آذان المغرب. . ثانياً: تأديب من تسول له نفسه اقتناص وإزعاج الحمام (بالنبالات المطاطية) من الأطفال الذين هم أطول مني جسمـاً ولا شك. ثـالثاً: إذا فشلت تلك الجهـود ويجب أن أتناسى الموضوع فلربما للحمام أعذاره الخاصة وسلوكياته التي لا يتأتى لشخص مثلي غير متمكن من معرفتها.

ظلت هذه القرارات فقط مجرد كلام في لحظة حاسمة، صرت دائماً أعبر عن ضجري من عدم معرفتي بسبب مغادرة الحمام لبـرجه في كـل مجلس. . أشعر أحياناً بألم شديد من الضياع الذي يعيشه الحمام خارج البرج، أتساءل باندهاش «الحمام له برج ويبيت خارج برجه الذي بني له بمبلغ كبير يا للعار لِمَ هذه الصياعة أيها الحمام؟»

كنت فقط عندما أخرج من منزلي ترنو رقبتي وتتسع حدقتا عيني وأنا أحـدق في البرج الفـارغ من كل الألـوان والأصوات والصـور الجميلة. . وأتذكر قراراتي وتوصياتي وأشعر بخجل فظيع من نفسي التي تعهدت أمام

الأعضاء الجسدية والحسية والضمير والمنطق بتنفيذها في أقرب فرصة ممكنة.

طرأ على بالي توقع: ربما هناك قبل الغروب صقر جامح يطيب له التحويم فوق البرج فيلوذ الحمام بالهرب.. لكني طردت هذه الفكرة السخيفة من رأسي لأننا ليس في وقت قنص الصقور الذي يصادف وقت ارتحاله.. من شرق أوروبا وأفريقيا إلى الجزيرة العربية في رحلة سنوية لا تنقطع وتكتظ وتتنذ «السبخات البحرية» على ساحل البحر الأحمر بالصيادين الذين لا يرهقهم الصبر المر في إسقاط شاهين جامح متى ما أتيحت الفرصة بعد طول الصبر ومراقبة بمناظير مقربة مع بداية فصل الشتاء وبالذات في أكتوبر.

تمنيت مرات ومرات أن يكون فوق منزلي برج كهذا البرج الشامخ ولكن بشرط أن يتمتع الحمام بالأمان والطمأنينة خاصة وأن حينا الشعبي يخلو هذه الأيام من أسراب الحمام التي تواكب كل يوم أجواء السماء وتضفي منظراً جميلاً لا غنى للإنسان عنه.. يلذ لي رؤية قارب وهو يمخر عباب الماء وجمل في سفر وطائر يطير صباح مساء في أجواء نظري.. ومع هذا حتى أكون مخولاً بهذا الإهتمام بطريقة رسمية شرحت الأمر لصاحب البرج الذي غاضبني تجاهله الأرعن وتكليفه إياي بحل هذا اللغز.. لم يكن صاحب البرج غريباً عن فصيلة دمي..

لم أسأل نفسي بسر هذا الإهتمام والحب الذي صرت أكنه لليمام ولكن ذات مرة كنت أحمل الواحدة بين أصابعي وهي تحمل فوق ظهرها شبكة متينة بطريقة محكمة في الجناحين والساقين. أوجه مقود السيارة بيد، والأخرى ممسكة بالحمامة حتى يسهل رميها لطائر أشك في أصالته وألوذ فاراً عنها وهي تسبح في الفضاء حتى لا يجفل الطائر من صوت المحرك ورؤية السيارة.. ولكن ما ألبث أنظر بالمرآة خلفي إلى المطاردة الجوية بينهما فأجد الحمامة تتبع السيارة بعزيمة قوية فارة من

مخالبه القاتلة. وأوقف المحرك وأترجل.. تتسمر في مكانها كي ألتقطها بصورة لا تتحقق إطلاقاً لو تركتها في الشارع مثلاً. أضمها بين أصابعي بقوة مستنكراً فعلتها الشنيعة أشعر بدقات قلبها السريعة، ينزل على ثوبي الأبيض سائل أصفر مسود.. اغتاظ.. أتجاهلها لأحقق مطلبي.. لكنني أخفقت في صيد مجز. ومنذ ذلك الحين أصبحت لدي قناعة بأنني أعشق الحمام وأعطف عليه وأستلذ برؤيته بكافة أوضاعه التي يسلكها بفطرته الموهوبة.

لم تطل حيرتي في معرفة سر ترك عش الزوجية الذي اعتاده الحمام.. هكذا شعرت بعد ما اكتشفت الحقيقة المؤلمة التي كانت لعدة شهور عائمة بين عجزي وإهمالي وإحساسي بالذنب.. شعرت ذات ليلة بصوت أجنحة الحمام تدفع هواء الشارع مغادرة البرج.. ألقيت بعد ذلك نظرة سريعة على البرج، وجدت قطاً شبيه نمر أخذ في فمه شكلاً غريباً وكأنه اعتاد دوماً على العشاء بوجبة من «الزغاليل» مهما كانت الظروف يلف القط البرج بحركة خبيثة كالثعبان.. ومتنقلاً بين الأوكار باحثاً عن زغب الحواصل في أحدها في ليل الظلام بهدوء ودقة توحي بخبرة كبيرة في هذا المجال. زاد انشغالي وقد عرفت السبب: القط كائن حيواني متحرك وصعب ردعه بالألفاظ. والتحكم به لأنه سريع الحركة والقفز.. والتسلق والهرب... ولكن قتله لم يكن بالنسبة لي أمراً صعباً ولكن هل يستحق الموت.. وكيف نكتفي أنا والحمام شره.. أصدرت فتوى من أحد الفقهاء بنفيه فقط.. سألت: ماذا يعني. قال: ليس هناك داع للقتل فقط يكتفى بعمل شرك والقبض عليه وإبعاده عن مسرح الحمام.

كانت الفكرة جداً جيدة، ولكن يبدو أن القط شعر بالخطر فلم يعد له وقت معين في الهجوم: مرة يهجم قرب الفجر ومرة بعد منتصف الليل ومرة بعد الثانية صباحاً وكأنه كان يعرف وقت انشغالي وإرهاقي..

كلما حاولت أن أمسكه متلبساً وأقذفه بحجر بحنق شديد كان الحجر

لا يصيبه إلى أن شعرت بالملل واليأس وعذاب الضمير على أثر المهمة الرسمية التي وكلت بها بمتابعة هذا الموضوع. يعلم الله مدى تألمي لهذه المأساة ويعلم بضعف الحمام الذي صار أغلبه من الثكالى لفقد صغاره.

مضت عدة ليال والحمام لم يذهب للبرج ليلاً.. وصدفة لمحت القط ظهراً يحمل أحد سيقانه عن الأرض.. شعرت بفرح شديد.. لقد انتقم الله لي ولك أيها الحمام..

ولكن بعد فترة عاد الحمام يبيت في الخارج بعد ما برئت ساق اللعين ولم يصبح هناك عائق يعيقه في القفز والتسلق. ولكن مرة أخرى يلبث الحمام غير معكر الصفو متمتعاً في برجه وأشاهده يحمل الساق ويعرج في مشيته وقد دبَّ فيه الهزال لم يكن توقعي بأنه ألف على أكل الطيور فيه شك رغم امتلاء براميل القمامة ببقايا السمك، لذلك اعتراه الضعف لضعف حيلته.. كنت لا أبخل دعوة صادقة إلا دعوتها من الله بأن ينتقم للحمام منه شعرت بيقين لا ينسل إليه الشك في استجابة الله لهذه الدعوات نصرة للحمام المسكين.. وبدأ الحمام يستلذ بالمكوث في برجه والمبيت بطمأنينة واستقرار.. لكن اللعين عندما تلوح له فرصة شفاء لا يتوانى في استثمارها ومهاجمة البرج على فترات متقطعة ومع ذلك لم يفكر الحمام في هجر البرج ولو مرة واحدة.. تصورت مناظر القطط التي تدهس بإطارات السيارات وتمنيت أن يلقى حتفه قضاء وقدراً حتى يستطيع الحمام أن يلم حاله ويمارس الحب دون تعكير لصفوه[١]..

القصة الثانية: قولدا مائير:

ترفع المطرقة إلى أعلى ثم تهوي بسخط على الرأس. وتصرخ قولدا مائير صراخاً تظن أنه يصل آذان مجلس الشيوخ والشارع اليهودي: تتضح

---

(١) صحيفة الرياض، ع ٧٤٦٧.

جميع تفاصيل الحلم الذي لبثت فيه ساعة أو بعض ساعة، وتفرز الساعة إلى دقائق... دقيقة للسعادة.. دقيقة للزوجية... دقيقة للرعب.. دقيقة للتحريض ضد شعب أعزل.. دقيقة لهدم المنازل.. دقيقة لإضافة مستوطنات جديدة... تتأوه من شدة المطرقة وضيق المكان والنافذة الواسعة التي لا تنفث إلا سموم جهنم والجحيم المستعر... تلعن الانتداب.. تلعن الحلم العريض.. تلعن الجحود والنكران تتمنى أن لو تعود، فتطرد جميع اليهود.. تتمنى أن تلبس حلة بيضاء وعلى وجهها الخبيث تضع نقابا، خوفاً من أن يرى عينيها موشي ديان، وبيغن ورؤساء الأحزاب سأقول لهم جميعاً: هيا بنا نعود إلى التيه... مكاننا ليس هنا.. فلسطين ليست أرضاً لنا.. هيكل سليمان حجة تاريخية عقيمة لا تعطي الحق في استباحة الملكيات.. كسونا العالم حلة سوداء ملتهبة.. يا للعار. أنا امرأة كان ميداني البيت.. أسرة سعيدة وطريق مستقيم.. قيادتي لكم خطأ تاريخياً ضد كرامة الرجال (تهوي المطرقة)... تنصهر وتتجمع في بوتقة المكان. ينتفخ قلبها حقداً على كل من صنع القرار، ونفذه.. تتمنى رؤيتهم فتتشفى في ضعفين من العذاب فيهما.. يتلظى ديفيد السلف وأصحاب وعد بلفور.. تشعر عطشاً.. ترشف كأساً من غسلين.. إرهاقاً شديداً لم تحس بمثله أبداً يعتريها.. تقرر النوم.. وعلى لوحي النار تهوي المطرقة.

لقد تأخر كل شيء، فالظروف متغيرة.. حينما كانت تعتريها وعكة.. تهمس همساً فيأتي من الأطباء أشكال.. من الزوار رؤوس الدولة.. الفتنة.. الآن تصرخ ولا يجدي نفعاً.. «هل هو مؤقت أم أبدي؟؟».. كانت توقن تماماً بأنه سوف تكون لها نهاية فقط.. تموت لحظة الوداع حين الوداع.. مأتم على أعلى مستوى... وفود من جميع أقطار الحلفاء.. وتسير الجنازة على إيقاع موسيقي حزين.. ويحزن الشعب.. وتنهال البرقيات المليئة دموعاً وألماً.. وتصطف ثلة من الجنود حول اللحد.. تنهال باقات الورود، يرتل كبير الحاخامات من كتاب منسوخ.. تراتيل

وضعية ويؤدي طقوساً باهتة.. وتصور المنظر كاميرات العالم.. يعرض في تلفاز الحلفاء ويذكر العالم امرأة قهرت العرب وسيرت دفة بني صهيون المتهالكة.. في كل هذا عزاء لإنسان مصيره الفناء يرقد في مكان مظلم هادىء.. في سبات عميق.. دون كلل أو تعب.. ممجداً من الذين عاصروه والأجيال.. ويقبع في سعادة أبدية.. (تهوي المطرقة).. ليل نهار في المكان المظلمْ تحت الحضارة الإنسانية المليئة بالجهالة والأدمغة المغسولة.. في حضارة لا يعرف مضمونها إلا أولي الألباب.. تتذكر الماضي الذي انتهى من قليل.. تقارن بين.. بين.. تتوسل.. يبح صوتها المهزوز.. تبحث عن معززات هنا!! لا معززات ما لم نوجد معززات سابقة كتبت وسط الحضارة المليئة بالجهالة والأدمغة المغسولة.. تعود إلى باطن الأرض بعدما صعدت السماء، وتأفف منها أهلها.. الاسم الخبيث والريح الخبيث.. قولدا مائير... و..و..و.!

يشتاق التراب إلى التراب.. تضم الأرض جسدها ضم الرحى للبر، حتى تتفتق أضلاعها.. يتراكم الظلام في موضعها بشكل لم تعهده من قبل.. حتى عندما كانت تطفأ الأنوار لأمر طارىء.. لوحان من النار يفترشان المكان.. لتفترشهما... وباب يفتح يبعث لهيباً قاسياً..

«فليبارك الرب قولدا مائير خليفة ديفيد العظيم. إنهما الآن يهنئان في رحمة الرب. جزاء ما فعلا لشعب الله المختار.. وحققا طموحاته.. ونفذا خطته المقدسة.!!».

كسيل جارف كانت موصدة تجاهه الممرات.. كماء يقطر منذ زمن بلا انقطاع على قمة جبل.. يجرف السيل الممرات.. وتخترق القطرة قمة الجبل فيوشك على التداعي.. ينطلق الأطفال.. ينطلق الرصاص.. تحارب الحجارة.. تموت أرواح.. تجمد الحياة العامة وتستيقظ حياة النضال والدم.. تفتح الأرض جوفها لدمائهم رحمة.. تفتح الأرض جوفها لدمائهم نقمة.. وتنتظر الأجساد.. تصرخ قولدا مائير.. تنهال المرزبة

عليها. . لو انهالت على جبل لدكته، تجفل عيون البهائمْ. . والطير الذي مر من هنا لم يرسل صوته تأدباً ورهبة[1].

علي عبدالفتاح سعيد

---

(١) صحيفة الرياض، ع ٧٤٨١ في ١٤٠٩/٥/٧ هـ.

ثبت المصادر والمراجع

* إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم: المناسك وأماكن وطرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق حمد الجاسر، ١٣٨٩ هـ.
* إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، في الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٤٤ هـ.
* ابن الأثير: الكامل في التاريخ، الطبعة الأولى ١٣٧٣ هـ.
* أحمد حسين شرف: اللغة العربية في عصور ما قبل الإسلام.
* أحمد عادل كمال: الطريق إلى دمشق، دار النفائس.
* ابن إسحاق إبراهيم محمد الفارسي: المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر، ١٣٨١ هـ.
* أسعد سليمان عبده: فهرس صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من آثار.
* د. أمين محمود عبدالله، الجغرافية التاريخية لحوض البحر الأحمر، أسيوط، ١٣٩١ هـ.
* أوجست: صور من شمال جزيرة العرب، ترجمة سمير سليم ويوسف إبراهيم، طبع عام ١٣٩١ هـ.
* البلوي: تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تأليف خالد بن عيسى البلوي.

* ابن بطوطة: تحقيقة الحسن السائح، رحلة ابن بطوطة، المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ١٩٦٤ م.

* أبو تراب الظاهري: وفود الإسلام، دار القبلة.

* تيودور سولتز: كيفية التنمية البشرية، ترجمة د. سميرة بحر، مكتبة الوعي العربي.

* الجزيري: الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطرق مكة المكرمة، تحقيق حمد الجاسر، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، منشورات اليمامة للبحث والترجمة، الرياض.

* جمال الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد المطري، التعريف بما آنست الهجرة من معالم دار الهجرة، تحقيق محمد عبد المحسن الخيال، نشر أسعد درابزوني، ١٣٧٢ هـ.

* جواد علي: المفصل في تاريخ العرب.

* حمد الجاسر: أ - في شمال غرب الجزيرة، ب - معجم شمال غرب الجزيرة، ج - ملخص رحلتي ابن عبدالسلام الدرعي المغربي، مقتطفات من رحلة العياشي.

* الحسن بن أحمد الهمداني: صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع.

* حمود بن ضاوي القثامي: معجم المواضع شمال الحجاز.

* الحميري: الروض المعطار في خير الأقطار، تحقيق د. إحسان عباس، مكتبة لبنان، الطبعة الثانية ١٩٨٤ م.

* الأدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، الطبعة الأولى عام ١٤٠٩ هـ.

* سليمان المطلق: ديوان، قبضة من أثر جميل.

* السمهودي: وفاء الوفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
* سنت جون فليبي: أرض الأنبياء، ومدائن صالح، تحقيق عمر الديراوي، المكتبة الأهلية، بيروت.
* سيد عبد المجيد بكر: الملامح الجغرافية لدروب الحجيج، الطبعة الأولى، دار البلاد.
* شكيب أرسلان: الارتساف اللطاف، مكتبة المعارف، الطائف.
* شهاب الدين ابن أبي عبدالله، ياقوت الحموي، معجم البلدان.
* صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي: مراصد اطلاع، تحقيق محمد البجاوي، البابلي، القاهرة، ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م.
* عائشة بنت عبدالله أقاسي: بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، منشورات نادي مكة.
* عاتق بن غيث البلادي: رحلات في بلاد العرب شمال الحجاز والأردن، دار مكة.
* عبد الرحمن شعبان: ألوان، مطبة الجميل، عمان، ١٩٨٥ م.
* عبد العزيز الدوسري: التحركات السكانية وعلاقاتها بوظائف البلدية.
* أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عمر الواقدي: فتوح الشام.
* أبو عبيد البكري: جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري، تحقيق د. عبدالله يوسف الغنيم.
* عبد القادر بن حبيب الله السندي: الذهب المسبوك في تحقيق روايات تبوك، مكتبة العلا، الكويت.
* عبد الغني بن إسماعيل النابلسي: الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، تحقيق أحمد عبد المجيد هريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦ م.

* علي بن الحسين الأصبهاني: الأغاني تحقيق إبراهيم الأبياري.
* علي بن حسين السليماني: العلاقات الحجازية المصرية زمن السلاطين.
* علي عمر باراجي: وتسكن أهدابي تبوك.
* أبو القاسم، ابن حوقل النصيبي: صورة الأرض.
* أبو القاسم الزيالي: الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة براً وبحراً، المملكة المغربية، ١٩٦٧ م.
* أبو القاسم عبدالله بن عبدالله ابن خرداذابة: المسالك والممالك، ليدن، ١٩٠٩ م.
* ابن كثير: البداية والنهاية.
* محمد بن أبي بكر (ابن القيم الجوزية): الرسالة التبوكية، زاد المهاجر إلى رية، مكتبة المدني، جدة.
* محمد أحمد باشميل: غزوة تبوك، دار الفكر.
* محمد بن عبدالله الحسني الموسوي المدني: (كبريت)، رحلة الشتاء والصيف، بيروت، ١٣٨٥ هـ.
* محمد لبيب البتنوني: الرحلة الحجازية، الطبعة الثالثة، الناشر، مكتبة المعارف.
* موسل أ.: شمال الحجازية، ترجمة د. عبد المحسن الحسيني، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٨ م.
* موسى مصطفى عبد القادر العبيدان: مدينة ضباء، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ.
* هيام حماد: لحن في أعماق البحر، وديوان قارب بلا شراع.
* نبيل عبد الحي رضوان: الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية، الطبعة الأولى، مطابع سحر.

* د. يوسف درويش عوانة: ١ ـ إمارة الكرك الأيوبية، دار الفكر عمان.
٢ ـ التاريخ السياسي لشرق الأردن في العصر المملوكي، دار الفكر.

الـدوريــات:

* مجلة العرب: الرياض، في ٢٧ شعبان، ١٤٠٤ هـ.
* مجلة الفيصل: ع ٩٦، عام ١٤٠٥ هـ مارس ١٩٨٥ م.
* التقرير السنوي عن الغرفة التجارية الصناعية بتبوك.
* التقرير السنوي لجمعية الملك عبد العزيز الخيرية بمنطقة تبوك.
* التقرير السنوي إدارة تعليم منطقة تبوك.
* التقرير السنوي إدارة تعليم البنات بمنطقة تبوك.
* الغرفة التجارية الصناعية الدليل التجاري السنوي ١٤٠٥ ـ ١٤٠٦ هـ.
* تقرير عن كافة أنشطة الجمعية للسنوات من ١٤٠٣ إلى ١٤٠٧ هـ.
* ملحق المدينة العدد رقم (٥٠) صفر ١٤٠٣ هـ.
* الأسبوع السنوي للعناية بشؤون المساجد.
* التقرير السنوي للاتصالات ١٤٠٤ ـ ١٤٠٥ هـ.
* أطلال: فصلية الآثار العربية السعودية، العدد الخامس ١٤٠١ هـ.
* تبوك بوابة الشمال إصدار بلدية تبوك.
* الحصاد: شركة تبوك للتنمية الزراعية.
* صحيفة الرياض.
* صحيفة البلاد.


مصر
العربية
EGYPT
الأردن
القريات
الجوف
AL JAWF



مسجد التوبة في تبوك



القلاع الأثرية على سكة الحديد



الأطلال الباقية من سكة الحديد الحجازية



من قلاع السكة الحديدية خارج تبوك



نقيب البكرة



نقيب البكرة



مكان يسمى أم طبق في وادي قنا على أربعين كم



الراشدة في حرة العويرض



في جبل التميم غرب تبوك



صنعاء مكان على درب الحاج بالقرب من المعظم



الأطلال الباقية من قلعة (قُريّة) تبعد عن تبوك ٩٥ كم من الجهة الغربية الشمالية



إحدى المغارات في جبل قُريَّة



بقايا آثار معبد روافة



من الآثار العُيينة (صناعة يدوية)





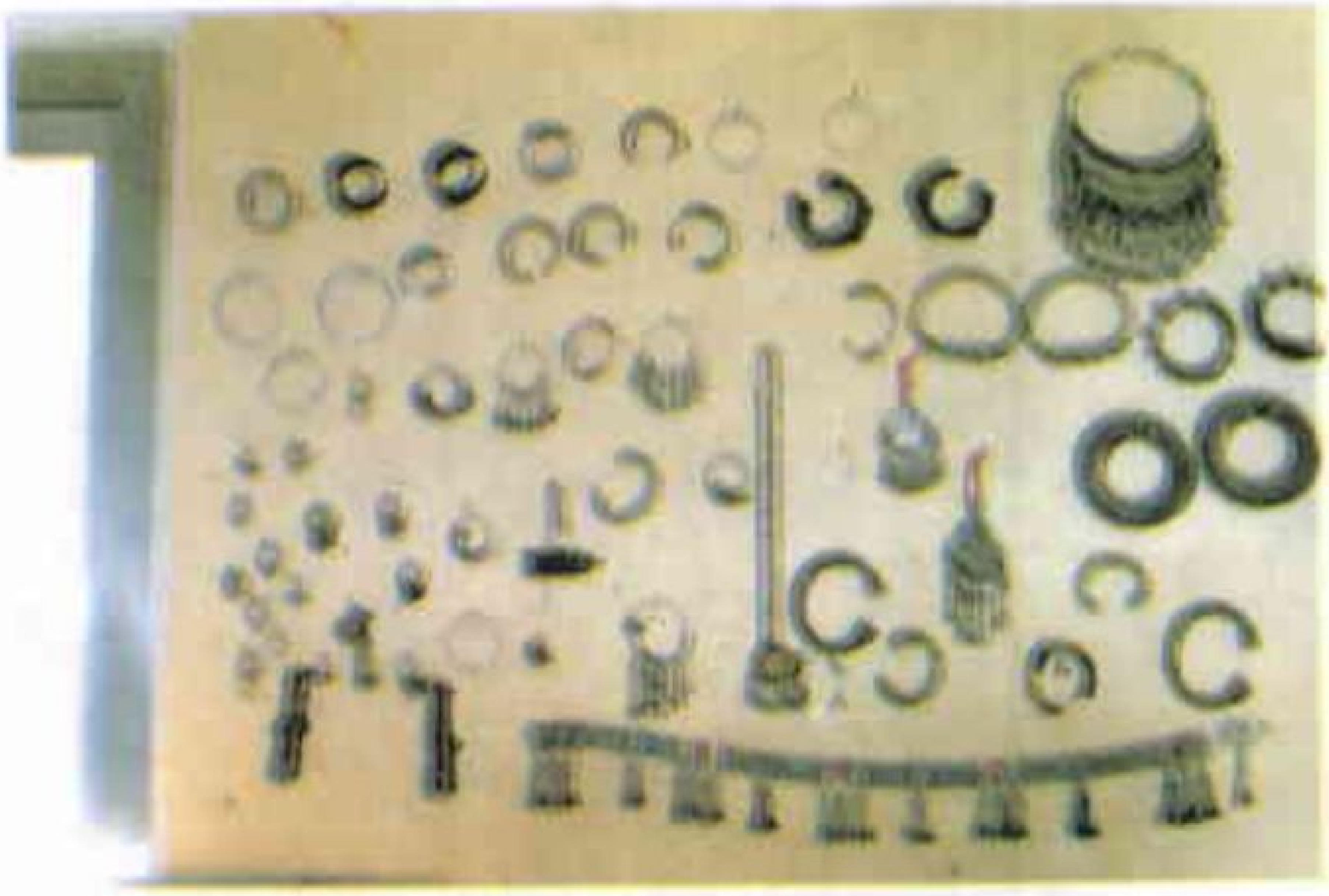
السيوف القديمة



الصناعات اليدوية



صناعات يدوية





مبنى المحكمة الكبرى في تبوك



تزخر تبوك بمراكزها التجارية ومبانيها الفخمة



أحد الطرق الفسيحة التي تخترق تبوك



من معالم تبوك الجمالية



من معالم تبوك الجمالية



من المعالم الجمالية لبوابة تبوك

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

مكتبة التوبة
الرياض - المملكة العربية السعودية - شارع جرير
هاتف ٤٧٦٣٤٢١ ص. ب ١٨٢٩٠ الرمز ١١٤١٥